بلاد الشام
إبّان الغزو المغولي

محمد التونجي

دار الفكر العربي
بيروت



دار الفكر العربي
بيروت

بـــلاد الشـــام
إبـــان الغـــزو المغـــولي



بلاد الشام
إبان الغزو المغولي

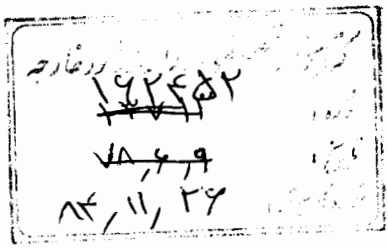
محمد التونجي


كتابخانه تخصصی
وزارت امور خارجه
162452



دار الفكر العربي
بيروت

DS
٩٧/٣
/٩ت
٨ب
١٣٧٧
ن.١



دار الفكر العربي
للطباعة والنشر
كورنيش سليم سلام - مقابل مخفر المصيطبة
بناية الشروق - الطابق الأول
ص.ب. ١٤/٥٠٧٠ - بيروت - لبنان
ت: ٠١/٣١١١١٤ - ٠١/٣١١١١٥، فاكس: ٣١٣٧٣٦

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأول ١٩٩٨م - ١٤١٩هـ



المقدمـة

منذ سنوات وموضوعُ الغزو المغولي للأقطار العربية والعالم الإسلامي يعتملُ في نفسي، ويدفعني إلى تعريف السادة الباحثين والقراء العرب بهذه الهجمة الضارية التي عصفت بآسية، فلم تُبق على أخضرها ولا على يابسها. وكان أن نتجَ عن هذا الغزو تقويضُ صُرُح إمبراطوريات، وإفناء فئات من السكان بكاملهم، وتدمير مدن كان العلم يشع بنوره من رَدَهات مساجدها وأروقة مدارسها.

إعصار أصفر لم يُبقِ ولم يذر، غيَّر من مسيرة عدة إمبراطوريات في الشرق، وعلى رأسها الإمبراطورية العربية العباسية. ودمر عرائس مدن الشرق كبخارى، وبغداد، وحلب. وأوجد إلى ساحات الحكم سلالات غريبةً عن الأرض العربية كالمماليك في مصر والشام، والإيلخانيين في إيران والعراق.

وشاءت الظروف العلمية أن تحطَّ بي عاماً في بريطانية، لأقوم ببحث مبتكر عن الأدب العربي إبّان الزحف المغولي. فاهتبلتُها فرصة نادرة، أستفيد بها من المراجع الإنكليزية والفرنسية، لأضيفها إلى مصادري العربية والفارسية التي كنت نهلتُ منها ما يغذّي بحثي هذا. حتى زاد عدد مصادري ومراجعي على المئة، عدا عشرات أخرى غيرها. فتكشفت لي أسرار مهمة عن هؤلاء المغول، حثَّت خطاي لأن أسهر على البحث وأسرع فيه، وأقدمه فصولاً متكاملة مترابطة، ولا سيما أن أمتنا العربية والإسلامية اليوم تحيا مرحلة مريرة يلزمها كلُّ ما يثير روح الوطنية،

والدفاع عن الوطن الغالي بكل ما هو ثمين.. وها هي ذي القدس يتكالب عليها قوم هم أشر من المغول وأعنف.

وتظل أرض الشام المفدّاة محط أنظار الطامعين قديماً وحديثاً. ولولا رجالات اليوم الذين هم أحفاد رجال الأمس لفقدنا أجزاء غالية، كما كاد أجدادنا يفقدون منها لولا غيرتهم وحرصهم. ومن هذه الأرض ـ أرض البطولات ـ تندفق جحافل الأبطال والشهداء التي تسجل ـ كما سجلت ـ على صفحاتها الناصعة ذكرى معارك خالدات كحطين وعين جالوت.

ونتج عن هذه الدراسات والمطالعات كتابان؛ الأول طبع بدمشق وعنوانه «التيارات الأدبية إبان الغزو المغولي»، والثاني كتابي هذا. وهما من الكتب القليلة جداً في هذا المضمار. وكنت قد نشرت «الأدب في العصر السلجوقي» في ليبيا، و«الإتجاهات الشعرية في العصر العثماني» في دمشق. وبقي عليّ دراسة أخرى عن العصر المملوكي إن شاء الله.

ولقد كشفتُ في هذا الكتاب عن أسرار المغول في جذورهم ومعتقداتهم، وتاريخ أمم الشرق القديم، والغزو الذي قام به جنگيزخان مؤسس هذه الأسرة الغازية، والتدمير الذي خَلَّفه حفيده هولاكو في بلاد الإسماعيلية، والعراق، والشام.. مما لم يبلغه جده فاتح العالم، اتساعاً وتدميراً وسفكاً.

ولمستُ كذلك صلات استعماريةً مشبوهة كانت تجري بين حكام المغول وملوك الغرب ضد العرب. فتعقبتُها حتى كشفتها من مصادرهم، وفصلت فيها لأهميتها بالنسبة إلى التاريخ العربي، وتاريخ الزحف الصليبي الغربي على الشام بخاصة. ثم اهتممت باستقرار المغول، وتسرب الدين بين صفوفهم، ثم تبنّيهم للإسلام والدفاع عنه، وأثر ذلك في علاقاتهم بالعرب، ولا سيما مع مماليك مصر، والعراق، وإيران.

وبينتُ وضع بلاد الشام ومصر المتدهور سياسياً مع ذيول الأيوبيين إثر دخول المغول إلى الأرض العربية. ثم أرحتُ نفسي وقلمي مع وحدة الصف العربي التي بها انتصر العرب على عدوهم في معركة عين جالوت. والتي كانت أولَ معركةٍ خذلان يُمنى بها المغول منذ خروجهم المدمِّر للحضارات من بلادهم، فشرحتُ أسباب النصر، ونتائجه على الأرض العربية.

وقد كان هذا الكتاب كبيراً، غير أن دور النشر اعتذرت عن إمكانية نشره، مما اضطرني الأمر إلى اختصاره، وإخراجه بالشكل الذي هو عليه الآن. ومع أن ما طبعته يُرضيني لأنه يؤدي الرسالة التي أنشُدها، ولكنه لا يُقنعني لأنني أسقطت أشياء ـ مكرهاً ـ كنت أتمنى أن تكون بين يدي القارئ. ومتى كان الكاتب يقدر على نشر كلِّ ما في نفسه؟

وإنني، إذ أقدم مخلصاً بحثي القومي الجهادي البكر إلى الباحثين والقراء، لآمل أن يتحقق لأمتنا نصر في أرض حطين وأرض عين جالوت على أيدي قواد أشاوس مخلصين، لا تحول أصابع الغرب من أداء رسالتهم الوطنية.

والله من وراء القصد.

المؤلف

الفصل الأول

المغول والزحف الجنگيزي شرقاً



أصول المغـول

المغول ـ التتار ـ الترك:

اختلف المؤرخون الغربيون الأوائل في إرجاع كل كلمة من هذه الكلمات الثلاث إلى أصولها، وتباينت آراؤهم، حتى زلّ بعضهم وابتعد عن الصواب. ثم جاءت فئة بعدها استفادت من ملاحظات أسلافها، وسعت إلى جادّات الصواب. وسنحاول إجمال آراء المؤرخين لمعرفة أصل كل قوم من هؤلاء، وتحديد العلاقة فيما بينهم.

يذكر «بارثولد ـ Barthold» أن لفظة «تُورْك» لم تكن معروفة قبل القرن السادس الميلادي، في حين أن «تومسون ـ Thomson» يراها اسماً لقبيلة مستقلة، أو اسماً لأسرة حاكمة. بل ربما كانت هذه اللفظة صفةً خاصة لهذه القبيلة أو الأسرة، وهي تدل على القوة والإحكام[1].

ويعود «بارثولد» إلى تحليله فيرى أن أصل كلمة «تورك» هو «تورو». ولا يعلم كيف اتسع مدلول هذه الكلمة حتى شمل عدداً من القبائل؟ وكان خانُهم يخاطب قومَه بألفاظ: تورك، غُز، تَغَزْ غَر. وإضافة إلى ما ذكر «بارثولد» فإن للترك أسماء أخرى، منها: قارْلوق، أُوْيغور، قِيرغيز... ثم سلاجقة، عثمانيون. وما هذه الأسماء سوى أسماء لقبائل تركية، أو أسماء لأماكن سكنوها.. والحقيقة أن هذه اللفظة «ترك» لم تأخذ معناها الواسع إلا بعد دخول أغلبهم في الإسلام، حيث غدت تطلق على هذه الأقوام الشرقية الصفراء المسلمة.

على أن بارثولد يعود فيربط الترك بالمغول، قرباً وجواراً، لا أصالةً وجذوراً، فيقول: «كان الترك من بين سائر القوميات أقرب إلى المغول.. وكانت التقاليد البدوية في آسية الوسطى تزيد الترك قرباً إلى المغول»[2].

---

(١) تاريخ الترك: ٢٨، وفيه رأيا بارثولد وتومسون.

(٢) المصدر السابق: ١٦٣.

وإذا انتقلنا إلى لفظة «تَتَر» وقعنا أمام مشكلة؛ إذ ما صلةُ التتار بالمغول؟ وأي الفريقين أصل للآخر؟ ثم ما صلةُ الترك بهما؟

فالتتر (التتار، التاتار) اسم لشعب يختلف مدلوله باختلاف العصور. وهو مشتق من شعب «Ta Ta» المغولي الذي سكن الجزء الشمالي الشرقي من صحراء «جوبي - Gobi»[١]. ويذهب «تومسون» إلى أن الاسم «تتر» كان يطلق منذ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) على المغول، أو على فريق منهم، وليس على الشعب التركي وحده[٢].

في حين أن المؤرخين الصينيين كانوا أكثر دقةً من غيرهم، فجعلوا التتار ثلاث فئات:

أ ـ التتار البيض: وهم الذين تخطَّوا سور الصين، وعاشوا مجاورين لأهل الصين، وتأثروا بثقافاتهم وفنونهم.

ب ـ التتار السود: ويقطنون شمال مواطن التتر البيض. وهم قوم رحّل يعيشون في صحراء جوبي.

ج ـ التتار المتوحشون: ويقطنون شمال مواطن التتر السود. وهم الذين كان المغول(!) يسمونهم «شعوب الغابة»[٣] وكانوا يعيشون على الصيد والقنص[٤].

وهذا يعني أن الصينيين خلطوا الشعوب الثلاثة، وعدُّوا من دنا منهم أبيضَ متحضراً، ومن بعُدَ عنهم أسودَ متوحشاً!. ويؤيد كارل بروكلمان هذا الرأي، ويضيف أن الصينيين أطلقوا على الأتراك المقيمين في منغوليا اسم «التتار»، وهو الاسم الذي نقع عليه في نقوش «أورخون»[٥].

وكان التتار يتكلمون المغولية، ويعيشون بجوار بحيرة «بويور» أو «بويرنُور» التي يصب فيها نهر «خالقا»، وحول بحيرة «كولون»، وحول البحيرات المستنقعية. وفي

---

(١) Britannica, 21/832.

(٢) Inscription Del' Orkhon, 140.

(٣) Sykes. A History of Persia, 71.

(٤) تاريخ الترك: ١٥٣.

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية: ٣٨١.

مناطقهم جبال ترتفع ٦٠٠٠ قدم. وهم الذين اشتركوا في حربهم ضد المغول[١].

أما المؤرخون العرب والمسلمون، فقد وسموا كل موجة بشرية وَفدتْ عليهم من الشرق البعيد باسم الترك حيناً والتتر حيناً آخر، من غير تحديد. حتى هجمةُ المغول العاتية سمَّوها باسم التتار. فابن الأثير[٢] حين يورد أخبار سنة ٦١٧ هـ يقول: «في هذه السنة ظهر التتر إلى بلاد الإسلام، وهم نوع من الترك». كما أن مؤلف «حدود العالم»[٣] يفصل بين التتر والترك.

ويطيب للسيوطي أن يصف التتر وصفاً دقيقاً فيه كثير من المغالاة. وهو في هذا يفصلهم عن الترك قليلاً، ويُدنيهم من المغول. يقول:

«هم بالنسبة إلى الترك عراضُ الوجوه، واسعو الصدور، خفاف الأعجاز. صغار الأطراف، سمر الألوان، سريعو الحركة في الجسم والرأي. تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم. وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم؛ لأن الغريب لا يتشبَّه بهم. وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة، فلا يعلم بهم أهلُ بلد حتى يدخلوه، ولا عسكر حتى يخالطوه.. ونساؤهم يقاتلن كرجالهم. والغالب على سلاحهم النشّاب. وأكلهم أيُّ لحم وُجد. وليس في قتلهم استثناء ولا إبقاء.. وكأن قصدهم إفناء النوع وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال»[٤].

أما الوصفُ العلمي الدقيق فهو الذي جاء في الموسوعة الفرنسية من خلال الحديث عن المغول: «.. بشرتُهم ضاربة إلى الصفرة، وقامتهم تقلُّ عن القامة العادية. شعرهم أسود طويل وناعم. جمجمتهم عريضة ومنخفضة، تكاد تكون مستديرة. ولهم عيون مغولية خاصة، يتجعد فيها الجفن العلوي الذي يحجب الأهداب... ولا نجد في وجوههم بروزاً، بينما ترتفع وجناتهم، وتبدو بارزة. أما الأنف فيشكل بروزاً خفيفاً للغاية»[٥].

---

(١) Saunders. The History of the Mongol Conquests, 46.

(٢) الكامل: ١٢/٣٦١.

(٣) لا يعرف مؤلفه: ١٠/١٢١.

(٤) تاريخ الخلفاء: ٤٣٠.

(٥) Ency de L'Islam. 1/162.

ويُعد محمود الكاشْغَري من أبرز من دقق في هذه الألفاظ الثلاث، لأنه عاش في الشمال الشرقي من بلاد ما وراء النهر، وأول من أشار إلى هذه الأقوام. وقد استفاد المؤرخون الغربيون من آرائه كثيراً، والتي منها: اختلاف اللغة التركية عن اللغة التترية[١]، وأن المغول لم يكونوا تركاً تماماً[٢].

وقد انتشر التتار فيما بعد على طول الخط الشمالي لآسية (جنوب روسية)، فكان منهم: تتار الكازان، وهم أحفاد القفجاق وقد استقروا على أطراف نهر الفولغا، ومنهم تتار القرم، وتتار القوقاز[٣].

على أن فئة من التتار كانت تقطن في المجرى الأوسط لنهر «إيتل - Etel» تفضل أن تدعى «بالمسلمين» من أن يطلق عليها اسم «تتر» الذي كان أليقَ بـأسلافهم. ومثلهم في ذلك مثل العثمانيين الذين ظلوا حيناً لا يؤثرون أن يطلق عليهم اسم الترك[٤] كيلا يوسموا بالتدمير والتعذيب.

كما كانت لفظة «التتار» تطلق على سكان القبيلة الذهبية «القفجاق» في جنوبي روسية، مع أن أصلهم مغولي، وأحفاد جنگيزخان، وجدهم الأول «جوجي بن جنگيزخان». وما زال قرابة أربعة ملايين نسمة من التتار يعيشون على شواطئ نهر الفولغا وسيبرية. ولغتهم أقرب إلى اللغة العثمانية من لغة تركستان الشرقية.

ولعل أفضل مصدر يؤكد لنا أن الترك ليسوا تتاراً أو مغولاً، وإنما هم إخوة في العرق واللون والأرض ما استخلصناه من حياة جنگيزخان نفسه؛ فقد «كان يعمد إلى إغواء الأتراك الذين يخدمون في جيوش الأعداء بـأن يهجروا تلك الجيوش وينضموا إلى جيشه، مذكراً إياهم بالحماقة التي يرتكبونها إذا استمروا بممارسة النزاع الأخوي»[٥].

---

(١) تاريخ الترك: ٩٦.

(٢) تاريخ الترك: ١٥٢.

(٣) Britannica - Tatar.

(٤) دائرة المعارف - تتر.

(٥) العالم الإسلامي: ٣٢.

وكثيراً ما نلاحظ المؤرخين الغربيين يتشبهون بالعرب في عدم التفريق بين لفظتي المغول والتتار[١].

وهكذا لاحظنا أن العلماء لم يختلفوا كثيراً بين لفظتي «تتار» و«مغول»، لكنهم اعتبروا التتار أصلاً والمغول فرعاً منهم.

فالتتار اسم عام يطلق على شعوب اكتسحت أجزاء من آسية وأوروبة، جاءت من شرق أواسط آسية ومن قلب سيبرية.. في حين أن الترك يختلفون عنهما في اللغة والأرض وكثير من المظاهر والعادات.

والحقيقة التي ستبينها الرقعةُ الجغرافية أن لفظة «التتار» مرادفة للفظة «المغول»، وأن كثيراً ما أشيرَ إلى المغول باسم التتار. ويبدو أن الشعوب التي انحدرت من أصل مغولي وتتحدث بالمغولية كانت تسمي نفسها أيضاً باسم التتر،[٢] ولا سيما قبل ظهور جنگيزخان. حتى إذا ظهر هذا الزعيم غلب اسم «مغول» على جميع هذه القبائل.[٣] ومع أن جنگيزخان تتري الأصل إلا أنه جعل لفظة «مغول» هي التسمية الرسمية على الجميع[٤]. ثم ما لبثت هذه التسمية أن شاعت وطغت على جميع قبائل التتار.

وكلمة «مغول» في الأصل بضم الميم، وجاءت في بعض نصوصهم بالنون والواو «مونْغول».

أما «الـجَغْتائيون» فهم أصحاب الدولة المغولية في آسية الوسطى. وهم يطلقون على غيرهم من القبائل المغولية اسم «چَتَه» وتعني الصعاليك وقطاع الطرق. ونحسب أن هذه اللفظة نقلوها عن الصينيين، لأن هؤلاء لا يلفظون الراء مطلقاً، فكلمة «تتار» لفظوها «تتا». ثم لفظت «چَته» و«چَتا»، آخذين بعين الاعتبار صفة المغول والتتار معاً والتي هي السلب والنهب.

---

(١) وهو رأي Sykes في: A History of Persea, 71.، ورأي Denise في:
The Mongol and Western Europe, in A History of the Crusades, 716.

(٢) دائرة المعارف ـ مادة تتر.

(٣) تاريخ الدول الإسلامية: ٤٦٥/٢.

(٤) دائرة المعارف ـ مادة تتر.

البيئة والتوزع البشري:

آسية الوسطى شبه منحرف، تحدُّه جبال هيمالايا جنوباً، وهضبة بامير جنوب غرب، وغرباً جبال «تيان شان»، وشمالاً جبال «آلتاي»، وشرقاً جبال «كنجان» وجبال «كوكونور». وتبلغ مساحة آسية الوسطى حوالي ستة ملايين كيلومتر مربع. يسكنها العنصران: التركي والمغولي[١].

لكن المغول أقاموا حصراً في منطقة ضفاف الأنهار: «تولا» و«أونون» و«تيرولين»، بينما أقام الأتراك «الكيراتيون - Keroites» بين «تولا» و«كان - سو»، وهم نساطرة. كما أقام الأتراك «النايمان - Naimans» بين أورخون العليا وسلاسل آلتاي العظمى، وقسم منهم نساطرة أيضاً. ثم الأتراك «الأُويْغور - Ouigours»، وهم أكثر الأقوام تحضراً. وهم نساطرة وبوذيون وفيهم مسلمون. وقد أقاموا حول «تُرفان» و«كوتشا». كما أقام الأتراك «القارلوق - Karluks» حول «الإلي». أما الأتراك «الأويْرات - Oirates» و«الماركيت - Markites» فحول بحيرة «بايكال».

يحدُّهم شرقاً ولاية الختا، وغرباً ولاية الأويغور، وشمالاً القِيرْغِيز وسِلِنْكاي، وجنوباً «التنكت» و«التيبت»[٢].

أما المغول فيرون أنهم كانوا يعيشون على وجه التقريب في الجنوب الغربي من بحيرةٍ حتى حدود «كيرولين - Kerulen».[٣] ولما قامت إمبراطورية القرَه خَتاي (الختا السود) أُخرج الأتراك من منغوليا، وحلَّ محلَّهم القبائلُ المغولية الظافرة[٤].

وهكذا تعدُّ منغوليا البوتقة التي خرج منها الجنسان التركي والمغولي - التتاري. على أن بارثولد[٥] يرى أن المغول امتدوا شرقاً حتى سور الصين، وهو الصحيح؛ لأن السور بُني أصلاً لصدِّ زحف قبائل المغول المتوحشة.

هذه البقاع الواسعة والمساحات الشاسعة تؤلف السهوبُ جزءاً كبيراً منها،

---

(١) تاريخ الترك - المقدمة.

(٢) تاريخ فاتح العالم: ١٤/١.

(٣) لغت نامه - مادة تاتار.

(٤) دائرة المعارف - مادة تتر.

(٥) تاريخ الترك: ١٥٣.

وتبرز المرتفعات العالية والوديان السحيقة. كما تكوّن الصحارى معظم هذه الرقعة. لهذا نرى فيها ثلوجاً وأنهاراً وسيولاً جارفة.

ومناخ بلادهم قاري، تتخلله تغيرات متطرفة في درجات الحرارة[١]. وهذه المنطقة التي احتوت هاتين الأمتين كانت كالبركان الذي يقذف حُمماً متلاحقة في أوقات متفاوتة. فالترك حين تُحركهم البراكين البشرية يندفعون لقضم الأخضر واليابس، في حين أن الشعوب المغولية تكون هادئة. فإذا ما هاج المغول أكلوا الترك وما صادفوه حتى الصخر.

فالمغول على هذا أكثر وحشية وثورة على مَن حولهم، قبل أن يكونوا ناراً على الأمم الأخرى. ولعل لجفاف هضابهم وجفاء طبيعتهم سبباً في هذه القسوة.

يصف الرحالة «كارْبيني» بلاد المغول فيقول: «لا تجدُ واحداً على مئة من أراضيهم خصباً. ولا تنتج الفاكهة إلا على ضفاف السيول والجداول. أما الأنهار فقليلة جداً. وليس عندهم مدن إلا ما تسمى قَرَه قُورُم»[٢].

وطقسهم ذو تقلبات مدهشة؛ ففي منتصف الصيف، حين تكون المناطق الأخرى متمتعة بحرارة عالية عادة تسمع رعداً وبرقاً. وقد يسببان موت كثير من الناس. كما تتساقط عندهم كميات كبيرة من الثلوج. ورياحهم قارسة عاتية، ولا تهطل الأمطار في بقاعهم شتاء، لأن المطر صيفي. ولهذا فنادراً ما تنبت الأعشاب.

يتضح من هذا التوزع السكاني أن المنطقة الشمالية الشرقية لآسية كانت موطناً لعدد من الأقوام، ينقسمون إلى قسمين كبيرين: ترك وتتار. ولا نشك في أنهما كانا شعباً واحداً في زمان سحيق[٣]. يدل على ذلك إجماعُ عدد من العلماء القدامى والمحدثين على أن لهما لغتين مختلفتين، ولكنهما كثيرتا التشابه.

---

(١) العالم الإسلامي: ١٩.

(٢) The Mongol Mission. 5.

(٣) كان عطا ملك الجويني صاحب ديوان هولاكو ومؤلف كتاب «تاريخ جهانگشاي» يذكرهم مرة باسم المغول، وأخرى باسم الترك، وثالثة باسم التتار. وهذا يعني أن المؤرخين المعاصرين لهم يعدّون الفئات الثلاث شعباً واحداً وهو العرق الأصفر. وتذكر الموسوعة الفرنسية أن المغول يمثل هذا العرق أفضل تمثيل: ١٦٢/١.

لكن الذي لا شك فيه ـ وسيتضح فيما بعد ـ أن الترك أكثر حضارة من التتار، لأنهم دخلوا في ديانتين سماويتين هما النصرانية والإسلام، في الوقت الذي كان فيه التتار متوحشين لا دينَ لهم. وأن جنگيزخان حين أراد أن يدوِّن «اليساق» لم يجد لأمته لغة مكتوبة، فحث الأبناء على تعلم الأويغورية (التركية) ذات الخط السرياني الأصل. وكانوا يغيرون على مدن الأتراك، أو يشترون منهم بضائعهم، في الوقت الذي كان فيه التتار لا يملكون سوى الخيام والمراعي.

المجتمع المغولي وثقافته:

معلوم أن المجتمعات البدائية يربطها قائد هو الزعيم الأكثر قوةً، ويجمعها معتقد يوجههم نحو رجال الدين المُهَيْمنين على المعابد. أما ثقافتهم فتكون نابعة من حياتهم، أو تكون وافدة عليهم.

أما مجتمع المغول فكان خِلواً من زعيم بارز قبل ظهور جنگيزخان. كما لم تكن معتقداتهم ذات أهمية في حياتهم وفي ثقافتهم، وأغلبها وافد عليهم من جيرانهم. أما ثقافتهم فكانت بدائية جداً، دل عليها هذه الوحشية التي عُرفوا بها.

ولعل الشعب الصيني أسبق الشعوب القديمة انتكاباً بالمغول، دليلنا على هذا بناؤهم السورَ العالي الذي يتخطى قمم الجبال والوديان على خط اتصالهم بهم. ومع ذلك فقد تخطَّوْه وحكموهم من ١٢٠٦ ـ ١٣٦٨م، وكان اسم الأسرة الحاكمة «اليوانية». وما زالت آثارهم بادية، حتى العملة الصينية اليوم اسمها «يْوان»، والعملة اليابانية «يان» من بقايا هذا التأثير. وقد أسمَوْهم «شعب الخنازير»، وسجلوا في حوليّاتهم أقدم ذكر لهذا الشعب «المغولي» المتوحش[1].

يشبَّه المغول بالجراد الهائج الذي يطغى على الزرع الأخضر المثمر، فيمتصُّ رحيقه، ويهشم أفنانه، ويُزيل أثماره، فلا يُبقي حياة حيث يرى الحياة. لأنهم شعب متنقل، متفكك، يرفض الاستقرار، ويرفض الحضارة، ويرفض الأديان.

كان عيشُهم مقصوراً على الرعي والصيد؛ الكبار يصطادون الوحوش والحيوانات الضخمة، والصغار يلاحقون الأرانب والجرذ البرية والقواضم. في حين أن نساءهم يصنعن الأوتار من أمعاء هذه الحيوانات، ويثقِّفْن الأقواس والنبالَ

---

(١) Saunders. The History of the Mongol Conquests, 45.

للرجال. كما عليهن صناعة الدروع، وتقليم العظام لتكون أسنَّة لرماحهم.

أما لهوُهم فعواصفُ من الصخب والخلاعة والمبارزة وسباق الخيل والشراب ومغازلة النساء علناً وبإباحية. لا همَّ لهم إلا لقمةٌ، وصهوة جواد يرقون به المرتفعات الصخرية أو الثلجية من غير إحساس بالبرد أو بالخوف.

ولا شك أن الأقوام البدويين والجبليين أقوى من الأقوام المستقرين الذين يعتمدون على الزراعة. لأن الأمم الزراعية يُرضيها الترف ويُرخيها الرخاء، ويعوِّدُها النوم بانتظار الخير القادم. في حين أن البدو المتوحشين لا يَقلق بالهم، ولا يخشون أمراً. فتراهم يطيعون رئيسهم - وهو الأقوى طبعاً جسداً وعقلاً - حتى إلى الموت، ويستجيبون وينفِّذون بسرعة فائقة.. أليس تنفيذُ الأوامر تفريغاً لطاقاتهم المزدحمة في نفوسهم؟

لم تأتِ هذه القسوةُ من بدائيتهم وحسب، بل أرضُهم الجافة، وطبيعتها القاسية التي تضنُّ عليهم بالدفء والخير، جعلتهم ينقادون إلى الوحشية طواعيةً ومن غير خيار. فهم لا يرون الخضرة على الروابي إلا في ثلاثة أشهر من السنة، ومنذ تشرين الثاني يبدأ الصقيع، وتتلوه الثلوج والرياح العاصفة.[1] لهذا تراهم يتحايلون على كسب القوت مهما كلفهم ذلك من السفك والقتل والتدمير، حتى غدا ذلك عادة لديهم.

وهم لا يدمِّرون إلا أفضل ما تتطاول إليه أيديهم؛ فقد ساءهم أن يلقوا الصين منعمة رخية، متطورة، متحضرة. فأخذوا يهاجمونها من الشمال والشمال الغربي. ولئن استطاعت فئة منهم أن ترقى أسوارهم وتحكمهم، لقد حوَّلوا تدميرهم نحو بعضهم بعضاً في بادئ الأمر، ثم نحو جيرانهم من الأمم المتحضرة. حتى إذا برز جنگيزخان وجه تدميرهم نحو العالم الإسلامي.

وكانوا كلما رأوا دماً ازدادوا حماسة. وكلما قُتل منهم رجل استشاطوا غضباً، وأمعنوا في السفك والقتل. لهذا قورنت المجازر البشرية بفتوحات المغول. وكم كان يؤلمهم منظرُ الحضارة، والتقدم، وأبنية المعابد! فكانوا القوة البشرية الوحيدة في العالم التي جهزت الجيوش لتحطيم صُرُح الحضارات والأديان في آسية وأوروبة.

---

(١) Ibid, 44.

وما زال الإنهيار الإنساني، والذي مضى منذ سبعة قرون لم يشفَ من أفعالهم. وحتى زمنٍ قريب، وفي بعض كنائس أوروبة الشرقية كان الابتهال إلى الله يشمل قولهم: «خلصنا يا رب من غضب المغول»[1].

لقد بثُّوا الرعبَ في النفوس بأقوى مما تفعله البراكين. لذا عَدُّوا دولة المغول أسرع قوة ظهرت في الأعصر القديمة، وبسنوات معدودات دانت لهم خرائب آسية. بل بسنة هجرية واحدة أطاحوا بأشهر إمبراطوريتين في الشرق، هما: الخوارزمشاهية، والعباسية.

على أن هجومهم السريع كان سبباً في ذوبانهم السريع أيضاً. فهم زلزلوا العالم في مطلع القرن السابع الهجري من أقصى آسية إلى شواطئ بحر الأدرياتيك. وما فعلوه في بخارى وسمرقند وبغداد وحلب.. من المشرق، لا يقلُّ عما فعلوه في جنوب روسية وهنغارية وأواسط أوروبة.

على أن هذه الوحشية كانت طبعاً فيهم، ولم تكن سياسة مفتعلة في بادئ الأمر. حتى إذا أحسوا بفائدتها وشعروا بجدواها تعمدوها وقصدوها. فغدوا يقتلون الأسرى على مرأى من أهليهم عمداً، ويقودون الحشود من الأسرى ليدوسوهم كي يتخطوا الخنادق، أو ليضعوهم في مقدمة الجيش كي يُنْفِدوا بهم صبر العدو وذخيرته.

وقد يحلو لهم أن يمدوا الأسرى أحياء على الأرض، ثم يبسطوا الألواح الخشبية فوقهم، ليقيموا حفلاً سامراً على أجسادهم، فيضجُّون ويرقصون حتى تتكسر عظامهم ويموتوا تحت أقدامهم[2].

وكم قتلوا الرجال أمام النساء، والنساء أمام الرجال. بل كانوا يقتلون كل حي، بما في ذلك القطط والكلاب. حتى غدت وحشيتهم مدرسة حربية تضمن النصر لمن يتبعها. ولم تكن وحشيتهم نحو أعدائهم وحسب، بل بدت نحو بعضهم بعضاً. فإذا اختصم اثنان لم يجرؤ أحد على حل الخصام. ولا يتمُّ ذلك إلا بقتل الواحد منهما الآخر. وحين مات جنگيزخان، وأرادوا إخفاء خبر موته، قتلوا كل جندي بلغه النبأ حتى لا يبوح بخبر الموت.

---

(١) Sykes. A History of Persia, 71.

(٢) Ibid 77.

وكانوا، وهم مسالمون، متوحشين. فإذا اشتهى أحدهم امرأة مّا قتل ألفاً ليصل إليها. فقد ذكر ماركو بولو[١] أن جنگيزخان طالب «أُنْك خان» أحد أمراء القبائل المجاورة المسيحية بأن يبعث إليه ابنته المسيحية ليتزوجها. ولما رفض أونك خان ذلك شنَّ عليه جنگيزخان حملة فقتله وأفنى جيشه واحتل بلاده.

ومع كل ما ذكرنا من وحشية وبدائية تطبَّع بها المغول فلا بد أن نشير إلى أن «اليساق» دل على بدء التنظيم والتفكير في صهر المجتمع تحت راية واحدة وقوانين ثابتة.

ولعل أبرز نقطة نشير إليها ـ بعد وحشيتهم ـ هي الطبقية. فيذكر المؤرخون أن منغوليا كانت حتى مطلع حياة جنگيزخان تعيش صراعاً طبقياً مريراً. فقد كانوا طبقتين متباينتين:

١ ـ **طبقة أرستوقراطية:** تمثلت في شخصية رؤساء القبائل.

٢ ـ **طبقة شعبية:** جمهرة السكان الفقيرة.

ويعزو «ساوندرز ـ Saunders»[٢] انفصال جاموكا عن صديقه تيموجين (جنگيزخان) إلى هذه الطبقية؛ فعدَّ تيموجين رئيس الفرسان الأرستوقراطيين، وجاموكا رئيس الفرسان الشعبيين. فقد كانا صديقين حميمين، ثم اختلفا في الرأي، وانفصل جاموكا عن جنگيزخان، واتخذ لقب «كورخان». واحتدم الصراع بين الطبقتين أدى الأمر في النهاية إلى انتصار الأرستوقراطية، وإبادة قسم كبير من أنصار جاموكا ثم قتله[٣].

لكن «بارتولد شبولر ـ Bertold Spuler» شك في مسألة الطبقية، وعزا إبرازها إلى المؤرخين الروس؛ فهي بنظره «قضية تظل مدعاة للشك»[٤]. ونؤيد كلام بارتولد لعلمنا أن جنگيزخان نشأ فقيراً يتيماً ذليلاً هو وإخوته وأمُّهم. ولم تكن ثورته على جاموكا أكثر من دافع الحقد.

---

(١) Marco Polo. The Traveles, 34.

(٢) The History of the Mongol Conquests, 50.

(٣) تاريخ الترك: ١٥٤.

(٤) العالم الإسلامي: ٢٣.

وقد كان رئيسهم يدعى «خان»، وقد يدعى «قاآن»[١]. وهم لم يتحلوا بلقب آخر طوال حكمهم، ويعادل لقب «كسرى» عند الفرس.

وحين تزعمهم جنگيزخان أدرك ضرورة أن يكون مشاوروه من فئة عالية التفكير. ولما لم يجد من بين المغول من يستطيع أن ينيره في أمور بناء دولته رأيناه اعتمد على بعض شخصيات الأمم المغلوبة والمجاورة كالصينيين، والترك المسلمين، والنايمان. وقد كان من أشهر مشاوريه «محمود يلواج» المسلم، و«تاتاكوس» الأويغوري، و«يلوجوت ساي» الصيني[٢]. وحين انتصر على ملك النايمان كان من بين الأسرى «تاتنوغو» مستشار ملك النايمان. فضمه إلى حاشيته، وإليه يعود الفضل في تهذيب المغول وتمدينهم. وهو الذي علم أبناء جنگيزخان اللغة الأويغورية وفن الكتابة[٣].

ولا شك أن جنگيزخان أول شخصية مغولية بدأت بتسريب الثقافة إلى بلاده. وهو حين وحّد الشعوب التترية والمجاورة كالنايمان والكيرايت والأويغور توحّدت معه الثقافة. فدخلت معارف هذه الأقوام إلى شعبه الهمجي.[٤]

أما المرأة فلم يكن لها، في بواكير حياتهم، قيمة تذكر. فهي تقود العربات، وتُعد الطعام، وترعى الأغنام. وإذا أمرها زوجها حاربت معه. ولا يعرفون نكاحاً رسمياً وللفرد أن يجمع من النساء لديه بقدر ما يستطيع، ولو كان عددهن مئة.. وذلك على قدر طاقتهم المادية. ولهم أن يتزوجوا من يشاؤون عدا أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم. أما الشقيقات وزوجات الآباء فجائز.[٥] وإذا اشتهى رجل امرأة أتاها، وقد يأتيها أكثر من رجل. وهذا أشبه بالاشتراكية المزدكية. ولكن المرأة فيما بعد برزت حاكمة، ووصية على العرش، وذات كلمة مسموعة.

والمغول لا يحرّمون شيئاً، ولا يرون نجاسة في الدنيا. ويذكر الرحالة «روبروك

---

(١) إذا أطلقت لفظة «قاآن» وحدها في كتب التاريخ فُهم أن المقصود «أوكتاي قاآن» لشهرته بها.

(٢) تاريخ مغول: ٧٦.

(٣) A History of Persia, 74.

(٤) The Mongol Mission, x.

(٥) من رحلة كاربيني في كتاب Dawson: ٦.

- Rubruck»[1] أنهم يأكلون الميتة من جميع الحيوانات. وإذا زاد عندهم لحم حفظوه للشتاء. ويؤيده كاربيني بأنهم أكلوا الكلاب والثعالب، حتى لحوم البشر.. كما أكلوا روث الخيل. ويتابع كاربيني: «ورأيتُهم يأكلون القُمَّل. ويقولون: لمَ لا نأكلها وقد رأيناها تأكل لحم أبنائنا، وتمتص دماءهم؟». وهم لا يصنعون الخمور بل يبيعهم إياها جيرانهم. وقد يبقون بلا طعام أياماً، ولكنهم يرقصون ويغنون إن شبعوا[2].

وهم يرتدون ثياباً بسيطة، لا يختلف شكلها بين الرجال والنساء. ولا يحبون القبعات ولا العباءات. وثوبهم رداء سميك مفتوح من الأعلى إلى الأدنى، ويُربط من الطرف الأيسر بربطة واحدة، بينما يربط من الطرف الأيمن بربطتين. لكن الأغنياء منهم يرتدون الملابس المستوردة من الختا ومن إيران، وتكون عادة حريرية أو قطنية أو مذهبة. أما الفقراء فيصنعون ثيابهم من الجلود، أو من النسيج القطني أو الصوفي الغليظ. ويحرقون ميتهم ويحتفظون برماده.

جنگيزخان ونشـأة المغول:

كان المغول، قبل جنگيزخان، قبائل بدوية وكتلاً بشرية، تنتجع مواطن الكلأ، وتعتمد في عيشها على لحوم الخيل وألبانها. وكانوا يتبادلون السلع والجلود مع مجاوريهم الختن - Khitans والترك والصينيين. وكانوا قبائل صغيرة متفرقة متعادية، يحكم كل قبيلة رئيس، وكان أبرزهم الأونك خان - Ung Khan[3]. وكانت مملكة الصين آنئذ - ودَورها ستة أشهر - تنقسم إلى ستة أجزاء، كل جزء مسيرة شهر، يتولاه خان. وخانهم الكبير الذي عاصر «خوارزمشاه محمد» يسمى الطُّرخان، ومقر إقامته في «طوغاج»، وهي واسطة الصين. وكان أحد هؤلاء الخانات الستة يدعى «دوشي خان»، وكان متزوجاً عمة جنگيزخان[4]. وكان المغول آنئذ خاضعين للصين.

يبدأ تاريخ المغول فعلاً بجنگيزخان. ويذكر مؤلفو ترجمة هذا الزعيم روايات

---

(١) من رحلة روبروك في كتاب Dawson: ٩٧. تاريخ الخلفاء: ٤٣٣.

(٢) من رحلة كاربيني في كتاب Dawson: ١٦.

(٣) Marco Polo. The Travels, 93.

(٤) تتمة المختصر: ٢٠٤/٢.

مختلفةً ومختلقة عنه وعن أجداده، كي يصنعوا له نسباً لائقاً بالحكم. وقد بلغ ببعضهم أن جعل ولادته أسطورة خارقة للطبيعة. وتناقلت الأجيال هذه الأسطورة، فزادتها أسطورية يوماً بعد يوم[١]. وهذا أمر معهود لدى الأسر التركية والمغولية في آسية الوسطى القديمة. فقالوا: إن جنگيزخان هو الذئب الأزرق الذي ولد بقدرهِ الذي حددته له السماء العليا، وزوجته هي الظبية الصهباء[٢].

ينتمي أجداد جنگيزخان إلى فرع من إحدى القبائل المغولية البورجيجينية - Borjigin. وبعد حقبة زمنية سادتها الفوضى نجحت هذه القبائل في لـمِّ شتات عدد من القبائل حولها. وكان «قابول خان» آخر جد من أجداد جنگيزخان، وألمع زعيم حاول توحيد المغول، واستطاع مع ابن عمه وابنه (عم جنگيزخان) الانتصار على بعض أعدائه.

وهناك رأي آخر يذكر أن جده الأخير هو «بوزنجرخان» وهو والد «بيسوكاي»[٣]. فأبوه على هذا هو «يسوكاي بَهادُر». إلا أن المؤرخين يكادون يُجمعون على أنه لم يكن الرئيس الأعلى لقبيلته، بل كان أحد الأمراء البارزين فيها، وأحد من عملوا على استقلالهم عن الصين. بينما فئة أخرى ترى أنه كان شيخ القبيلة، وتحت إمرته أربعون ألف خيمة.

وأياً كان الأمر، فإن أباه كان ذا مكانة مرموقة في قومه. ولأسباب مجهولة تقريباً تمكن أحد أعوانه من قتله بالسم سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٧م.

مات أبوه وعمره اثنتا عشرة سنة[٤]. ويرجح أن تكون ولادة تيموجين - Temujin - وهذا هو اسمه الأصلي - سنة ٥٤٩ هـ - ١١٥٥م[٥]. غير أن المراجع الصينية ترى أنه ولد عام ١١٦٢م. أما المؤرخون العرب فيجعلون مبدأ حكمه سنة ٥٩٩ هـ، ويرون أن سني مملكته كانت خمساً وعشرين سنة. ويذكرون أنه ولد وكانت كفه مملوءة بالدم، فقال العرّاف: «سيكون سفاكاً للدماء

---

(١) The History of the Mongol Conquests, 45.

(٢) Aulein, Encyclopaedia Universalis.

(٣) نهر الذهب: ١٣٠/٣.

(٤) ترى الموسوعة السابقة أن عمره ثماني سنوات، بينما يرى الغزي أن عمره ثلاث عشرة سنة.

(٥) تاريخ الدول الإسلامية: ٤٦٦/٢.

ويملك الربع المسكون»[١]. فسماه أبوه تيموجين باسم رئيس قتله[٢].

وبموت أبيه انفرط عقد العشيرة الصغيرة مع غيرها؛ فقد رفضوا أن يخلف طفل صغير أباه، لأنهم بحاجة إلى حاكم قوي. ومرت بتيموجين الأيام الصعبة، فتجرع مرارتها، مما اضطره للجوء إلى رئيس قبيلة «الكرايت ـ Kereit»، واسمه «أونك خان» ـ وكان هذا نسطورياً مسيحياً ـ وصادقه. إلا أن هذه الصداقة لم تدم طويلاً، لأن تيموجين كان يقوى يوماً فيوماً، في حين أن أونك خان يزداد خوفه منه[٣].

وهكذا نشأ تيموجين يتيماً فقيراً متجولاً مع أمه وإخوته الصغار، في حين أن نفسه كانت تَتَّقد حقداً ورغبة في تحقيق طموحه الذي يتمثل في الحق للأقوى. ولذلك كان يتدرب دوماً على الرماية وركوب الخيل. وتذكر لنا المصادر أن معركة وقعت بينه وبين أونك خان، فانتصر فيها تيموجين بعد أن قُتل فيها أونك خان. ونقلت إلى تيوجين قيادة القبائل[٤]. وحين أحس «تاي يانغ» ملك «النايمان ـ Naiman» باستفحال أمر هذا الفتى حاول الاتفاق مع ملك «الأونغوت» أو التتار البيض لمحاربة تيموجين قبل أن تزداد طموحاته[٥]. لكن رئيس الأونغوت أخبر تيموجين بالمكيدة. فما كان من تيموجين إلا أن هاجم تاي يانغ وسحقه[٦].

ولنعد قليلاً إلى مرحلة ما قبل وفاة أبيه. فقد زوجه أبوه فتاة اسمها «بورت ـ Borte» من قبيلة «أونغيرات»، وهي التي ستكون أم الأباطرة فيما بعد. وفي هذه الأثناء تصادق تيموجين مع «جاموكا ـ Jamuka»، وكان من قبيلة أخرى، واتفقا معاً على الصداقة والحرب. وفي هذه الأثناء حاول زعيم قبيلة «تيجيئوت ـ Taichiut» قتله، بعد أن تمكن من أسره، ووضع نير البقر في رقبته، لكنه استطاع أن يهرب منهم ذات ليلة واللحاق بأسرته. ولكنه فوجئ بأن قبيلة «المركيت» نهبت

---

(١) نهر الذهب: ١٣٠/٣.

(٢) A History of Persia, 71.

(٣) تاريخ مغول: ١٥.

(٤) المرجع السابق.

(٥) The History of the Mongol Conquests, 52.

(٦) A History of Persia, 71.

قبيلته وسرقت زوجته بورت. فأعد جيشاً بمساعدة «الكرايت»، وقاد صديقه جاموكا المعركة. وحين عثر على زوجته رآها حاملاً، ولم يعرف إذا كان الطفل منه أو من أعدائه. هذا الطفل هو «جوجي» ابنه الأول.

وفي هذه المرحلة تولّد عداء بينه وبين جاموكا ـ كما سيرد شرحه ـ وانفصل الاثنان، من غير أن يُعرف سبب هذا العداء وهذا الانفصال. ولعله حسدُ جاموكا من شهرة صديقه، أو لعله الاختلاف الطبقي، أو أن تيموجين أحس بوجود علاقة بين جاموكا وزوجته بورت.

واتفق تيموجين أن ذهب لزيارة عمته في الصين يعزيها بوفاة زوجها. فأشارت عمته عليه بأن يتسلم إدارة البلاد بعد موت زوجها فقبل تيموجين[1]. لكن «طُرخان» الخان الأعظم استنكر هذا الحكم، فاتفق تيموجين مع اثنين من خانات الصين على حرب طرخان وخلعه. وتوسع بذلك حكم تيموجين، وازداد أكثر حين مات «كشلوخان» أحد الاثنين اللذين شاركاه في ميراث بلاد الخان[2].

مع أن هذه الروايات المختلفة يعتريها الاضطراب مكاناً وزماناً إلا أن فيها جانباً من الصحة. ذلك أن المعروف أن تيموجين أسس جيشه بمساعيه الخاصة، ولم يُعرف عنه أنه خرج من بلاد منغوليا حتى بلغ الخمسين من العمر[3]. ولعل ما حصل كان إبّان فتوحه في الصين. وكانت القبائل التي تتبعه تحط رحالها على شواطئ نهر «أونون ـ Onon» في شرق منغوليا، وكان حريصاً على عدم خروجه من البلاد حتى يتمَّ له توحيد صفوف هذه القبائل. وبعد أن تم له هذا التوحيد والتغلب على قبائل الكرايت جمع تيموجين مجلس «القُورِيلتاي»[4] المؤلف من رؤساء القبائل سنة ٦٠٢ هـ ـ ٢٠٦م لدراسة أمر الحرب، فمنحه الشامان[5] لقب «جنگيزخان»[6]. وكانت

---

(١) تاريخ الخلفاء: ٤٣٠.

(٢) تتمة المختصر: ٢/٢٠٥.

(٣) تاريخ الدول الإسلامية: ٢/٤٦٦.

(٤) القوريلتاي: مؤتمر رؤساء القبائل والقواد لدراسة كل حدث جلل يمر بالقبيلة.

(٥) انظر عقائدهم بعدُ. وعدَّ هذا العام عام تأسيس الدولة المغولية.

(٦) جنگيز: كلمة تركية قديمة مشتقة من «تنكيز» التي تعني المحيط أو الكمية الكبيرة من المياه.

نتيجة هذا الاجتماع أن ملّكوه عليهم، وقرروا أن يكون حكمه خلفاً لأبيه، وأن تكون الخانية إرثاً في أولاده من بعده[1].

فباشر أولاً بحرب «الأُويْغور - Ougours» سنة ٦٠٥ هـ - ١٢٠٩م، وكانوا يعيشون في الحوض الأعلى لنهر أورخون وأطراف جبل «قره قورم Kara Korum» فأسسوا دولة تركستان الشرقية. وبحكم موقعهم اتصلوا بكثير من أقوام آسية، واستفادوا من أديانهم كالبوذية والمانوية والمسيحية، وعن المسيحية انتشر الخط السرياني.

وبعد أن انتصر على الأويغور برزت قوته في المنطقة، فاتجه نحو الصين ليفتحها سنة ٦٠٧ هـ - ١٢١١م، واستولى على جزء من شمالها، ولكن الشمال كله لم يتم فتحه إلا في عهد حفيده «قوبلاي خان»[2]. وسببُ حربه لملك الصين أنه أفنى قبيلة من التتار تدعى «موغول»، فهاجمه جنگيزخان يطالب بالثأر لهذه القبيلة. على أن الذي يهمنا من فتوحه خارج منغوليا هو ما تمَّ فتحه شرقاً.. حين كان عمره خمسين سنة.

ولا بد من دراسة القوانين الإدارية والعسكرية التي وضعها ودعاها باسم «اليساق»، وبه وبيساقه تأسست أكبر دولة مدمرة في العالم.

اليساق المغولي:

اليساق: تعاليم المغول الاجتماعية والعسكرية، وأعراف مجتمعهم التي اعتادوا مداولتها واحترامها. ومعناها في الأصل: الحكم والنهي والأمر والزجر. وقد أسماها لهم ابن بطوطة «قانون المنع»[3] وأحسن ذلك. وحين انتقلت هذه اللفظة معهم إلى إيران صار معناها: القتل. الموت. المنع. وهم ينطقونها: يساق، يا ساق، يَسق، ياسا، ياسه.

وحين نُصب جنگيزخان ملكاً على القبائل جميعاً فكر بوضع برنامج لهم يكون باكورة منجزاته، واستلهم هذا البرنامج من عاداتهم وأضاف عليه أموراً، ثم

---

(١) The History of the Mongol Conquests, 50.

(٢) Encyclopaedia Universalis.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٢٤٨.

أجبرهم على اتباعه واحترامه. وحين وجد أن لغة المغول محكية غير مكتوبة أمر الأطفال بأن يتعلموا الكتابة الأويغورية[1]، وأن يدونوا اليساق ويحترموه ويحفظوه. وعلى كل أمير تابع له أن يحتفظ بنسخة منه يسير عليه ولا يحيد عنه، ودُعي باسم «ياسا نامه بزرك»[2].

واستمر ملوك المغول يعملون بأحكام هذا القانون حتى بعد دخولهم في الإسلام، لأنهم عَدّوه كتاباً مقدساً كالكتب السماوية لأصحاب الأديان!

وقد استطعنا جمع باقة من هذه الأحكام اليساقية، مما ورد ذكره في الكتب المتناثرة. على أن أساس اليساق كان مما لقّنه إياه شيخ جنگيزخان وهو طفل. ومما قاله له: «مهما بلغت بلادنا من الاتساع فلن تبلغ جزءاً من مئة جزء من أرض إمبراطورية الختا. أما السر الذي جعلنا قادرين على العيش إلى جوار تلك البلاد حتى الآن فهو أننا قوم رحل، نحمل متاعنا وزادنا أينما توجّهنا. وقد أكسبتنا الظروف خبرة حربية واسعة. فنحن إذا تمكنّا غزونا وغَنمنا، وإذا عجزنا توارَينا واختفينا».

ومن أبرز قوانين اليساق:

١ ـ ليساعدْ كل واحد منكم الآخر، ولنقض على جميع الأجناس.

٢ ـ من سقط منه سلاحه أو رحله وهو يحارب، وكان وراءه زميل له. فعلى الزميل أن يترجَّل ويناول زميله المقاتل ما سقط منه. فإن لم يفعل ذلك أقربُ مقاتل له وجب قتله.

٣ ـ طعام الجندي زق من اللبن، أما بقيةُ زاده فعليه أن يسلبه من خصومه. وإن تعذر ذلك عليه فليقطع شرياناً من شرايين جواده ويرتوي من دمه، ثم يعود فيربطه!

٤ ـ إطاعة القائد في الحرب واجبة، ولو إلى الموت.

٥ ـ القوريلتاي: اجتماع رسمي يحضره الأمراء وأبناء الملوك إذا ألـمَّ خطب

---

(١) الخط الأويغوري خط سامي أخذوه عن النساطرة، ثم انتقل إلى المغول فكتبوا به، ومنذ ذلك اليوم والمغول يكتبون به. وهو الذي شاهدناه منقوشاً على آثارهم في الصين.

(٢) أي: كتاب القانون الكبير. ونحسب أن هذه التسمية جاءت فيما بعد، لأن التسمية فارسية لا مغولية.

في البلاد، أو إذا مات الخان، وذلك لاختيار خلف له. وحضور القوريلتاي إجباري لا يجوز التخلف عنه. ومن تخلف عنه حكم على نفسه الموت غرقاً أو قتلاً. وتكون المناقشة فيه علنية وصريحة. ويُدرس في القوريلتاي مسألة تعبئة الجيوش، وتخريب بلاد الأعداء، وتعيين القواد العظام، وتنظيم مجلس الشورى[1].

٦ ـ من ذبح حيواناً على الشريعة الإسلامية أُعدم.

٧ ـ لا يجوز نهب العدو قبل أن يُصدر القائد الأعلى تعليماته.

٨ ـ الجواسيس مهمون جداً في الحرب.

٩ ـ يخضع الجميع لأوامر الخان. وعلى الأمراء أن يستجيبوا لرسول الخان مهما كانت قيمةُ حامل الرسالة صغيرة وكان مقام الأمير عالياً. وطاعة رسول الخان واجبة ولو إلى الموت.

١٠ ـ يقسم الجيش إلى فرق، كل فرقة مؤلفة من تومان[2]. وعلى كل ألف أمير، وعلى كل مئة أمير، وعلى كل عشرة أمير. وتجري المخاطبة والأوامر بحسب تسلسل المراتب.

١١ ـ عند إعلان النفير العام يتسلم كل جندي سلاحه من الضابط المكلف على حفظ الأسلحة. ويتبعه ضابط آخر مهمته تفقُّد صلاحية هذه الأسلحة الموزعة.

١٢ ـ لا يجوز الجلوس في الماء الجاري نهاراً. ومن جلس قتل.

١٣ ـ تنظم ألبسة الجنود وأسلحتهم بحسب مواقعهم من المعركة؛ فالفرق الأمامية ترتدي الدروع وتحمل السيوف والحراب، وتغطى خيولها بالدروع. أما الفرق الخلفية فتحمل القوس والنشاب.

١٤ ـ لا ينفرد أحد بأكل شيء وغيره يراه. بل عليه أن يُشركه في طعامه. كما لا يجوز أن يتمتع أحد بالطعام دون أصحابه. وإن مرّ أحدهم بمن يأكل ـ وكان جائعاً ـ جلس يشاركه طعامه ولو لم يستأذنه.

---

(١) تاريخ مغول: ٧٧.

(٢) التومان: عشرة آلاف. واسم عملة إيران منذ حكم المغول لهم.

١٥ ـ يوزع الأب أملاكه بين أولاده الكبار. وإن كان الأب أميراً فإن الابن الأصغر هو الذي يرث العرش.

١٦ ـ لا يجوز لأحد أن يتخطى ناراً، أو يمر من فوق سماط الطعام.

١٧ ـ لا يدخل خزانة المملكة شيء من مال الميت. بل يوزع على أسرة الميت، وإن لم يكن له أحد وزع على خدمه.

١٨ ـ للرجل الحق في شراء الزوجة التي يريدها. كما أن له الحق أن يتزوج أختين معاً. وله أن يتخذ ما شاء من الجواري.

١٩ ـ في مطلع كل عام يعرض الأهالي بناتهم الأبكار على الخان، فينتقي منهن زوجات لأولاده، أو وصيفات للقصر.

٢٠ ـ كل شيء طاهر، وليس ثمة نجسٌ في حياتهم.

ومن خالف أحكام اليساق وجب خلعه أو قتله قطعاً. ولكن علينا أن نذكر أنهم خالفوه كثيراً. وإذا استبقنا الأحداث قليلاً وجدنا الأخ الكبير يحتل العرش بدلاً من الصغير. وسنلاحظ أن الدسائس تُحاك قبل اجتماع «القوريلتاي»، وأن الحروب تحتدم بين الإخوة وأبناء الأعمام عند تسلم العرش أو توزيع البلاد على الأولاد.

فتوحات جنگيزخان

غـزو بلاد ما وراء النهر

لم تكن مطامح جنگيزخان أن يوجه جيوشه غرباً إلا بالقدر الذي يلزمه لتثبيت دائرة إمبراطوريته المغولية. فقد كان قصارى آماله أن يسيطر على القبائل المغولية كلها. وبعد أن تـمّـت له هذه الآمال اتجه نحو مطمحه الكبير بالاتجاه شرقاً.

إنه يريد أن يفتح الصين «والماجين»..[1] والصين حلم المغول الكبير بكنوزها وخيراتها ومراعيها. لكن القدر شاء أن يحوِّل أنظاره غرباً أيضاً. الغرب بكل ما فيه من رهبة وهيبة وتجارة وثراء وخيرات. والسبب الأساسي للتحول نحو الغرب هو خوارزمشاه إمبراطور المملكة الخوارزمية الإسلامية بغطرسته وغبائه وتقصيره.

فقد كان خوارزمشاه يطمع في تسلم مقاليد الأمور في بغداد من أيدي السلاجقة[2]، لكن الخليفة كان يرفض خوارزمشاه. ولهذا أشيع بـأن الخليفة الناصر كتب إلى جنگيزخان يحرضه على حرب خوارزمشاه. والحقيقة أن المغول لا يحتاجون إلى تحريض الخليفة كي يهاجموا خوارزمشاه ويؤدبوه. كما أن بارثولد[3] لا يعتقد بـأن الخليفة الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٧٩ ـ ١٢٢٥م) يكاتب جنگيزخان لسببين: الأول أن جنگيزخان في هذه الحقبة لم يكن مشهوراً حتى يفكر الخليفة الاستنجاد به. والثاني أن جنگيزخان كافر، فكيف يستعين الخليفة به؟

وبينما كان جنگيزخان مشغولاً بتذليل دولتي: الخطا والصين كان خوارزمشاه مشغولاً أيضاً بفتوحاته في آسية الوسطى مع بلاد ما وراء النهر وممالك

---

(١) ماجين: الصين الجنوبية (الكبرى). ويسميها ماركو بولو «المانجي».

(٢) تاريخ مغول: ١١.

(٣) تاريخ الترك: ١٦٠.

الغوريين. وكان ينوي متابعة فتوحاته في الصين، إلا أنه فوجئ بأخبار جنگيزخان واحتلاله بلاد الأويغور والتيبت، واحتلاله «بكين» عاصمة الصين الشمالية. فسارع خوارزمشاه إلى إرسال رسله إليه، وإعلامه بأنه ملكُ الغرب، كما أن جنگيزخان ملك الشرق. وحثه على رابطة صداقة ومسالمة بين الطرفين، وفتح علاقات تجارية تُرضي الشعبين[1]، ضارباً بذلك على الوتر الذي يميل إليه المغول.

والحقيقة أن خوارزمشاه لم يكن يفكر بقضايا شعبه التجارية ولا غير التجارية. وكل همه منصب على حكم العالم المعمور. وما مراسلاته هذه إلا لإيهامه بقوته وسيطرته كمرحلة أولى لاحتوائه سياسياً كما كان يطمح. غير أن خوارزمشاه فوجئ بردّ قاسٍ ينمُّ على ترفع وإباء من جنگيزخان، مماجعله يغتاظ كثيراً. لكنه كتم غيظه لحين مواتاة الفرصة المناسبة.

وفوجئ خوارزمشاه بقدوم ثلاثة تجار مسلمين من قِبل جنگيزخان يحملون إليه رسالة. ومما جاء فيها:

«ليس يخفى عليَّ عظيمُ شأنك وما بلغتَ من سلطان. وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات. **وأنت عندي مثلُ أعز أولادي.** وغير خاف عليك أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك. وقد أذعنت لي قبائلهم. وأنت أخبر الناس بأن بلادي منارات العساكر ومعادن الفضة، وأن فيها لغُنية عن طلب غيرها. فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجبهتين سبل التردد عمَّت المنافع وشملت الفوائد»[2].

جاءت جملته «أنت عندي مثل أعز أولادي» شرارة الغيظ التي ألهبت خوارزمشاه. فقد كان يتصور أن يصله رد تقدير وإجلال، أو على الأقل على قدم المساواة. لكنه كتم غيظه ريثما يحين الوقت المناسب ليردَّ عن نفسه هذا الامتهان الذي لقيه من جنگيزخان[3].

ومسألة التجارة لدى المغول ذات أهمية كبيرة جداً؛ فبلادهم فقيرة، وصناعاتهم معدومة. وهم ـ على هذا ـ مستعدون لشراء كل ما يرد عليهم ولو

---

(١) A History of Persia, 75.

(٢) العرب والتتار: ٢٥.

(٣) A History of Persia, 76.

بأضعاف الثمن، ولا سيما أنهم في طريقهم إلى الثراء بعد هذه الفتوحات.[1] وكان الخانات يشاركون التجار في تجاراتهم أحياناً، ويخصصون في بلاطاتهم موظفين لمراقبة الحركة التجارية والأموال العائدة إليهم.

على أي حال تمت المعاهدة التجارية بين الطرفين. وسارع جنگيزخان إلى إنجاز الصفقة التجارية التي كان يحلم بها. فأمر أمراء المغول وكبارهم بأن يجهز كل واحد منهم بعض أبنائه وخواصه، ومعهم الأموال الكثيرة، للذهاب إلى بلاد خوارزم الغنية والتبضع من هناك. وطمأنهم إلى أنه سيرسل معهم حامية من جنوده. ولا شك أن لبعض رجال الحامية مهمة أخرى، وهي التجسس ومعرفة مدى قوة الدولة الخوارزمية.

وسارت القافلة المغولية التجارية، وعدة رجالها قرابة خمس مئة رجل، حاملة معها بعض السلع المحلية التي قد تجد لها رواجاً في بلاد ما وراء النهر[2]. وكانت مدينة «أترار ـ Otrar» أول أرض خوارزمية يطؤونها. وكان أميرها التابع لخوارزمشاه يدعى «أَيْنا لْـجُـق»[3]، وكان من أسرة تركان خاتون والدة السلطان (ويروى أنه أخوها، أي خال السلطان)[4]. ولقبه السلطان «غايْر خان». ويقال إنه شرهتْ نفسه من أحمالهم وأموالهم[5]. كما يقال إن بعض أدلَّاء القافلة كان يعرفه، فناداه باسمه الأصلي «أينالجق»، فغضب غاير.

ونرجح أن يكون الأمران سبباً في حجز التجار، وإعلام خوارزمشاه بأمرهم. ولعله أخبره بوجود جواسيس معهم، من خبرٍ انفرد به ابن نظيف[6]. وقد سَجل ردَّ السلطان إلى حاكم أترار بقوله: «من المصلحة ألا يمكّن هؤلاء من دخول بلادنا..».

---

(١) انظر المسألة التجارية في الجزء الأول من تاريخ فاتح العالم. وستلاحظ أنهم في فتوحهم ما كانوا يقتلون أصحاب الحرف، بل يأخذونهم معززين إلى بلاد المغول. وانظر الكامل لابن الأثير: ٩/ ٣٣١.

(٢) تاريخ الترك: ١٥٩.

(٣) انفرد ابن نظيف فجعل اسمه «رسلان» في تاريخ المنصوري: ٨١.

(٤) تاريخ الخلفاء: ٤٣١.

(٥) تاريخ مغول: ٢٢.

(٦) تاريخ المنصوري: ٨٢.

فأمره السلطان بقتلهم أجمعين بقوله: «.. فتجهِّزهُم وتسيِّرُ إليهم من يأخذهم ويقتلهم حتى كأن الحرامية(؟) قد فعلوا بهم ذلك». فقتلهم غاير بك جميعاً، واستولى على كل ما يحملونه ويملكونه[١].

لكن واحداً من التجار استطاع أن يهرب بحيلة ما[٢]. ويطير على جناح السرعة إلى جنگيزخان، ويروي له ما جرى لأصحابه من قتل ونهب. فأرسل جنگيزخان رسوله إلى خوارزمشاه يلومه على ما فعل غاير خان، ويطالبه به ليقتصَّ منه. لكن خوارزمشاه أساء في تصرفه بأن رفض إرسال غاير خان، وقتل رسول المغول[٣]. وهكذا اشتعلت نار الحرب بين الطرفين، فكشف ما في النفوس، وهاج ما كان يختمر في الرؤوس.

غير أن جنگيزخان لم يتحرك لتأديب السلطان بسرعة، بل فكر أولاً بتوطيد دعائم حكمه، واستخلاص ما حوله ليطمئن على مركز إمبراطوريته. حيث أخذ بمحاربة الترك والفرغانيين سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨م[٤]. ومهاجمة «كوچلك خان» ملك دولة النايمان، وقتله.

وقد أثارت انتصارات جنگيزخان على دولة النايمان حفيظة خوارزمشاه،[٥] فدب فيه الرعب والتأثر، ولا سيما أنه يعد نفسه حامي المسلمين في المشرق، والنايمان أغلبهم مسلمون. لكن الذي أحجمه عن إعلان الجهاد لحرب جنگيزخان، أن هذا القائد المغولي كان يترك للمسلمين حريتهم في مباشرة شعائرهم الدينية كالمعتاد. والسبب الأهم أن خوارزمشاه لم يترك له صديقاً في المنطقة إلا حاربه أو أساء إليه. ولهذا رأى أن الحكمة تقتضي التريث.

وفوجئ سنة ٦١٦ هـ - ١٢١٩م[٦] - بعد عام واحد - بتوجه جيوش المغول

---

(١) انظر الكامل: ٣٦٢/١٢، أحداث سنة ٦١٧ هـ، للتفصيل.

(٢) يقول ابن نظيف (ص ٨٢): «وما سلم منه إلا شخص واحد تركوه قصداً ليعود إلى صاحبه يخبره بما جرى».

(٣) A History of Persia, 76.

(٤) تاريخ الخلفاء: ٤٣١.

(٥) The History of the Mongol Conquests, 55.

(٦) حدد ابن نظيف الهجوم سنة ٦١٧. بينما أخطأ سايكس فجعلها سنة ٦١٢ هـ.

نحو بلاده، ترافقه جيوش جرارة من الأويغور والماليغ والقارلوق الأتراك المسلمين. ويروى أن جيش المغول كان أقل من مئتي ألف[١]، في حين أن جيش خوارزمشاه بلغ أربع مئة ألف[٢]. وبينما بدت جيوش المغول منظمة موزعة بشكل مدروس، كانت جيوش خوارزمشاه مفككة القيادات، وغير منتظمة. كما أنها لم تدرك الخطة التي أعدَّها جنگيزخان. زد على ذلك أن خوارزمشاه لم يكن يثق برجاله، ولا بأمه التي كانت تسيطر على كثير من رجاله[٣]. كما أن وزيره خرج عن طاعته فيما بعد، ومعه قسم كبير من جيشه[٤].

ومن البديهي أن تكون «أترار» هدف الهجوم الأول، لأنها أول مدينة تقابلهم، ومركز غايرخان الذي كان سبب هذه الحملة. ومن أترار صمم جنگيزخان على قتل خوارزمشاه والاستيلاء على بلاده ذات الغنى والثروة. وهكذا تنازل عن حلم فتح الصين لأحفاده، ووجه كل عزمه نحو هذه المغامرة. ولهذا عقد مجلسه العسكري، وقسم جيوشه أربعة أقسام؛ كل قسم يقوده أحد أولاده، ويحتفظ لنفسه بالفتح الأكبر. وهكذا:

١ ـ عين ولديه جَغَتاي وأوكَتَاي مع عشرة آلاف محارب لمحاصرة أترار.

٢ ـ وجه ابنه جوجي (توشي) نحو أطراف نهر سيحون وجَنْد خاصة.

٣ ـ أرسل جيشاً كبيراً لفتح بخارى.

٤ ـ اتجه بنفسه ومعه ابنه تولوي (تولي) لفتح خُجَنْد وبَناكت.

كان خوارزمشاه وحيداً في الميدان، لا صديق له ولا حليف. فاعتراه الاضطراب، ولم يدر ماذا يفعل، فترك كل شيء لقواده، ولم يستعد الاستعداد الكافي[٥]. ونراه يعسكر في سمرقند منتظراً قوات المغول كي تهاجمه.[٦]

---

(١) A History of Persia, 76.

(٢) Ibid, 56.

(٣) تاريخ مغول: ٢٤.

(٤) الكامل: ٤٩٦/١٢.

(٥) A History of Persia, 76.

(٦) تاريخ الشعوب: ٣٨٥.

ولما لم تجد جيوش المغول من يقف في وجهها انقضَّت على المدن بكل شراسة وهمجية، تفتحها عنوة، وتقتل رجالها، وتأسر نساءها وأطفالها، وتقود صنّاعها إلى مغولستان. بينما كانت تقود الشباب أمامها ليكونوا الترس الأول في وجه العدو. كما أنها استخدمتهم عبيداً لها، أو تقتلهم وترمي جثثهم في الخنادق كي يدوسوها ويعبروا بها الخنادق.

وتمادى المغول في الفتح والقتل من غير رادع، حتى رويت الوديان من دماء السكان الأبرياء. وما فعلوه في مدينة بخارى بسكانها وعلمائها، لا يجد القلم له وصفاً فقد كانوا يُخرجون السكان إلى ظاهر المدينة ويقتلونهم[١]. ثم يرسلون رجالاً مهرة في نقب المخابئ والمجاري والآبار لإخراج المختبئين وقتلهم[٢].

وحين فتحوا بخارى وسمرقند بعد هرب خوارزمشاه منها وهنت قوى قواده وجنوده. ولم يعد أحد يحارب، بل كانوا ينهبون ويهربون من وجه المغول. لذا لم يلق جنگيزخان جبهة واحدة تصدهم أو تجابههم. وهكذا ظل خوارزمشاه يحاربهم ويهرب من وجوههم شمالاً وغرباً حتى بلغ جيلان وآمُل[٣]. وحين أحسّ بدنوّ جيوش المغول ركب سفينة من مازندران ليختبئ في جزيرة صغيرة وسط الخزر وتدعى «آبَشكون». وقد وصلها بعد أن تراكمت عليه الأوجاع، واشتد به مرض «ذات الجنب». فمات في الجزيرة سنة ٦١٧ هـ - ١٢٢٠م. وكان قد حكم إحدى عشرة سنة وبضعة شهور[٤]. واتسع ملكه من حدود العراق إلى تركستان وبعض الهند وغزنة وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبل وخراسان وبعض فارس[٥].

ولم يتوقف المغول عن فتوحهم بعد موته؛ فقد وجدوا لذة في سفك الدماء

---

(١) يكفي قراءة مشهد واحد مما فعلوه في بخارى وسمرقند في الكامل: ٣٦٦/١٢، أو رحلة ابن بطوطة: ٢٤٤، أو تاريخ فاتح العالم: ٧٥/١ ليستدل على فظائعهم.

(٢) ذكر الجويني أن أحد المغول كان يؤذن ليوهم الناس المختبئين أن المغول رحلوا. حتى إذا خرجوا قتلوهم.

(٣) تاريخ مغول: ٣٩ جيلان وآمل: تقعان على شواطئ بحر الخزر.

(٤) The History of the Mongol Conquests, 59.

(٥) تتمة المختصر: ٢٠٩/٢.

والقتل. فجدُّوا في ملاحقة زوجته وأولاده حتى قبضوا عليهم. ثم اتجهوا نحو جرجانية، وكانت تحت سيطرة أمه تركان خاتون. فاستولوا على المدينة، ثم قبضوا عليها، وغنموا أموالها.

وحين سمع جنگيزخان أن «جلال الدين مَنْكُبَرْتي»[١] خلف أباه خوارزمشاه، وأنه فتى جريء وشجاع، أعد لحربه ثلاثة جيوش، ومع أنه حاربهم وصمد أمامهم، إلا أن قوته لم تكن كافية، فهرب منهم وهو يعبر نهر السند على حصانه وهم مذهولون[٢]. ثم عاد إلى المغول بعد حين ومعه جيش كبير. غير أنه سار مسيرة أبيه في محاربة الأمراء، ومعاداة بغداد[٣]. ومع أنه احتل آذربايجان وجورجيا سنة ٦٢٣ هـ - ١٢٢٦م، وانتصر على المغول في عدة مواقع إلا أنه لم يستطع الصمود أمام أعدادهم ووحشيتهم. وكانت نهايته على يد رجل كردي كان يجمع الأسلاب[٤].



وفاة السلطان محمد خوارزمشاه في جزيرة «آبسكون»
(عن نسخة «جامع التواريخ» المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس)

(١) تاريخ الشعوب: ٣٨٥. وفي القسم الثاني من اسمه خلاف في إملائه ونطقه.

(٢) تاريخ المنصوري: ٨٩.

(٣) A History of Persia, 89.

(٤) تتمة المختصر: ٢٠٩/٢. وانظر المرجع الإنكليزي السابق: ٨٩.

فلول خوارزمشاه:

رأينا أن خطة جنگيزخان في تمشيط آسية كانت منظمة، لذلك صعب على خوارزمشاه مجابهته. وبالتالي تـمَّ للمغول احتلال خوارزم بأسرع مما كانوا يتصورون.

أما فلول خوارزمشاه فقد توزعت في الآفاق تنهب وتسلب. وظلوا في مسيرتهم حتى دخلوا الشام، فاستخدمهم الصالح أيوب. غير أنهم أقلقوه بفتنهم لما كثرت أعدادهم. فاضطر إلى منحهم حران والرها سنة ٦٣٥ هـ - ١٢٣٧م. ثم عادوا يعيثون فساداً حتى قاربوا حلب سنة ٦٣٨ هـ - ١٢٤٠م. فقاتلهم المعظم تورانشاه، لكنهم انتصروا عليهم ودخلوا حلب ونهبوها، وارتكبوا فيها الفواحش. غير أن جيوش حلب وحمص تكاتفت على حربهم وطردهم[١]. غير أن الخوارزمية كانوا في كل مـرة يهاجمون حلب وينهبونها، وكـأنهم يمهدون الطريق إلى المغول من غير أن يدروا.

ولم تكن هزيمة خوارزمشاه بـأقلَّ أذى من جنوده. فهو الذي فتح الطريق للمغول بجبنه. وقد وصفه سايكس وصفاً مناسباً فقال: «كان الملك الجبان، والذي أصبح آمناً أخيراً يُحتضر (في جزيرة آبسكون) تاركاً وراءه سمعة من الجبن لم يعرف التاريخ لها مثيلاً»[٢]. ويتحدث سايكس عن الخسارة العلمية التي مُني بها الإسلام بسببه، فيراها «لا تقدَّر ولا توصف، لما فيها من الكتب النادرة، ورجال العلم البارزين والأدباء المؤلفين». ومثل هذا قاله ياقوت.

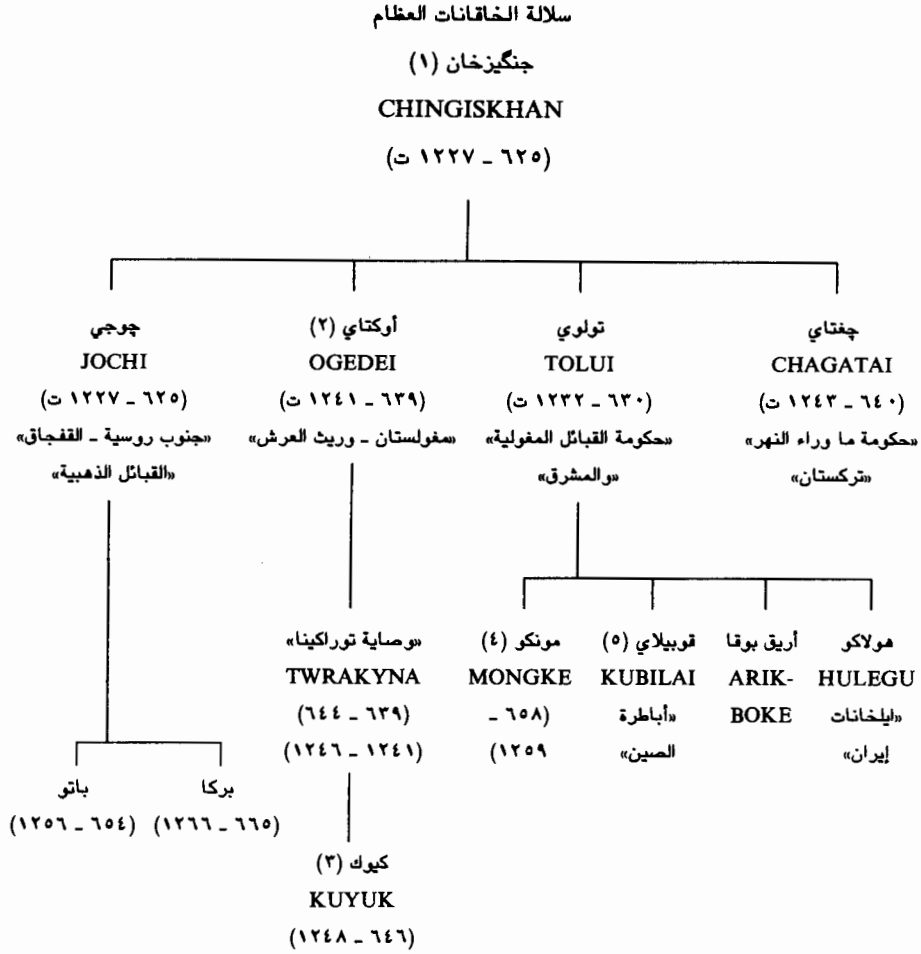
ووصفه ابن الأثير - في مسألة مدينة أترار - بـأنه: «سيـئ السيرة، قبيح التدبير لملكه»[٣].

---

(١) نهر الذهب: ١٥٢/٣.

(٢) A History of Persia, 78.

(٣) الكامل: ٤٩٥/١٢.



ـ الرقم لتسلسل الخاقانات.

ـ السنوات للوفاة (الميلادي الأصل).

ـ ذكر الأسماء المهمة.

نهاية جنگيزخان وحكومة الأبناء

بعد أن أمضى جنگيزخان سبع سنوات في سفك الدماء شرقاً وغرباً. عاد إلى بلده يريد الاستجمام في مغولستان سنة ٦١٩ هـ - ١٢٢٢م، وكان المرض قد اشتد به بعد حربه لجلال الدين في السند، ذات الطبيعة الرطبة الموبوءه[١].

وحين أحس بدنو أجله طلب اجتماع القوريلتاي، واستدعى أبناءه الأربعة. وقد عقده سنة ٦٢١ هـ - ١٢٢٤م في صحراء «قلانْ باشي»[٢] من غير ابنه «جوجي» لأنه كان بعيداً في صحارى القفچاق. وكان جنگيزخان مصمماً بعد عقد الاجتماع الذهاب بنفسه لمعاقبة ابنه جوجي لأنه لم يلب الدعوة.

كان عدد أولاد جنگيزخان أربعين بين ذكر وأنثى. وكان له زوجات كثيرات. لكن الزوجة الأولى - وذكرنا أن اسمها بورت - والتي سُميت «يَسونْجين بَيكي» ذات المقام الأفضل هي وأولادها. وكان لها سبعة أبناء أبرزهم أربعة، وهم: جوجي، جغتاي، أوكتاي، تولوي. وحين اجتمع أبناؤه أوصاهم بقوله:

«لقد دنت منيتي يا أولادي، وإنني بعون إله السماء الخالد قد وطدتُ لكم الحكم، وأسست لكم إمبراطورية واسعة جداً، يستغرق المسافر عند قطعها... مدة سنة كاملة. فإن أردتم أن تحتفظوا بها فعليكم أن تظلوا متحدين... متعاضدين ضد أعدائكم، وأن تحاولوا إرضاء أعدائكم. هذا وإن واحداً منكم يجب أن يعتلي العرش بعدي. وإنني أختار أوكتاي خليفة لي، وعليكم احترام قراري هذا بعد موتي..»[٣].

هذا، ومن تقاليد المغول - حتى مِن قبل جنگيزخان - أن الملك ترثه أسرته. ولهذا وزع ملكه على أبنائه. ولم يستثن إلا ابنه الأصغر «تولوي»، لأن الأصغر في

---

(١) تاريخ مغول: ٦٦.

(٢) حوالي نهري: كيرولين وأونُن.

(٣) جنگيزخان: ٣٦٩.

عرفهم هو الذي يرث عرش أبيه وقاعدة ملكه. مات جنگيزخان سنة ٦٢٤ هـ - ١٢٢٧م وعمره يزيد على ٧٢ سنة بعد أن امتدت حكومته من البحر الأصفر إلى البحر الأسود، وبعد أن عاث فساداً في آسية كلها.

حكومة الأبناء:

قسم جنگيزخان أملاكه على أبنائه الأربعة الكبار. فنشأ من كل ولد حكومة واسعة النطاق. وهم كما يلي:

١ ـ شعبة تولوي ـ Tolui: كان تولوي الابن الأصغر، ولهذا تسلم عرش أبيه وإرثه من الأراضي والقرى لأونون وكيرولين. إلا أنه خلال عام من حكومته توفي وعمره أربعون سنة من كثرة شربه ومجونه، على عادة جميع الأمراء المغول. وكان أباً لخانين عظيمين هما: «قوبيلاي» الذي غدا خاقان الصين، وهو الخامس من سلالة الخاقانات العظام[١]. والآخر هو «مونكو» وهو الخاقان الرابع من السلالة. وهو الذي أرسل أخاه «هولاكو» لغزو المشرق. فمع أن حكومة تولوي قصيرة، فإن أبناءه حكموا آسية كلها.

٢ ـ شعبة أوكتاي ـ Ogedei: ورث أوكتاي حكم أخيه تولوي، إلا أنه لم يحكم رسمياً إلا بعد القوريلتاي سنة ٦٢٧ هـ ـ ١٢٢٩م وانتخابه، وهو الذي رغب أبوه في تعيينه أصلاً[٢]. ولم يكن بالطاقة البركانية المتفجرة التي كانت لأبيه، لميله إلى اللهو والبذخ[٣]. غير أنه استطاع أن يلعب دوراً كبيراً في إمبراطورية المغول، بأن أخذ في توسيع رقعة بلاد لم يفتحها أبوه. فلقد وجه قواه الهائجة ثلاث وجهات:

أ ـ شمالاً، ضد إمبراطورية الصين.

ب ـ غرباً، إلى روسية وبولونية وهنغارية.

ج ـ غرباً، ضد بقايا الخوارزميين.. حتى وصلت إلى الموصل وماردين ونصيبين. واتجهت جنوباً إلى أردبيل وحمرين وفارس[٤].

---

(١) الخان العظيم يدعى خاقان أو قآآن. The History of the Mongol Conquests, 75.

(٢) Baghdad The City of Peace, 134.

(٣) The History of the Mongol Conquests, 75.

(٤) Baghdad The City of Peace, 135.

وقد حكم الأراضي الواقعة شرقاً والتي تقيم فيها قبائل جنغاريا[١]. وامتد سلطانه غرباً ليحكم أراضي خوارزمشاه كلها، وأطراف بحيرة «ألاكول»، وحوض نهر «إيميل» الواقعتين غربي مغولستان[٢]. ويرى لين بول أن هذه المنطقة واسعة جداً في آسية الوسطى، والمحدودة جنوباً بتركستان الصينية، وغرباً بسيبيرية.. ويطلق على سكانها اسم قبائل النايمان أيضاً[٣].. ومع كل هذا الاتساع فإنه أقل الورثة مساحة، لكنه أعلاهم مرتبة بصفته الوريث للعرش. وقد ظل أولاده من بعده حتى أسقطتهم شعبة تولوي. وقد أمر قواده أن يخترقوا أوروبة الشرقية، وأن يحاربوا فيها سبع سنوات، لكنهم خسروا في النهاية أمام كبير دوقات النمسة[٤]. ويُرجع المؤرخون خسارتهم إلى انغماسهم في ملذاتهم.

أما في المجالات الداخلية فقد أمر ببناء عاصمة له (وهي أول مدينة مغولية) على ضفاف نهر «أورخون - Orchon»، قرب مخيم المدينة «هوينج نو - Hiung Nu» سنة ٦٣٣ هـ - ١٢٣٥م، وسوَّرها وأسماها «قره قورم»[٥] ومعناها الرمال السوداء. كما وسع الحركة الزراعية والتجارية، وشجع أصحاب الحرف كثيراً.

وبسبب انغماسه في الملذات توفي سنة ٦٣٩ هـ - ١٢٤١م. يروى أنه سليم النفس، مشهور بالعدل والكرم. وكان يعطف على المسلمين، حتى أشيع عنه أنه أسلم بقلبه سراً[٦].

وبعد موته تسلم ابنه الأكبر «كيوك - Kuyuk»، لكن سنه لم تسمح له بالحكم مفرداً، فتسلمت الوصاية أمه «توراكينا خاتون» ريثما يجتمع القوريلتاي. وبرزت في عهدها الدسائس والفوضى والاغتيالات. واستمر الحال حتى سنة ٦٤٤ هـ - ١٢٤٦م[٧].

---

(١) تقع جنغاريا في النصف الشمالي من الصين.

(٢) تاريخ مغول: ١١٠.

(٣) تاريخ الدول الإسلامية: ٢/٤٧٠.

(٤) المرجع السابق: ٢/٤٧١ - ٤٧٢.

(٥) The History of Mongol Conquests, 75.

(٦) تاريخ مغول: ١٤٨.

(٧) تاريخ الدول الإسلامية: ٢/٤٧٢.

كانت توراكينا خاتون قد سلمت ابنها كيوك إلى أمير مسيحي يدعى «قُداق» كي يربيه ويوجهه. وحين تسلم كيوك الحكم من القوريلتاي عيّن «چينَقاي» المسيحي وزيراً له. واتفق الاثنان على مساعدة المسيحيين في الدولة، والتابعين لها ولا سيما الأرمن والكرج والسريان والروس. حتى برزت الآداب المسيحية والأطباء المسيحيون في عصرهما، بينما قلَّتْ مكانة المسلمين على ما كانت عليه في عهد أبيه «أوكتاي قاآن»[1].

وبوفاة كيوك ٦٤٦ هـ ـ ١٢٤٨م عاد الاضطراب في البلاد. واحتاجوا إلى قوريلتاي جديد. ولن يكون قبل عودة «مونكو ـ Mongke بن تولوي»؛ فقد كان يرافق عمه باتو بن جوجي في فتوح أوروبة الشرقية. وحين عاد عيّن مونكو خاناً أعظم «قاآن»، وبذلك عاد العرش إلى شعبة تولوي. وفي عهده أعدم عدد كبير من الأمراء لعدم حضورهم القوريلتاي. ومن الذين أعدموا أبناء جغتاي وأبناء أوكتاي، مما عمل على انشطار الإمبراطورية[2].

وقد امتد حكم مونكو قاآن حتى ٦٥٨ هـ ـ ١٢٥٩م. وهو الذي أرسل أخاه هولاكو إلى إيران والعراق.

وحين توفي مونكو قاآن نوديَ بأخيه «قوبيلاي ـ Kubilai» خان الصين خاقاناً أعظم.

٣ ـ شعبة جوجي: جوجي أوتوشي هو الابن الأكبر لجنگيزخان. وهو الابن المشكوك بنسبه إلى أبيه، لأن أمه ولدته أثناء عودتها من الأسر لدى «الماركيت». ويعتقد «پيليوت ـ Pilliot»[3] أن أباه ملك الماركيت. ويبدو أن صلته بأبيه لم تكن ودية؛ فكنا قلما نقرأ في المصادر أن جوجي رافق أباه. وقد كان تخوف جنگيزخان من ابنه في محله، لأنه أحس بأن ابنه يهدف إلى توسيع مملكته بسرعة قصوى، وضمِّ ما يفتح من البلاد إلى حكمه من غير أن يرجع إليه. وكنا ذكرنا أن جوجي لم يلبِّ دعوة أبيه إلى القوريلتاي لحضور توزيع أملاكه، مما أغضب جنگيزخان، وقرر

---

(١) تاريخ مغول: ١٥٢.

(٢) تاريخ الشعوب: ٣٨٨.

(٣) في كتابه The Secret History .

تجهيز حملة لتأديبه[١]. لكن جنگيزخان فوجئ بوفاة ابنه قبله[٢]. وتبين له فيما بعد أن مرض ابنه هو الذي منعه من تنفيذ أمر أبيه بالمثول بين يديه.

كان جنگيزخان، حين وجه أبناءه لفتح مشارق الأرض ومغاربها، منح ابنه جوجي قبائل «القراخَتاي»[٣] وأراضي «ينيساي - Yenisey» التي يسكنها القيرغيز الترك القاطنون شمالي نهر سيحون.[٤] ووسع جوجي ملكه، فضم الأراضي الممتدة من نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وخراسان حتى خِيوَه وبخارى[٥].

وقد دُعيت تلك الخانية بصحراء القِفچاق - Kipchaks، والتي امتدت على طول القسم الجنوبي من روسية (قفقاسية) وسفوح جبال الأورال وسيبرية[٦]. ودعيت بالقبيلة الذهبية، لأن خيمة الخان كانت ذهبية اللون[٧].

وحين توفي جوجي لم يتدخل جنگيزخان في إرث ابنه، وكأنه بذلك يعترف بما ضم إلى حكمه، فكان ذلك حقاً شرعياً لأولاده من بعده. فورث عرشَه أكبر أبنائه «أُورْدا - Orda»، فكان له القفچاق الشرقي. بينما انقسمت بقية البلاد إلى أربعة عشر قسماً، على حسب عدد أولاده. أما ابنه الأصغر «باتو Batu» فقد حكم القفچاق الغربي. وهذا الجناح من شعبة جوجي هو الذي يعنينا، لعلاقته الحربية العدائية مع هولاكو وأولاده، والسلمية الودِّية مع مماليك مصر، ولا سيما مع بيبرس.

أسس باتو عاصمته «سَراي - Sarai»[٨] غير بعيد عن «مَراغة» عاصمة الإيلخانيين. وجناح باتو هو الذي تخصص لغزو أوروبة بما في ذلك روسية والمجر وبولونية[٩]. وحين مات باتو خلفه أخوه «بِركا خان» ثالث أبناء جوجي. ولبركا

---

(١) تاريخ مغول: ٦٨.

(٢) تاريخ الشعوب: ٣٨٧. تاريخ مغول: ١٠٩.

(٣) قراختاي: أي الختا السود، أسسوا إمبراطوريتهم في تركستان. ومضاربهم شرقي نهر سيحون.

(٤) تاريخ الدول الإسلامية: ٤٨٦/٢.

(٥) A History of Persia, 78.

(٦) تاريخ مغول: ١٠٩. Enc, Britannica .

(٧) واسم القبيلة بالمغولي «آلتون أوردو: المخيم الذهبي». وفي الإنكليزية: Golder Horde .

(٨) سراي: بالفارسية تعني القصر والمنزل العالي.

(٩) دولة الظاهر بيبرس: ١٠٢.

وبولونية[٩]. وحين مات باتو خلفه أخوه «بِركا خان» ثالث أبناء جوجي. ولبركا مواقف مشهورة ومشكورة مع العرب والمسلمين فُصِّلت جوانب منها في «عقائد المغول»، وفي صلاته مع مماليك مصر، وحروبه مع ابن عمه هولاكو.

ومن جملة أولاد جوجي «تُوقا تيمور» الذي حكم حوض نهر الفولغا. و«شَيبان»[١] الذي تسلم حكم المقاطعات الشمالية لمتلكات أخيه «أوردا» وهي: الإستبس والقيرغيز والقوزاق. وهو جد ملوك «الدولة الشيبانية» في بلاد ما وراء النهر. وقد كان أكثر سكان هذه البقاع من الترك والتركمان والداغستان والقوزاق والخوارزمية[٢]. ومن متفرعات هذه الأسرة كذلك خانات «آق أوردو» أي المعسكر الأبيض، تمييزاً لهم من خانات المعسكر الذهبي.

٤ ـ شعبة جَغَتاي ـ Chaghatai: كان جغتاي أفضل إخوته، وأكثرهم حكمة وتضلعاً في التشريع المغولي «اليساق». ولهذا تمتع بنفوذ قوي بين قومه[٣]. ولقد أوكل إليه أبوه أمر احتلال الأراضي بين منغوليا ونهر جيحون، بما في ذلك منطقة «كاشغاريا ـ Cashjaria». وكان أغلب سكان هذه المناطق من الأويغور والترك، وهم المسمَّون بسلالة ما وراء النهر وتركستان.[٤] بمعنى أنهم حكموا ما وراء النهر أي بين منغوليا ونهر جيحون. وكانت حدوده الغربية تتصل بحدود أخيه أوكتاي، من غير أن تكون الحدود واضحة المعالم تماماً. وضمت من حدود بلاد الأويغور إلى سمرقند وبخارى وتُرفان وخَتَن وفَرغانة وبَدَخشان وبلخ و.. وهذه البلدان كلها في تركستان الحالية[٥].

توفي جغتاي سنة ٦٤٠ هـ ـ ١٢٤٢م، أي بعد عام من وفاة أخيه «أوكتاي

---

(١) شيبان ليست عربية، لأن أصلها «شِيبَقان». فمن عادة المغول أن يُسقطوا الحرف الحلقي ولا سيما القاف والكاف من وسط الكلمة، مثل «تنكوت» أصلها «تنكقوت»، وهولاكو لفظوه «هولاؤو».

(٢) تاريخ الدول الإسلامية: ٤٨٦/٢.

(٣) تاريخ الشعوب: ٣٨٧.

(٤) A History of Persia, 86.

(٥) تاريخ مغول: ١١٠.

قاآن». واستمرت هذه الشعبة حتى سنة ٧٦٠ هـ ـ ١٣٥٨م، أي حتى قدوم تيمورلنك[١].

ومع أن البقاع التي حكمتها أسرة جغتاي كثيرة الأهمية، فإن الكتب القديمة والحديثة قلما تحدثت عنها بالتفصيل، لعدم توفر المعلومات عنها لدى المؤرخين[٢]. ومع أننا حاولنا تقريب الصورة الجغرافية من خلال تعداد المدن الإسلامية التي خضعت لها، فإن حدودها الجنوبية لم تحدَّد بدقة. لكن الغالب أن هذه الحدود كانت متماشيةً مع وادي نهر جيحون، وتبلغ بَدَخشان وغَزْنة. كما أن الشخصيات الإسلامية التي استعان جغتاي بها تحتاج إلى دراسة جدية مثل «محمود يَلَواج» وابنه «مسعود». وهو نفسه الذي كان يعاقب المسلمين إذا ذَبحوا حيواناتهم على الشريعة الإسلامية (!).

وبعد استعراضنا لحياة جنگيزخان وحروبه، ولحياة أبنائه الأربعة، نستدل على أن المغول استوعبوا آسية كلها وجزءاً كبيراً من أوروبة. وبقي علينا أن فتوحهم في الأراضي الإسلامية والعربية على يد هولاكو، والذي هو غايتنا الأساسية.

الفصل الثاني

عقائد المغول
بين الشامانية والإسلام



عقائد المغول

الشامانية:

من البديهي ألا يكون لمثل هذه الأمة المتوحشة البدائية دين سماوي يكبح جماحها، أو عقيدة تهدئ من ثورتها. فهم يسجدون للشمس حين تشرق[١]، ويسجدون لها حينما يعيَّن عليهم خان جديد. ويعبدون قوى الشر من الجن والشياطين، ويقدمون لها القرابين خوفاً من أذاها. ويعبدون كذلك أرواح أجدادهم لاعتقادهم أن لها أثراً كبيراً في حياة الأبناء. لكنهم لا يعبدون موتاهم الصغار السن لقلة إدراكهم، بل يعبدون مَن هم أكبر سناً منهم؛ إما خوفاً منهم، وإما تقديراً لكفاءتهم وهَيمنتهم. فديانتهم مجرد إشارات غامضة[٢].

وما داموا يؤمنون بالأرواح والجن والشياطين فإن رجل الدين عندهم - ويدعى «شامان - Shaman» - صاحب نفوذ في توجيه حياتهم ومصائرهم، ويستخدم في ذلك الأعمال السحرية والحكم والمواعظ. ولا يجوز لأحد أن يقدم القرابين من دون وساطته، ولا تقديم الهبات إلى الآلهة إلا عن طريقه. وهكذا خضع المغول له، وانقادوا لشعوذته.

والشامان أشبه بالكاهن، وفي ميسوره أن يطرد الأرواح الشريرة المقيمة تحت الأرض، وأن يستنزل البركة من روحَي الأرض والسماء الخيرتين، وأن يُنطق أرواح الأسلاف الطائفة في الجنة. ولا يجرؤ أحد على الاتصال بالذات العليا؛ وهي الإله الذي برَّأ العالم، وخضعت لحكمه الطباق السبعَ عشرةَ العليا الآهلة بالكائنات الحية الصالحة، إلا عن طريق شامان[٣].

---

(١) تاريخ الخلفاء: ٤٣٣ و A History of Persia, 72 .

(٢) The Mongols and Western Europe, 715.

(٣) تاريخ الشعوب: ٢٦١.

أما طريقةُ تعيين الشامان فتكون باختيار سماوي علوي، أو عن طريق الوراثة من الشامان الأب إلى الشامان الابن.

وعلى الرغم من أن الشامانية تشير إلى تأخر فكري، وإيمان خرافي، واضمحلال عَقَدي فإنها تعد حداً فاصلاً بين ديانة الشعوب البدائية والشعوب المستعدة لتقبل العقائد الجديدة.

والشامانية لا تؤمن بالحساب، ولا تقوم على أسس أخلاقية كالبوذية والكونفوشيوسية. ولكنها تعتقد بتناسخ الأرواح، وبأن الروح بعد الموت تتحول إلى طائر أو إلى حشرة تطير. وكانوا إذا مات ميتهم صاحوا «أُوچَري» أي طارَ. وهم حين قدموا إلى إيران واستقروا فيها وأسلموا ظل هذا المعتقد راسخاً في عاداتهم. فإذا مات أحدهم قال مَن حوله: «شُونْقار بُولْدي» أي صار الميت صقراً! وكأنهم ـ على هذه البدائية ـ يعتقدون بخالق للأشياء، وما الشامان سوى وسيط لديه. يقول كاربيني: «يعتقدون بإله واحد خالق كل شيء. ولكنهم لا يعبدونه بالصلاة ولا بالابتهال ولا بأي نوع من الطقوس»[1].

على أن هذه الشامانية لم تكن من ابتداع المغول وحدهم، بل شاركهم في الاعتقاد بها جيرانهم وأنسباؤهم الأتراك. غير أننا لا نعرف من كان أسبق إلى اعتناقها.

ومع تعاقب كل هذه القرون، ومع تغير معتقداتهم وسيرهم قُدماً في ركب الحضارة نراهم ما زالوا يعتقدون بالشامانية. ولقد تتبع الشامانيةَ عدد من الرحالة الجريئين وكتبوا عنها في مطلع هذا القرن، ومن هؤلاء «هِنِّيك هازلوند ـ Henning Haslund» الإنكليزي الذي رحل إلى مغولستان وسجل معلومات دقيقة عن بقايا الشامانية حتى اليوم[2].

المغول والديانات المجاورة:

كان يحيط بالمغول من كل جهاتهم أقوام كثيرة متحضرة، وتدين ببعض

---

(١) The Mongol Mission, 9.

(٢) انظر الفصل الشائق (The Shaman's Magic, pp, 248 - 57) من كتابه:
Tents in Mongolia.

الديانات السماوية وغير السماوية. والشرق كما هو معلوم زاخر بالديانات والمعتقدات.

فالبوذية كانت تغزو المشرق بدءاً من الهند، ودانَ بها أقوام تلوَ أقوام. وتخطت البوذية بلاد المغول وحطت في الصين (وما زالت). وقد شهدت البوذية انتعاشاً بين المغول بشكلها التِّيبتي. وتعود أسباب انتشارها إلى أسباب سياسية؛ فقد ارتأى عدد من أمراء المغول هذه العقيدة تهرباً من هَيمنة شخصية الشامان عليهم.[1] إلا أن جذور هذه الديانة لم تترسخ في قلوبهم لأنها ديانة مسالمة، وتعلِّم المعتقدين بها الكسل والخمول. ونحن نعلم أن المغول شعب هائج مائج، تغلي في عروقه روح القتل والسفك. ولهذا لم نرَ المؤرخين يُولون هذه العقيدة أهمية بارزة في حياتهم الدينية. وحين فكر جنگيزخان بإقامة معبد بوذي في عاصمته ثناه مستشاره «تويْنوقوق» عن عزمه بحجة «أن الديانة البوذية تؤثر تأثيراً سيئاً في خصائص الترك العسكرية»[2].

على أن قوماً من الترك أقدم الأمم تأثيراً في معتقدات المغول. وهم الذين يسميهم الصينيون «الأُويْغور»، ويسميهم العرب «التغزْ غِز». فعن طريقهم دخلت بلاد المغول الديانة المسيحية فالإسلام. وعلى الرغم من فضل الأويغور على المغول فإنهم أكثر الأمم انتكاباً بويلاتهم.

ومع أن **اليهودية** لم تصل سمومها إلى المغول أو الترك، فإن بعض أمراء المغول وقعوا فريسة بعض الوزراء من اليهود الخبثاء حين كانوا يحكمون إيران. فقد لعبت الصدف دورها في عهد «أرغون بن أباقا»، فتقرب إليه طبيب يهودي ذو خبرة مالية وإدارية يدعى «سعيد الدولة»، فعينه وزير الإقليم في بغداد، ثم غدا وزير الدولة الإيلخانية كلها. فعين سعيدُ الدولة أخاه حاكماً على بغداد، ونصب رجالَ دينه في مواقع بارزة من حكومة أرغون المغولية. كما ألَّبَ سعيد الدولة المسلمين على النصارى، وشغلهم بنزاعات طائفية لم تنطفئ إلا بموت أرغون سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩١م واغتيال سعيد الدولة نفسه.

---

(١) Britannica, 12/370.

(٢) تاريخ الترك: ١٢.

وفي عهد أحمد تكودر المسلم تمرد قواد المغول لأن تكودر أعلن إسلامه في إيران. وآزرتهم في ثورتهم جماعة يهودية تدعى «الكرايمية»[١]. وتمكن المتمردون من قتل أحمد تكودر وتنصيب أرغون الكافر بمساعي اليهود[٢].

كل هذا لا يدل على اعتناق المغول اليهودية في شتى مراحل انتقالهم، ولكنه يدل على خبث اليهود وسعيهم للإيقاع بالمسلمين بكل حيلة أو مناسبة.

المسيحية عند المغول:

استطاعت المسيحية أن تتسلل إلى الأقوام الترك عن طريق المبشرين المتعددين. وقد تمكن المبشرون من ترسيخ عقيدتهم في نفوس القبائل الشرقية، ولا سيما تلك التي تمتاز بشيء من الاستقرار. وقد كان للرهبان السريان النساطرة الفضلُ الأكبر على الشرق في نشر هذه الدعوة حتى وصلت الصين. وقد عثر عام ١٢٣٧م ـ ٦٣٥ هـ مصادفة في جوار مدينة «نانكين» عاصمة أباطرة الصين على مسلَّة ارتفاعها تسع أقدام وعرضها ثلاث أقدام وثلث القدم حفر عليها أسماء لستة وسبعين راهباً نسطورياً في فناء الدير، بخط اسطرنجيلي وتاريخ ٧٨١م. وقد حل رموز هذه المسلة صحافي دانمركي اسمه F. V. Holm وألف عليها كتاباً أسماه The Nestorian Monument . وهذا يثبت وصول المسيحية إلى أقصى الشرق في تاريخ متقدم. وقد استمرت الكنيسة السريانية تعمل في الصين من ٦٣٥م إلى ١٣٦٧م حيث أضعفها الإسلام بعدئذ[٣]. حتى انقطعت أخبار المسيحية النسطورية تماماً في القرن ١٦م[٤].

ويذكر ماركو بولو أنه وجد في مدينة سمرقند إسلاماً ونصارى حين كان حاكمها جَغَتاي بن جنگيزخان. وكان الناس في عهده يشجَّعون على الدخول في

---

(١) الكرايمية: يهود مجهولو الهوية، هم عند ماركو بولو جماعة القَرّائين الذين يرفضون التمسك بسنة التلمود.

(٢) Baghdad The City of Peace, 160.

(٣) تاريخ سورية: ١٣٦/٢.

(٤) مجلة المجمع العلمي العراقي ـ مقالة «مسلة سي ـ نغان ـ فو» الصينية. تأليف منصور روئيل زكريا ص: ٢٠٩ ـ ٢١٢، العدد: ٦، العام ١٩٨١ ـ ١٩٨٢.

النصرانية، وبنوا في عهده كنيسة باسم القديس يوحنا، وأخذوا أعمدتها من أحد المساجد[١].

واستطاعت المسيحية أن تجد طريقها إلى قلب القبائل المغولية، سواء عن طريق جيرانهم الأتراك، أو عن طريق المرسَلين السوريين والعراقيين. ويثبت قولنا هذا ما أشار إليه ابن العبري من أن المسيحية دخلت إلى العرق الأصفر البدائي البدوي بعد عام ١٠٠٠م - ٤٢٢ هـ؛ فقبائل الكرايت التي كانت تعيش على ضفاف نهري «أوفون» و«كيرولين العليا» كانت مسيحية نسطورية قبل ظهور جنگيزخان[٢]. ومثلهم كان «النايمان». والقبيلتان تقعان غربي مواطن المغول. أما من الشمال فكان الأونغوت الترك. كما دخلت المسيحية قصور الخانات عن طريق زواج بعضهم بالمسيحيات من النايمان والكرايت[٣].

وكانت إحدى زوجات جنگيزخان واسمها «سَرقويْتي بيكى» مسيحية. وعن طريقها استطاع الرهبان أن يبثّوا دعوتهم بين القبائل المغولية. وعن طريقها أيضاً تسربت بعض المعتقدات المسيحية إلى اليساق المغولي. ووصفها ابن العبري المسيحي بقوله: «كانت لبيبة مؤمنة، تدين بالنصرانية، وتعظم المطارنة والرهبان، وتقتبس صلواتِهم وبركتهم»[٤].

كما يقال إن «بايدو بن جوجي بن جنگيزخان» - وكان من خانات القفچاق - يعلق صليباً ضخماً في عنقه، وقد سمح للنصارى ببناء كنائس في معسكراته. كما أنه حاول منع انتشار الإسلام بين جنوده. مع أنه لم يكن مسيحياً[٥]. وبموت حفيده «كيوك بن أوكتاي عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م انتهت كل الآمال في نشر المسيحية، لأن الإسلام انتشر بين أفراد شعبه. وما هي إلا سنوات حتى غدا المغول جميعاً مسلمين.

---

(١) Marco Polo, The Travels, 81.

(٢) تاريخ الشعوب: ٣٨١.

(٣) The Mongol Mission, 24.

(٤) تاريخ مختصر الدول: ٢٣٠.

(٥) The Preaching of Islam, 18.

المغول والمراسلات مع الغرب:

ليس لهذا الموضوع علاقة ببثّ الدعوة إلى المسيحية، إنما كانت المراسلات مع الغرب ذات صلات سياسية خالصة، استُخدم فيها الدين ستاراً لحركة صليبية غربية من أجل ضرب العرب واحتلال فلسطين.

فقد لاحظ ملوك الغرب ظهور قوة بشرية فتاكة في أقصى الشرق تتجه نحو الغرب. فخشوا أن تتجه نحوهم[١]، وفكروا كذلك بالاستفادة من هذه القوة الجبارة على فتح الشام والاستيلاء على الأراضي المقدسة لصالحهم، ولا سيما حين شعروا بأن هدف المغول والغرب واحد. غير أن مساعيهم باءت بالفشل الذريع لضعف قواتهم ولبدء انتشار الإسلام بين المغول.

ولقد تبلورت وجهات نظر الغرب في مجلس ليون الذي عقد عام ١٢٤٥م - ٦٣٥ هـ ، إذ قرر تشكيل بعثتين إلى الخاقان مهمتهما نشر المسيحية بين المغول، وتخفيف الظلم عن النصارى من رعايا المغول. وقد نجحت إحدى البعثتين في الوصول إلى غايتها، وكان على رأسها «كاربيني - Carpini»[٢]، فوصل إلى «قره قورم» حين كان مجلس القوريلتاي منعقداً لانتخاب كيوك خاقاناً أعظم. وكان لكيوك وزيران مسيحيان، فأحسنا استقبال كاربيني وأهانا مبعوث الخليفة.

وفي سنة ٦٥٠ هـ - ١٢٥٢م وصل إلى بلاط منكو قاآن راهب رسول من قبل لويس التاسع. ومع أن الراهب مكث لدى منكو قاآن خمسة أشهر إلا أنه عاد إلى لويس التاسع وهو يحاصر عكا من غير أن يحمل جواباً مقنعاً[٣]. وكان في هذه الأثناء «هيثوم - Hethum» ملك أرمينية يسعى لإقامة حرب ضد العرب يشترك معه المغول. ولا شك أن كل هذه المراسلات عملت على توجيه حملة هولاكو إلى العراق[٤].

كما أن عدداً من الباباوات اهتموا بمراسلة أباقاخان بن هولاكو الذي اعتلى

---

(١) A History of Persia, 29.

(٢) أرسله البابا إينوسنت الرابع. انظر: The Mongol Mission.ed, Charistopher Dawson .

(٣) تاريخ مغول: ١٦٠.

(٤) المرجع السابق. وهيثوم محرّف عن الاسم العربي حاتم.

عرش إيران[1]. وكانوا في كل مراسلاتهم يشيرون إلى موضوع اعتناقه الديانة المسيحية. كما أن أباقا راسل ملك الأرغون جيمز الأول عام ٦٦٨ هـ - ١٢٦٩م، وقنصل ليون عام ٧٦٣ هـ - ١٢٧٤م[2]. وهدفه من ذلك التعاقد ضد العدو المشترك. وهذا ما أثبته مجملُ رسائل أباقا إلى إدوارد الأول ملك إنكلترة وغيره من ملوك الغرب لضرب قوة الظاهر بيبرس.

غير أن بيبرس كان على اطلاع تام بهذه الحركات السرية، فقام بعمليات ديبلوماسية أنهى بها كل هذه المساعي المعادية، وذلك بإسقاط عدد من القلاع الصليبية في الشام. كما عقد علاقات تجارية مع صقلية والبندقية وبيزنطة.

ومع أن مساعي البابا وملوك الغرب ظلت مستمرة مع أبناء أباقا، فإن كل هذه المساعي خبت ولم ينجم عنها سوى كتب ومراسلات ذهبت هَباء. فلا أقدم الطرفان على حرب مشتركة، ولم ينجح البابا في نشر الديانة المسيحية بين المغول الذين غدوا جميعاً مسلمين.

المسيحية وغزو العراق:

راعى المغول الرعايا المسيحيين حين فتحوا بغداد، ولم يكن ذلك عن اعتناقهم النصرانية، بل لخدمة مصالحهم الشخصية في إدخال عنصر الخلاف الديني والطائفي بين العرب ليتسنّى لهم السيطرة على البلاد. ومع ذلك لم ينجُ الرعايا المسيحيون من وحشية المغول كما سنرى.

كان لتولوي أبي هولاكو زوجة مسيحية اسمها «دوقوز خاتون»، وحين توفي تولوي تزوج هولاكو امرأة أبيه. وكان لدوقوز أكبر الأثر في حضِّ زوجها هولاكو على تحسين معاملته للمسيحيين[3] قبل أن يجعلها سياسته في العراق والشام. كما دفعته إلى استقدام عدد من القواد النصارى من الأمم المجاورة. وقد كان «كَتُبُغا» نصرانياً، ومستشاره «وارتان» أرمنياً، لذلك زاد في عهده عدد

---

(١) بعض رسائلهم مؤرخة بعام ١٢٦٧ و١٢٦٩ ومحفوظة في أرشيف الفاتيكان. وانظر صورة عنها عند: D, Ohsson, Histoire des Mongols III, 540.

(٢) The Mongols and Western Europe, 722.

(٣) تاريخ مغول: ١٠ و١٧١.

الأبرشيات،[1] ونشطت عمليات ترميم الكنائس والأديرة[2].

ولا شك أن مثل هذه الأنباء ترامت إلى مسامع المسيحيين في إيران والعراق مما جعلهم ينظرون إلى المغول نظرة المخلص من الخلافة العباسية. وبالفعل أمر هولاكو جنوده بألا يزعجوا نصارى بغداد و«أن يعفوهم من القتل»[3]. كما وضع شحنات مغولية على أبوابهم وعلى أبواب الكنائس وأحياء النصارى. كما عمت البشرى قلوب النصارى حين أُعلن زواج أباقا بن هولاكو من مارية بنت ياليولوغس، التي أسماها المغول «دسبينا»[4].

كل هذا جرى في عهد الأباطرة المغول الأوائل من غير أن يكونوا مسيحيين، ولا أن يتساهلوا مع المسلمين.

المسيحية وغزو الشام:

حين كان هولاكو في بغداد وفد عليه أساقفة نصارى الشام وقسوسهم ومعهم الهدايا يعلنون تأييدهم له وفرحتهم بقدومه. فحمَّلهم هولاكو «فرمان الأمان». ويذكر ابن كثير[5] أنهم دخلوا دمشق من باب توما ومعهم الصليب، وهم ينادون «ظهر الدين الصحيح دين المسيح»، ومعهم أوانٍ وقماقمُ مملوءةً خمراً يرشون بها المسلمين، و...

وحين دخل هولاكو حلب التحقت أنطاكية اللاتينية بالمغول فوراً[6]. مما عجَّل بلويس التاسع لأن يعقد معه ميثاقاً يساعده فيه على حرب الشام. وحين وصل قائده المسيحي كتبغا إلى دمشق شرع بتحويل بعض مساجدها إلى كنائس[7]. غير

---

(١) الأبرشية: (يونانية) ما كان تحت ولاية أسقفّ من أماكن أو أشخاص.

(٢) العالم الإسلامي: ٤٧.

(٣) الحوادث الجامعة: ٣٢٩.

(٤) Persian Literature Under Tartar Dominion, 18.

(٥) البداية والنهاية: ٢١٩/١٣. العالم الإسلامي: ٤٨. وانظر تفصيلاً في السلوك: م١/ ج٢/ص ٤٢٥.

(٦) تاريخ سورية: ٢٦٨/٢.

(٧) تاريخ مغول: ١٩٩.

أن كتبغا حين فُجع في معركة عين جالوت وقُتل ابتهج المسلمون، وتبادروا إلى الكنائس ينتهبونها ويحرقونها[1].

ولا شك أن انسياق عامة النصارى في العراق والشام كان بدافع متعمد من تشجيع المغول لبذر الشقاق بين السكان، وإلهائهم عن الاستعداد لحربهم، وهذه هي سياسة المغول. وقد لمس النصارى لعبة المغول القذرة حين «أبادوا المسيحيين قاطبة في حلب وضواحيها، وسجنوا مطران السريان في قلعة نجم، فظلت طائفته بلا راع»[2].

وهكذا رأينا أن المسيحية لم تلقَ في قلوب المغول أثراً اعتقادياً، وإن لقيت وسيلة للتفرقة. كما أن مواثيق الغرب مع المغول لم تُجدِ فتيلاً. وسَرعان ما عاد الشعب إلى تلاحمه وأمنه.

---

(١) The Mongol Empire, 362.

(٢) نهر الذهب: ١٦٦/٣.

الإسلام والمغول

بواكير التسرب الإسلامي:

سرت العقيدة الإسلامية شيئاً فشيئاً حتى احتلت جزءاً كبيراً من المشرق القريب المتاخم لإيران وأفغانستان جنوباً وشمالاً بدءاً من القرن الثاني الهجري (القرن الثامن الميلادي). وكانت الرقعة الإسلامية تأخذ في الترسع منذ ذلك التاريخ. غير أن المصادر لم تذكر دخول الإسلام أرض المغول، لكنها ذكرت دخول التجار المسلمين بلاد الصين، وكانوا آنئذ يعرفون باسم «تاشي»[١].

ثم إن الإسلام بدأ يدخل آسية الوسطى عن طريق التبشير الفردي، سواء بالتجارة أو برحيل المتصوفة والزهاد. ومن حدود آسية الوسطى الشرقية بدأ احتكاك المغول بالإسلام. ويذكر بارتولد أن أخا زوجة جنگيزخان كان مسلماً، وهو أحد زعماء «الماركيت»، ويحمل اسماً إسلامياً هو «جمال خوجة». كما أن بعض التجار المسلمين كانوا يعملون لحساب جنگيزخان، وهم الذين قتلهم خوارزمشاه في «أترار» - كما سيرد في موضعه -. كما كان أحد وزراء جنگيزخان مسلماً تركياً يدعى «محمود يلواج»[٢]. وهو نفسه الذي سلمه جَغَتاي بن جنگيزخان إمارة ما وراء النهر فعمرها. ثم عين ابنه «مسعود بك».

ونقع على تصريح هام للراهب «روبروك - Rubruck» الذي زار قره قورم في عهد «مونكو قاآن»، يقول: «.. فيها اثنا عشر معبداً وثنياً، ومسجدان لأتباع محمد، وكنيسة واحدة للنصارى»[٣]. وكلام روبروك هذا يبين وجود مسلمين بين المغول في وقت مبكر.

---

(١) تاشي: عربية أصلها «تاجر». والصينيون يُسقطون حرف الراء حيثما وجد في الكلمة. وحين شاعت الكلمة توسع مفهومها لتغدو مرادفة لكلمة «عربي».

(٢) راجع أخباره مفصلاً في تاريخ فاتح العالم - ج١ لعطا ملك الجويني بترجمتنا.

(٣) The Mongol Mission, 184.

وكان مع جنگيزخان في جيوشه كتائب تركية مسلمة من مسلمي «قاياليق» و«آلما لق». ومجرد ذكر «منع الذبح على الشريعة الإسلامية» في بعض بنود اليساق كافٍ للتحقق من انتشار الإسلام.

والصفة التي عرف المغول بها ـ وهم بعدُ في ديارهم ـ أنهم ما كانوا يمنعون أحداً من حرية الاعتقاد. وحروبهم في آسية امتازت بطابع التدمير الحضاري والسياسي أساسه الاقتصاد، ولم يكن بهدف تحطيم الأديان، باستثناء العراق. فهم حاربوا الصين، وقفقاسية، وأوروبة، وعاثوا في كل شبر داسوه.. من غير أن يكون هدفهم إفساد المعتقدات. وإن كانت تأتي منهم من تدميرهم العام.

ووحشيتهم هذه جعلتهم يحاربون الدول الإسلامية حتى وهم مسلمون. فغازان مسلم، ولبس العمامة، ومع ذلك هاجم بلاد الشام وعاث فيها فساداً. وأباقا قبله دان بالمسيحية تقريباً ومع ذلك هدم الكنائس.

فهدف المغول الأول هو التدمير والنهب. ومهما حاولوا ـ فيما بعد ـ أن يعيدوا للإسلام رواءَه، ويشجعوا علماءه، فلن يغفر التاريخ لهم جرائم مدينة عربية وإسلامية واحدة كبخارى وسمرقند وبغداد وحلب.

إسلام زعماء المغول:

أخذت تعاليم الإسلام تتسرب إلى زعماء المغول بدءاً من أحفاد جنگيزخان؛ فأول من أسلم من أولاد جَغَتاي بن جنگيز ابنه مبارك شاه بن قرا هولاكو، ثم تلاه أخوه «بُراق خان»، ثم «طرماشيرين خان».. ثم عمَّ الإسلام أحفاد جغتاي جميعاً ومعهم المغول والتتار القاطنون في بلاد ما وراء النهر[1].

أما أسرة جوجي بن جنگيزخان (سكان قفقاسية فإن بِرْكا بن جوجي أول خان أسلم[2]. وتَسمى بأبي المعالي ناصر الدين. وأعظم عمل قام به أنه ثار على ابن عمه هولاكو الكافر، وجهز حملة ضده ليؤدبه على ما اقترفت يداه بقتله المستعصم وسفكه الدماء. فاضطر هولاكو لترك حلب استعداداً لحرب بركا، فنجم عن هذا موت هولاكو وخسارة المغول في عين جالوت.

---

(١) نهر الذهب: ١٣٦/٣.

(٢) The Mongol Empire, 363.

وأحفاد هولاكو استقروا في إيران، وجعلوا «مراغة» قرب تبريز عاصمتهم. فاحتك الحاكم الكافر بالمحكوم المسلم. وكان أن دخل هؤلاء الحكام في الدين الإسلامي بعد صراع مرير. وأول من أعلن إسلامه من الدولة الإيلخانية في إيران تكودَر بن أباقا. وكان قد رُبي في الصين، ونشأ نشأة مسيحية وعُمد[١]. إلا أنه حين جاء إلى الحكم سنة ٦٨١ هـ - ١٢٨٢م أعلن إسلامه وتسمى أحمد[٢] وكان عمره آنئذ ثلاثين سنة، فعمت الفرحة البلاد. وأرسل رسله إلى بغداد ومصر يعلمهم نبأ إسلامه[٣]. ووقع السلم بين الطرفين. لكن قواده قتلوه. وقد علق «سيكس - Sykes»[٤] على مسألة قتله فقال: «فقد أحمد حياته بسبب اعتناقه الإسلام، وبعد اثنتي عشر سنة مات بايدو لعدائه للإسلام ومساعدته للمسيحية!».

وعلى الرغم من أن الحكم الرسمي بعد أحمد تكودر لم يعد إسلامياً مؤقتاً، فإن الإسلام استمر يتسرب بين الجنود المغول، مما اضطر «كيخاتو» و«بايدو»[٥] إلى إخفاء علاقتهما بالغرب، والتظاهر بالعطف على الإسلام. وقد قام كيخاتو بعمل أرضى به شعب إيران الشيعي بأن أعفى السادة من آل البيت من دفع الضرائب[٦]. ومن عجب أن بايدو كان يأمر ابنه بأن يصلي في المسجد مع المسلمين[٧].

كل ذلك لإحساس الأمراء الإيلخانيين بضرورة مسايرة الشعب المحكوم. ولهذا عاشوا مرحلة من القلق النفسي والازدواجية أحياناً، سواء في الاتجاه المذهبي، أو في مراعاتهم للشعب. وقد تمثل هذا الشعور بشكل واضح في عهد إيلخانية غازان بن أرغون (٦٩٤ - ٧٠٣ هـ / ١٢٩٤ - ١٣٠٣م؛ تذكر كتب التاريخ أن إسلامه لم يكن عميقاً، بل كان لمصلحة سياسية، قصده التقرب من الشعب الإيراني. غير أنه أسلم في النهاية عن اعتقاد، وتقرب من العلماء[٨].

---

(١) تاريخ مغول: ٢٢١.

(٢) The Mongol Empire, 372.

(٣) السلوك: ١/٣/٧٠٧.

(٤) A History of Persia, 109.

(٥) كيخاتو بن أباقا بن هولاكو، وبايدو بن طرخاي بن هولاكو.

(٦) History of Mongols, 362.

(٧) Ibid, 387.

(٨) The Mongol Empire, 375.

ومما يثبت عدم إيمان غازان في مطلع حكمه أن أكثر من عشرة آلاف جندي مغولي أعلنوا إسلامهم وهربوا إلى الشام ومصر يرأسهم «طُرغية» سنة ٦٩٥ هـ - ١٢٩٥م، وسُموا كما سُمي غيرهم من الهاربين «العُويراتية». فأكرمهم الملك العادل وأنعم عليهم، وأنزلهم بالساحل قريباً من قاقون»[١].

ويروى أن دخوله في الإسلام كان بدافع من وزيره الفارسي «نوروز»، بعد عدة إقدامات وتراجعات. وحين أعلن إسلامه رسمياً أقام احتفالاً مشهوداً، نثر فيه الذهب على العامة، وصام مع الصائمين، وأمر بإضافة الشهادتين إلى خاتمه، وتتويج الرسائل الملكية بالبسملة، وسك عملة جديدة عليها أسماء الخلفاء الأربعة[٢].

ولكن من المؤسف حقاً أن الرعايا المسيحيين نالهم قسط من العذاب والاضطهاد في عهده[٣]. فلم يُسمح لهم بالسير في الطرقات من دون زنار أو غيار على ثيابهم. كما خصص لليهود قبعات تَميزهم من المسلمين، مما اضطر نساءهم لأن يخرجن لقضاء الحاجات عوضاً عن رجالهم.

وبعد غازان غدا إيلخانات المغول جميعاً مسلمين. ومن أشهرهم «أولجايتو بن غازان، الذي بدأ حكمه سنة ٧١٦ هـ - ١٣٠٩م[٤]. وحين حكم تسمى السلطان محمد أولجايتو. ولأنه أسلم لقبه الفرس «خُدا بَنْدَه»[٥]. غير أنه لما كان على المذهب الشيعي تضايق منه السنة فحوَّروا لقبه إلى «خَرْبَنْدَه». وسبب تضايقهم أنه كان في البدء سنياً ثم انقلب شيعياً.

ومن الجدير ذكره أن أمه كانت من قبيلة الكرايت المسيحية، وقد أسمته حين ولدته «نيقولا»، وعمَّدته طبقاً لتعاليم السيد المسيح. وظل «أولجايتو» مراعياً كنيسة أمه حتى توفيت. ثم إنه تزوج فتاة إيرانية مسلمة فشوَّقته إلى الدين الإسلامي،

---

(١) المختصر في أخبار البشر: ٣٣/٤.

(٢) تاريخ مغول: ٢٨٣.

(٣) العالم الإسلامي: ٧٢.

(٤) تاريخ الشعوب: ٣٩١. تاريخ مغول: ٣٠٨.

(٥) خدابنده بالفارسية: عبدالله. خربنده: عبد الحمار، أو صاحب الحمار.

فأسلم على المذهب الحنفي. ثم إنتقل إلى المذهب الشافعي. ثم إنه انحرف إلى منهج أجداده المغول. وسرعان ما هداه أحد أمرائه ويدعى «طَرَمْطار» إلى المذهب الإمامي، وأنقذه من الضياع النفسي. غير أنه تضايق من طرمطار وقال له: «أيها السيئ، أتريدني أن أكون رافضياً؟!». لكن طرمطار لم ييأس بل تابع إقناعه وقال له: «هو مذهب يخوّلك حق تعيين ابنك خلفاً لك، في حين أن المذهب السني يُجبرك على الشورى في الحكم». وقنع خدابنده (أولجايتو) أخيراً بالمذهب الإمامي لأن الغالبية حوله على هذا المذهب.

وفوراً أمر سنة ٧٠٩ هـ - ١٣٠٩م بإسقاط أسماء الخلفاء الثلاثة من على السكة، وأبقى على اسم الإمام علي، مع ذكر الشهادتين عليها. وأعلن أن المذهب الإمامي رسمي في البلاد، وعين له المدرسين لتدريس الفتيان المغول. ولكنه عاد إلى السنة حين وجد غالبية الأمراء المغول على هذا المذهب ومات عليه. وخلفه ابنه «أبو سعيد» مسلماً على المذهب السني[١].

لم يعد بعد أبي سعيد ما يستحق التوقف عنده في قضية إسلام الأمراء المغول، لأن إسلامهم غدا طبيعياً وراسخاً، كما صار دين الدولة الرسمي للأسرة الإيلخانية. واستعراضنا هذا كي نشير إلى استقرارهم التام، وتخفيفهم من حدَّة الحروب مع الشام ومصر، وتوطيد أواصر الصداقة بينهم وبين الأقطار العربية، وتقريب العلاقة بين الحاكم والمحكوم[٢]. وإعادة المشرق الإسلامي إلى هدوئه ورخائه كما كان قبل الغزو الجنگيزي. وقد خدم الإيلخانيون الإسلام والعلماء كثيراً في المراحل التي حكموا إيران فيها وهم مسلمون.

---

(١) The History of Persia, 271.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ١٥٢، وفيه قائمة كاملة بإيلخانات إيران

(٣) A History of Persian Literature, 43.

الفصل الثالث

فتوح هولاكو



توجيه هولاكو للفتوح:

حين مات تولوي بن جنگيزخان خلّف أربعة أبناء هم: منكو، قوبيلاي، أريق بوقا، هولاكو. وإثر اجتماع الأمراء في القوريلتاي عُين منكو قاآن خلفاً لأبيه تولوي سنة ٦٥٨ هـ ـ ١٢٥٩م، واستقر ملكه في عاصمة أبيه «قَره قورُم». وبعد أن وطد أمن البلاد داخلياً، جدد العزم على الغزو الذي بدأ به جده، ولا سيما الممالك التي لـمّا تدخل في حكم المغول[١]. فقرر أن يعهد بكل طرف من المملكة إلى واحد من إخوته الثلاثة، ويوكل إليه أمر إخضاعها، بينما يستقر هو على كرسيه، وينعم بعرشه، ويهنأ بانتصارات قواده[٢].

وقد اختار أخاه الأصغر «هولاكو» الذي لم يكن قد تعدى السادسة والثلاثين من العمر لمهمة كبيرة وخطيرة، وهي:

١ ـ تدمير قلاع الحشاشين الملاحدة.

٢ ـ فتح إيران.

٣ ـ إنهاء الحكم العباسي، وإحضار الخليفة مكبلاً بالقيود[٣].

٤ ـ فتح الشام ومصر وبلاد الأكراد والأتراك.

بمعنى أنه وجهه نحو البلاد الإسلامية والعربية حتى آخر آسية غرباً[٤]. وخصص لهذه الحملة تعبئة كبيرة. وقد قدَّرَ المستشرق الروسي «وِلهلم بارتولد» عدد ذلك الجيش بمئة وتسعة وعشرين ألف رجل. في حين أن المؤرخين الآخرين زادوا من هذا الرقم كثيراً[٥]. وبالغ بعضهم فذكر أنه حمل معه البارود من الصين، لكن هذا الرأي مرفوض لعدم ذكره في مصادر الأمم المنكوبة بغزو المغول.

كما أعدَّ هولاكو لحملته هذه الخبراء بالمجانيق ـ ولم يكونوا من المغول ـ

---

(١) تاريخ مغول: ١٦١.

(٢) جامع التواريخ: ٢٣٣.

(٣) The Mongol Empire, 304.

(٤) Baghdad The City of Peace, 137.

(٥) العالم الإسلامي: ٤٥.

وزرّاقات النفط، ورُماة السهام. وقبل أن يأمره أخوه «منكو قاآن» بالزحف، أرسل المرشدين ليكشفوا لهولاكو الطريق الذي يجب أن يسيره من قره قورم حتى شواطئ نهر جيحون. ثم قال له:

«إنك الآن على رأس جيش كبير، وقوات لا حصر لها. فينبغي أن تسير من توران إلى إيران. وحافظ على تعاليم جنگيزخان.. وخُصَّ كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر، بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك. أما من يعصيك منهم فأغرقه في المذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل من يتعلق به.

وابدأ بإقليم «قُهستان» في خراسان، فخرِّب القلاع والحصون. فإذا فرغت من هذه المهمة فتوجه إلى العراق، وأزِل من طريقك اللور[1] والأكراد الذين يقطعون الطريق على سالكيها.

وإذا بادر خليفة بغداد إلى تقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً. أما إذا تكبَّر وعصى فألحقه مع الآخرين الهالكين.

كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد. وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم. وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال... وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون»[2].

وأرسل منكوقاآن «جور مارغون» إلى إيران لحكمها بعد أن يُتمَّ هولاكو فتحها[3]. وقبل أن يأمر منكو قاآن أخاه هولاكو بالتحرك نحو غربي آسية حدد له لقب «إيلَكْ خان» أي نائب الخان. وهذا يعني أنه في كل فتوحه غرباً تابع للخان الأعظم، وليس خاناً مستقلاً[4]. ولم يستقل الإيلخانيون في إيران إلا في عهد غازان محمود الذي بدأ حكمه سنة ٦٩٤ هـ ـ ١٢٩٤م[5]. كما سنرى.

---

(١) اللور: سكان فرس بدو في منطقة لورستان الواقعة غربي إيران، المتاخمة للعراق.

(٢) جامع التواريخ: ٢٣٦، والنص من أسلوب رشيد الدين العمري، كما هو واضح.

(٣) تاريخ مغول: ١٦١.

(٤) العالم الإسلامي: ٥١.

(٥) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة: ٣٦٤.

فمن هو هولاكو؟

هو هولاكو بن تولوي بن جنگيزخان، حفيدُ مؤسس سلالة السفك الدموي البري، وخليفته في العنف والتدمير. ولا يُعرف من أولاد جنگيزخان وأحفاده من فاق هولاكو أو ضارعه في القتل والسفك.

ويروى أن جنگيزخان، حين كان عائداً سنة ٦٢١ هـ ـ ١٢٢٤م إلى عاصمته بعد حروبه التقى بحفيده «هولاكو» الذي كان في التاسعة من عمره. وذكر له أخبار المنطقة الإسلامية، والأهوال التي أحدثتها جيوشه، ما أثار في نفس الصبي روح التخريب الكامنة بالفطرة في نفوس التتار. وقرر في نفسه أن يواصل من بعد جده رسالة التدمير وسفك الدماء[١]. وكان شعاره: «الموت للرضيع في مهده»[٢].

ومع أن هذه الرواية ظاهرة الافتعال فإنها مقبولة المضمون، على أساس أن الوحشية معششة في نفوسهم، والظروف مواتية لتخريبهم.

اسمه الأصلي «هولاگو»، ويلفظ «هولاگويا». وكان من عادة المغول أن يُسقطوا من لفظهم حرف الكاف والقاف إذا وقعا في وسط الكلمة. ولذلك ورد اسمه في بعض كتب التاريخ «هولاؤو» و«هولائو»[٣]. بينما خفف العرب الكاف الفارسية، ولفظوه بالكاف العربية.

كانت أمه «سَرقُويتي»[٤] مسيحية، وكذلك زوجه «دوقوز خاتون». ومع أن خانه الأعظم منكو قاآن مراعٍ لجميع الأديان، وأن المسلمين والمسيحيين في عهده يتمتعون بكثير من الحرية[٥]، فإن هولاكو ظل متمسكاً بوثنيته شأن أجداده، شديداً جداً على الديانات عامة، وعلى الإسلام خاصة.

غير أنه أظهر عطفاً على البوذيين الذين بدأت تعاليمهم تغزو التتار منذ زمن

---

(١) العرب والتتار: ٣٢.

(٢) The Mongol Empire, 307.

(٣) لغت نامه، مادة: هولاكو. كما ذكر ابن كثير (البداية والنهاية: ٢٤١/١٣) أنه يلفظ مخففاً.

(٤) لفظها الأصلي «سِيُوزْ قُوقِيتي بيكي»، ابنة «جاكَمْبو» أخي «أونك خان» ملك الكرايت. (جامع التواريخ: ٢١٩).

(٥) تاريخ مغول: ١٥.

قديم. وهو إن أظهر بعض العطف على المسيحيين[1]، فليس لأنه دانَ بهذه الديانة، بل لأنه كان يبغي مرضاةَ زوجه ذات المكانة الكبيرة في حياته. لكنه تناسى ذلك العطف في المراحل الأخيرة من غزوه للشام، فعاث في دماء المسيحيين الأبرياء سفكاً وهتكاً.

ومع أنه اشتهر بكثرة الزوجات والسراري فإن مكانة «دوقوز خاتون» رفيعة جداً في حياته، ذلك أنها ابنة «إيقوبن أونك خان» (أو ابنة أخيه) من زعماء قبيلة «الكرايت». كانت في الأصل زوجة أبيه «تولي». ولما كان من عادة المغول أن يرث الابن نساء أبيه (عدا أمه)؛ يتزوج منهن من يريد، ويهب من يشاء، فقد اختار «دوقوز» زوجاً له.

فهي إذاً من الكرايت المسيحيين[2]، ووصفت بأنها القديسة «هيلانة» الثانية لكثرة خدماتها للكنيسة والمسيحيين[3]. لكن عباس إقبال يرى أنها لم تتنصَّر بل كانت تنتمي إلى قومها. بمعنى أن مسيحيتها كانت بدافع النُّصرة ولا بدافع النصرانية. ولهذا كانت تعمل على مساعدتهم ومؤازرتهم، وتحث زوجها على مراعاتهم. وقد توفيت بعد وفاة زوجها ببضعة شهور.

أما مراعاته للشيعة فليس لأنه أسلم، بل بسبب بعض أعوانه كنصير الدين الطوسي، الذي لازمه بعد فتوحه لقلاع الحشاشين ـ كما سيأتي ـ وأشرف على مرصده، ونفذ له رغباته. ويروى أنه حينما أراد الزواج ببنت ملك الكرج المسلم أبت عليه حتى يسلم. فقال: عرِّفوني ما أقول، وشهد عليه نصير الدين الطوسي (!) بأنه أسلم، وتزوجها واسمها «ماما خاتون». ومع ذلك فلم يسلم.

بدء الحملة:

غادر هولاكو ثكناته من قره قورم سنة ٦٥١ هـ ـ ١٢٥٣م، متجهاً غرباً حسب الخط الذي انتهجه له أخوه الخان الأعظم. وأرسل في مقدمة الجيش الفرق لتمهيد الطرق، وقلع الأشواك، وتذليل الصخور، وإقامة الجسور، وبناء السفن اللازمة

---

(١) تاريخ الشعوب: ٣٩١.

(٢) جامع التواريخ: ٢٢٠.

(٣) The Mongol Mission, xxiv.

للعبور، لتسهيل حركة الجيش وآلياته الثقيلة. وأمر بكتابة رسالة باسمه ترسل نسخ منها إلى أمراء المسلمين جميعاً يطلب منهم فيها مساعدته على حرب الملاحدة، كما يسميهم. والرسالة هي:

«بناء على أمر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة. فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعُدد فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم، وسنحمد لكم مواقفكم. أما إذا تهاوَنْتم في امتثال الأوامر وأهملتم فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة فإننا لا نقبل عذركم، ونتوجه إليكم. فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم»[1].

واستقبلهم مسعود بيك صاحب تركستان وما وراء النهر (من قبل عمه جغتاي)، وكذلك أمراء الأطراف، مع تقديم واجب الطاعة. وعبر نهر جيحون، فنزل في سمرقند سنة ٦٥٣ هـ ـ ١٢٥٥م. فأسرع الأمير شمس الدين كرت لاستقباله وتقديم الطاعة له. فكان أسرعَ أمراء إيران إلى إعلان خضوعه، ثم تبعه بعض الأمراء[2].

والحقيقة أنه لم يلاقِ في إيران مقاومة تذكر، لأن جزءاً من خراسان كان مفتوحاً قبله، ولأن أمراء إيران كانوا في وضع من التفكك والضعف بحيث لم يجدوا طريقاً يُنجيهم إلا الخضوع. ولم يتوقف هولاكو للحرب إلا على أبواب قلاع الإسماعيلية سنة ٦٥٤ هـ ـ ١٢٥٦م[3]. وكان منذ عبر نهر جيجون نحو ما وراء النهر سنة ٦٥٣ هـ ـ ١٢٥٥م وجَّه قائده «كتبغا» (كيتو بوقا)[4] ـ وكان نصرانياً ـ ليباشر بتدمير تلك القلاع.

---

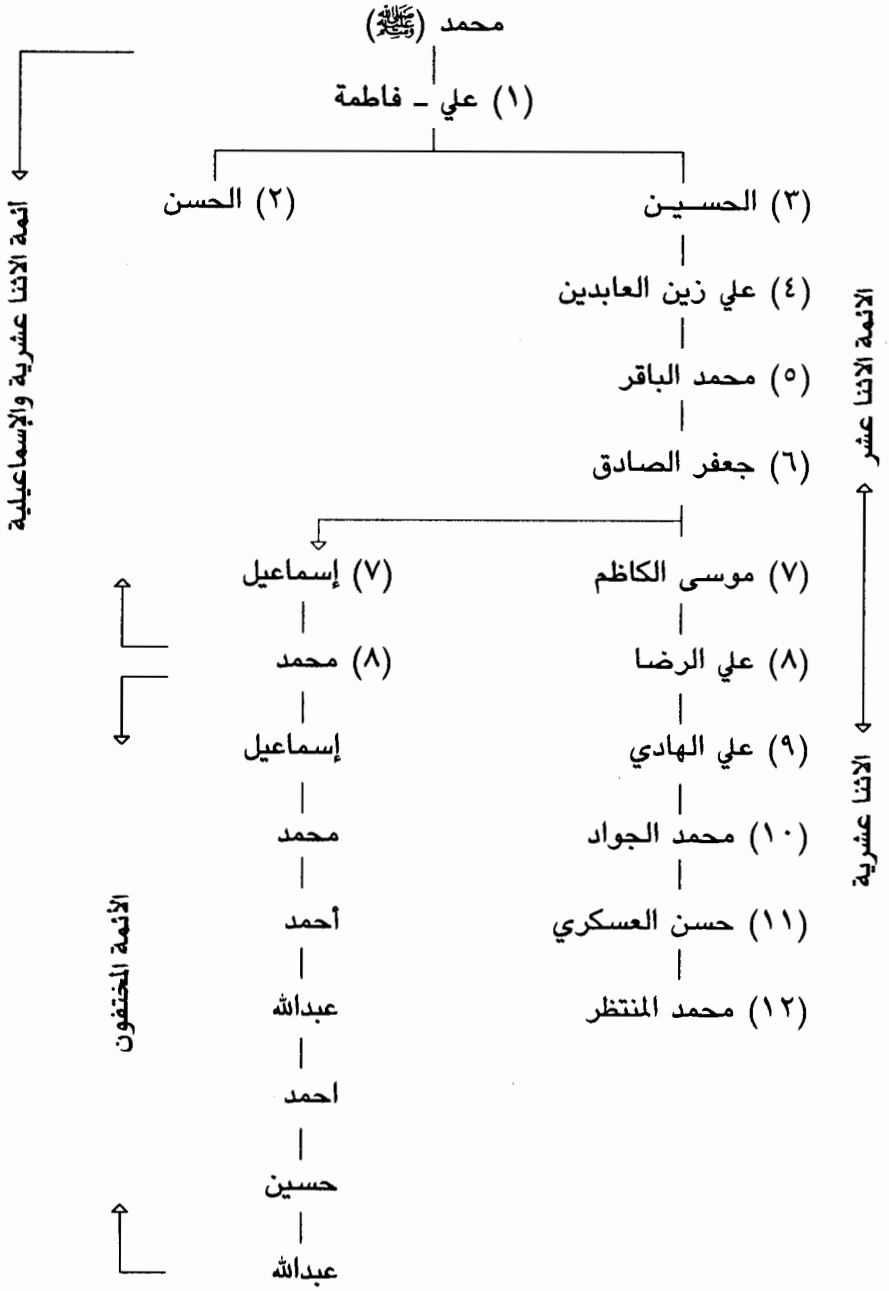
(١) جامع التواريخ: ٢٤٠.

(٢) المصدر السابق: ٢٣٩.

(٣) العالم الإسلامي: ٤٥.

(٤) وهو نفسه الذي قتل في معركة عين جالوت.

قائـمـة الأئـمـة الإمامية والإسماعيلية
خلفاء الدولة الفاطمية



خلفاء الدولة الفاطمية

(٢٩٧ – ٥٦٧)

(١) المهدي ٢٩٧ – ٣٢٣

(٢) القائم ٣٢٣ – ٣٣٥

(٣) المنصور ٣٣٤ – ٣٤٢

(٤) المعز ٣٤٢ – ٣٦٥

(٥) العزيز ٣٦٥ – ٣٨٦

(٦) الحاكم ٣٨٦ – ٤١٢

(٧) الزاهر ٤١٢ – ٤٢٨

(٨) المستنصر ٤٢٨ – ٤٨٧

المصطفى ناصر | محمد | (٩) المستعلي ٤٨٧ – ٤٩٥

(١١) الحافظ ٥٢٦ – ٥٤٤ | (١٠) الأمير ٤٩٥ – ٥٢٦

(١٢) الظافر ٥٤٤ – ٥٤٩

(١٣) الفائز ٥٤٩ – ٥٥٥

(١٤) العاضد ٥٥٥ – ٥٦٧

دكّ قلاع الإسماعيلية

الفرقة الإسماعيلية ـ الحشيشية:

حط هولاكو رحاله على قلاعهم ـ محطته الأولى ـ وهم في حالة من الضعف لا تسمح لهم بالصمود أو الهجوم. ولم يتركهم إلا بعد أن قوَّض أركانهم، وهدَّ قلاعهم، وقتل رجالهم ونساءهم، وأحرق مكتبتهم، ودثر مآثرهم. فمن هي هذه الفرقة؟ وكيف وصلوا إلى هذه القلاع؟ ثم كيف خارت قواهم لدى ضربات المجانيق الأولى؟

فالإسماعيلية فرق شيعية انفصلت عن جسم المذهب الشيعي في وقت مبكر. وكان لها تأثير كبير في الحياتين: السياسية والأدبية منذ بروز الحسن الصباح إلى مرحلة انهيارهم. وقد انفصلت هذه الفرقة نتيجة الاختلاف الذي جرى حول إمامة «إسماعيل بن جعفر الصادق» مع أخيه موسى[1]. وعلى هذا فالإسماعيليون متفقون مع الإمامية الاثنى عشرية على الأئمة حتى الإمام السادس، أي حتى جعفر الصادق (انظر الشكل) ثم انفصلوا.

فالسبعية منهم يعدون إسماعيل بن جعفر هو الإمام السابع، وهو آخر الأئمة. في حين أن الاثني عشرية يَعدون أخاه موسى الكاظم إماماً، وآخرُ إمام عندهم هو الإمام الثاني عشر[2]. كما أن المؤيدين لإمامة إسماعيل يُدعون «الإسماعيلية» أو «الباطنية». ويعتقدون بأن الإمامة انتقلت بعد جعفر من إسماعيل المتوفَّى قبل أبيه

---

(١) اختلف المؤرخون في سبب سحب الإمامة من إسماعيل؛ فمنهم من يرى أنها دواع سياسية لم ترض الإمام جعفر. ومنهم من يرى أن السبب تغير سلوك إسماعيل الشخصي. والذين تبعوا إسماعيل قالوا إن الإمامة بالنص (حسب النطق الأول). والذين تبعوا موسى هم الإمامية الاثنا عشرية.

(٢) تاريخ أدبيات در إيران: ٢٨٧/١. A History of Egypt, 116 . وهو الإمام المهدي المنتظر.

إلى ابنه محمد، والذي يدعى «السابع التام»، حيث تـمَّ به الدورُ السابعُ للأئمة[1]. ولهذا وجد إمامان برقم سبعة (انظر الشكل).

ثم انقسم بعد محمد إلى فئتين: فئةِ الأئمة المستورين، ويدعو لهم دعاتُـهم. وفئة الأئمة الظاهرين، وذلك بظهور «أبي عبيدالله المهدي»، حيث دعا إلى المذهب الإسماعيلي جهراً (وهو مـؤسس الدولة الفاطمية). وصـرَّح بـأن من لم يـؤمن بـأن أولاده (الواحد تلو الآخر) إمام مات ميتةَ الجاهلية[2].

فبعد أن تحرر من سجن «سَـجْـلماسَّـه»، دعاه داعيته «أبوعبدالله الشيعي» بالمهدي. وأسس الدولة الفاطمية في شمالي إفريقية، فحكمت العرب والبربر[3] بدءاً من سنة ٢٩٧ هـ - ٩٠٩م. ثم دخل جوهر الصقلي قائده مصر سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٨م إثر موت كافور في عهد المعز لدين الله الفاطمي (الخليفة الرابع)[4].

وعندما ضعفت الدولة الفاطمية سهـلَ على بدرٍ الجمالي الأرمني تحويلُ الإمامة بعد موت المستنصر سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤م إلى ابنه المستعلي (زوج ابنة الجمالي)، وحَـرم منها صاحبَ النص «نزار بن المستنصر». فانقسمت الدعوة (ثانية) على هذا الأساس إلى فرعين رئيسيين هما:

أ - الإسماعيلية النزارية، والتي عرفت بالإسماعيلية الشرقية أحياناً، وبالإسماعيلية الحشيشية أحياناً، ومركزها شمال إيران. وتدعى اليوم بالآغا خانية.[5]

---

(١) يرى الإسماعيليون أن الكون يشير إلى أصل العقيدة: فالسماوات سبع، والنجوم السيارة سبع، والأرضون سبع، وأيام الأسبوع سبعة، والفتحات في رأس الإنسان سبع، وفقرات الرقبة سبع، والبحار سبعة، وفاتحة القرآن سبع آيات. وهناك سبع فترات في فترات الأنبياء والرسل (آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد، محمد بن إسماعيل). وكل واحد من هـؤلاء السبعة من الأنبياء أعقبه سبعة من الأئمة. كل هذا يثبت أن دور الأئمة يتم بالسبعة. وهذا هو سبـب تسمية الإسماعيلية والقرامطة بالسبعية (دائرة المعارف الإسلامية «أهل الحق». فضائح الباطنية: ١٦. تاريخ الأدب في إيران: ٢٤٣).

(٢) تاريخ أدبيات در إيران: ٢٤٦/١.

(٣) A History of Egypt, 96.

(٤) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين.

(٥) رقم إمامهم الحالي هو التاسع والأربعون.

ب ـ الإسماعيلية المستعلية، أو الإسماعيلية الغربية. وهي التي استقرت في مصر واليمن[1]. ويمثلها اليوم في الهند جماعة «البَهْوَريَّة».

ويبدو أن الدعوة الإسماعيلية في خراسان والري والجبال وما وراء النهر نشطت حوالي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)[2]. وقد اعتمد الإسماعيليون في نشر دعوتهم على ما أعدوه من تنظيم عقلي كامل، مستقين معظم وسائل دعايتهم من نظام الكون؛ فكما أن السَّنة تقسم إلى اثني عشر شهراً، فالعالم كذلك يقسم إلى اثني عشر قسماً. ويطلقون على كل قسم اسم «الجزيرة». ويعينون لكل جزيرة داعية عاماً يسمونه «داعي دعاة الجزيرة». ويعرف أحياناً بـ «حجة الجزيرة» أو «صاحب الجزيرة».

وكما أن الشهر يتألف من ثلاثين يوماً فقد أوجبَ الإسماعيليون أن يكون لحجة الجزيرة ثلاثون مساعداً، أطلقوا عليهم اسم «نقباء». وأوجدوا تحت إشراف كل نقيب أربعة وعشرين داعياً، مختفين كاختفاء الشمس بالليل[3].

وقد استمرت خلافة الفاطميين (الإسماعيليين الغربيين) حتى سنة ٥٦٧ هـ ـ ١١٧١م، حيث أنهى صلاح الدين خلافتهم بعد أن حكم أربعة عشر خليفة منهم.

الحسن الصباح والفرقة الصباحية:

كان من جملة دعاة الشيعة المتنقلين في البلاد في عهد ملكشاه السلجوقي (ت ٤٨٥ هـ ـ ١٠٩٢م) لاجتذاب العامة عن طريق التبشير بقرب ظهور المهدي رجل يدعى «الحسن بن الصباح»[4].

وفي هذه الحقبة ظهر داع فاطمي كبير اسمه «أحمد بن عبد الملك عَطَّاش». وكان قد اتخذ الريَّ مقراً له بعد أن كان في إصفهان، وشاهد تعذيب الشعب لمريديه. وفي الري اتصل بالحسن الصباح، وجذبه إلى مذهبه. وقد استفاد

---

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: ٦، فما بعد.

(٢) The Ghaznavides and Eastern Iran, 199.

(٣) قرامطة العراق: ١٥٩. وانظر كذلك تأويل دعائم الإسلام: ٢٩٧/١.

(٤) تاريخ الشعوب: ٢٨٢.

أحمد بن عبد الملك من اختلافات السلاجقة فيما بينهم، فاستولى على قلعة «شاه دُژ»[١]، وهي من القلاع الحصينة في إصفهان، وملأها بالأسلحة، واتخذها مركزاً للدعوة، فتبعه خلق كثير من أهل إصفهان.

وبعد حين تمكن داعيته الحسن الصباح من الاستيلاء على قلعتَي «طَبَس» و«أَلَمُوت»[٢] بالحيلة. كما أن فرقته تمكنت من الاستيلاء على قلاع أخرى في جبال فارس والشام[٣].

المعلومات عن نشأة الحسن الصباح قليلة ونادرة، مجملها أنه الحسن بن علي ابن محمد... الصباح. يدعي أنه ينحدر من بعض ملوك حمير في اليمن[٤]. بينما ترى بعض المصادر أنه شيعي من فقراء الكوفة، أو أنه من الري[٥].

على أن معرفتنا به تبدأ عندما كلفه أحمد بن عبد الملك عطاش سنة ٤٦٤ هـ - ١٠٧٢م بالتوجه إلى القاهرة لمقابلة الخليفة الفاطمي المنصور. ووصل إلى القاهرة سنة ٤٧١ هـ - ١٠٧٨م حين كان الصراع على الإمامة قائماً بين نزار والمستعلي، ووجد نفسه هناك مؤيداً نزاراً. وعلى رغم بقائه في القاهرة عاماً ونصف العام إلا أن الخليفة لم يستقبله، والذي استقبله داعي الدعاة.

ثم عاد إلى الشام بحراً، ماراً بحلب فبغداد سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٧٩م. واستقر في إصفهان، حيث شرع يدعو إلى الإمام نزار لا إلى المستعلي. ثم اختار الأجزاء الشمالية من قزوين، في المناطق الجبلية الوعرة لتكون مركزه الحربي والفكري. وقد أحسن اختياره للمكان لأن طموحه إذا لم يتحقق بولاية واسعة، فإنه سيتحقق حتماً في قلاع منيعة على قمم الجبال[٦].

---

(١) معناها ملكة القلاع؛ من «شاه: ملك» و«دژ: قلعة».

(٢) ألموت: قلعة جبلية كبيرة تقع في الشمال الشرقي من قزوين. والكلمة ديلمية معناها: تعليم العقاب؛ من «آله: عقاب» و«آموت من آموخت: تعليم». وانظر تفصيلاً بعدُ.

(٣) History of Islamic Peaples, 179.

(٤) من كتاب «سر گذشتِ سيدنا» أي «ترجمة حياة سيدنا».

(٥) انظر جامع التواريخ والكامل.

(٦) استطاع أن يتملك هذه القلاع بالدهاء أو الشراء أو السيف. وتوسعت قلاعه في: إيران، وآسية الصغرى، والشام، ومصر.

وحوالي سنة ٤٨٥ هـ ـ ١٠٩٢م عقد اجتماعه السري لمناقشة السبل لتنفيذ ما يسمى بفن الإجرام، دفاعاً عن أرواحهم، وتثبيتاً لدعائم دعوتهم. وعلى الرغم مما كان يقوم به الصباحيون من فظائع، فإن السلاجقة ظلوا يتابعونهم ويتعقبونهم، حتى تمكن «بَرْكِيارُق» من هدم «شاه دُژ» والقلاع المجاورة سنة ٥٠٠ هـ ـ ١١٠٦م وقتل ابن عطاش.

لكن الفرقة الصباحية تهيأ لها سببان ساعداها على الاستمرار قرابة مئتي سنة:

السبب الأول: كانت الظروف دائماً إلى جانبهم؛ فكلما حوصروا أو حوربوا فوجئوا بانسحاب الجيش المحاصر لسبب سياسي قاهر. فينشغل السلاجقة بأنفسهم، بينما يتقوَّى الصباحيون ويستعدون.

السبب الثاني: هو هذا الرأس المفكر؛ الحسن الصباح. فقد كان شعلة من الذكاء والخبرات. وكان يستغل فدائييه بأحسن ما يكون الفداء، حتى خافه الملوك، بل لم يعرفوا الراحة في ليلة واحدة، خوفَ أن تُشقَّ الأرض عن فدائي يهاجمه وهو في فراشه، أو في صيده، أو جلسة أنسه. وكان ذكياً راجح العقل، بالإضافة إلى كونه عالماً في الكيمياء. ومن هذه الخبرة توصل إلى مادة الحشيش وغيرها من المخدرات[١]. ولهذا سمي أتباعه بالحشاشين. وكان يحيط نفسه بهالة من الكتب وآلات الكيمياء والفلك والتنجيم. فهابه أتباعه وأطاعوه، والويل لمن لا يطيعه منهم أحد[٢].

وبعد أن اطمأن إلى سيرورة دعوته وخطته دخل برجه العاجي الذي يفكر فيه ويخطط ولم يخرج منه مدة أربع وثلاثين سنة، إلى أن توفي سنة ٥١٨ هـ ـ ١١٢٤م[٣].

ومع أن الحسن الصباح كان ثالث الدعاة العظام (بعد عبد الملك وابنه أحمد)

---

(١) يرى بعض المؤرخين المعاصرين أن الحشيش وهمٌ اصطنعه خصوم الصباح ليبرروا أسباب نجاح الفدائيين الجريئة.

(٢) The Mongol Empire, 304 - 306.

(٣) تاريخ أدبيات در إيران: ٣٠٤.

للمذهب الإسماعيلي الشرقي، فإن نجاح العقيدة يُعزى إليه بشكل خاص، بناء على خطة جديدة ابتكرها (وسيأتي تفصيلها)، لأنه استطاع أن يهيمن على أتباعه[١]. وعلى هذا فقد اعتُرف به بأنه أهم الدعاة حجة في المذهب. وكلمة «حجة» التي حظي بها، تدل على شخصيته بحسب تسلسل المراتب الروحية التي تلي الإمام[٢].

وكان المقربون من رجاله ينادونه «سيدنا». وقد عثر الجويني في مكتبة قلعة ألموت على كتاب «تاريخ حياة سيدنا» بالفارسية، فلخصه لنا، ووصف القلاع وصف راءٍ. كما وصف ماركو بولو حياة خلفائه بشكل أقرب ما يكون إلى الخرافة. ووصف «براودين - Prawdin» المسالك المؤدية إلى الحدائق الغناء التي يوضع فيها الحشاشون[٣].

لكن الحسن الصباح لم يراع الدرجات والمراتب التي كانت معروفة لدى الإسماعيليين لانفصاله الكامل عن مصر الفاطمية. فوضع مراتب جديدة خاصة بفرقته. هذه المراتب هي:

١ ـ داعي الدعاة: ومنذ وفاة المستنصر (٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤م) بدأ يدعو لنزار لا للمستعلي. وكان عند الصباحيين يدعى كذلك «شيخ الجبل». وكان الصليبيون يدعونه «عجوز الجبل - Old man of the Mountain»[٤]. وداعي الدعاة هو الأمير السياسي العام.

٢ ـ الداعي الكبير: وهو المسؤول عن الدعاة وعن توزعهم.

٣ ـ الداعي: مهمته تنفيذ أوامر الداعي الكبير، ونشر المذهب بين الشباب.

٤ ـ الرفيق: وهو الذي يَعرف ـ بقدر محدود ـ أصول العقائد وتعليماتها المعروفة.

٥ ـ اللاصق: المبايع من غير أن يلـمَّ بمعتقدات المذهب.

٦ ـ الفدائي: أدنى مرتبة. وهذه الفئة هي المختصة بالقتل والانتقام. وتتصف

---

(١) The Cambridge History of Iran, 125.

(٢) Ibid, 429.

(٣) انظر «تاريخ فاتح العالم» ففيه فصل كبير عن مكتبتهم وقلاعهم. وانظر رحلة ماركو بولو.

(٤) Baghdad The City of Peace, 138.

بالطاعة العمياء، والشجاعة النادرة. وهم لا يعرفون شيأً عن المبادئ والأفكار. ويتدربون على: طريقة استخدام السلاح، وطريقة الدفاع عن النفس، وإتقان تبديل مظهرهم بحسب المواقف المناسبة، ويتعلمون بعض اللغات، بما في ذلك بعض اللغات الأوروبية، ومنهج الرهبان، وطريقة حياتهم وعبادتهم، أو صفات الفقيه، كنوع من التخفّي للوصول إلى الهدف المحدد[1].

الدعوة الحشيشية:

كثر الحديث عن كلمة الحشاشين حتى نسي الناس مبدأ هذه الفرقة، وتناسوا صلتها بالإسماعيلية، وشُغلوا بالحشيش الذي يدَّعون أنهم يسقونه للفدائي كي يُقدم على القتل والانتحار معاً. والحقيقة أن الأمور الثلاثة (الإسماعيلية، الصباحية، الحشيشية) متصلة فيما بينها، كما بيّنا قبلُ. والآن لماذا دُعوا بالحشيشية، أو بالحشاشين؟

يجب ألا نظن أن شيخ الجبل كان يشوِّق مريديه جميعاً بهذه المادة المخدرة، حيث يسقيهم هذه الجرعات، ثم ينقلهم إلى عالم من الإباحية. فإذا صحوا من سكرتهم أقدم على القتل فالانتحار بخنجر واحد، في سبيل العودة إلى ذلك الخلد، حيث النعيمُ الذي يحلمون به، ورأوه ذات مرة (!).

فبرأيي هذا مفهوم خاطئ، لا يرضى عنه الحسن الصباح نفسه، وهو الكيميائي الخبير الذي يدرك أن الدوام على شربه يؤدي بالمرء إلى زوال قدرته العقلية والجسدية، وانحلال جسمه، وخمود فكره. وهذا لا يرضى عنه زعيم فرقة يطمح إلى توسيع رقعة سيطرته ونشر دعوته. وهو إن سقى الحشيش فلفئة محدودة معينة، هي أدنى فئات فرقته. ولا يقدم على ذلك إلا في حالين:

١ ـ في حالات الإقدام الخطيرة التي يُخشى فيها تراجع الرجل الفدائي، بعد أن يكون داعي الدعاة قد أعد الخطة كاملة، ولا بد من تنفيذها.

٢ ـ في حالات النهاية الحتمية للفدائي، أي قتل المطلوب، فإما أن يُقتل

---

(١) تاريخ أدبيات در إيران: ٣٠٤.

الفدائي وإما أن يُعزل عن العمل بعد أداء مهمته أو خذلانه[1].

فلا يمكننا إذاً نفي وجود هذه الحشيشة في مبادئ الحسن الصباح لإنجاح أهدافه وخططه. كما أنها لم تكن عامة بين الأتباع.

فمن أين جاءت هذه التسمية؟ فقد كثرت الآراء في أصل هذه التسمية، نذكر منها ثلاثة لبيان اهتمام العلماء بها:

١ ـ مصحفة عن كلمة «الحسنيِّين» أي التابعين للحسن الصباح.

٢ ـ يرى «كازينيو ـ Casincuse» أن الكلمة مرتبطة بالكلمة الأنكلوسكسونية Seax التي تعني السكين.

٣ ـ يرى «جيبلين ـ Gebelin» أنها محرفة عن «شاهنشاه: ملك الملوك».

وهذه الآراء ـ على طرافتها ـ تخرج عن أصلها العربي، وتبتعد عن أصل مبدأ الفكرة. إلى أن جاء المستشرق الفرنسي «سيليفيستر دي ساسي ـ Sylvester De Sacy». فأنهى الشكوك، وألغى الاحتمالات بأن أرجعها إلى أصلها العربي «حشيش». والصليبيون أول من استخدمها من الغرب، وقد وردت عندهم بعدة أشكال، مثل: assisini, assessini, assassini, heissessini. في حين أن اليونانيين كانوا أقرب إلى نطقها العربي، فقالوا: خسيسيون ـ Xasisioi، وغدت فيما بعد تعني القاتل[2]. ففي الإنكليزية مثلاً يقولون: assassinate بمعنى يقتل. واشتقوا منها كثيراً من الألفاظ بمعنى الإجرام والهجوم والاغتيال.

وتجدر الملاحظة أن المؤرخين الإيرانيين نادراً ما نراهم يستخدمون لفظة «الحشاشين» وصفاً لرجال الحسن الصباح، وفضلوا عليها كلمة «ملحد» وجمعوها على «ملاحدة».

كانت مادة «الحشيش» مجهولة تماماً إلا لدى قلة من العلماء في العالم. واستطاع الحسن الصباح، ثم خلفاؤه، أن يكتشف أهمية هذه الحشيشة، ومدى مفعولها السحري في متعاطيها. ولما استخدمها في بعض مهماته الإجرامية دُعي

---

(١) وانظر آراء «إدوارد براون» كذلك في كتابه المترجم «تاريخ أدبيات در إيران: ٣٠٣».

(٢) تاريخ أدبيات در إيران: ٣٠٢.

رجاله بالحشاشين. على أن الإسماعيلية أنفسهم لا يعترفون بهذا الاسم، ولا يميلون إليه[1].

قلاع الإسماعيلية:

ذكرنا أن أحمد بن عطاش، استولى على أول قلعة لهم، هي «شاه دُژ»، وتبعه الحسن الصباح بالاستيلاء على قلعة ألموت. وما هو إلا حينٌ من الزمان حتى خضعت لهم عدة قلاع في إيران. وكان أغلبها مما بناه السلاجقة في منطقة إصفهان وطالقان وجبال ألموت وقُهِستان وجبال ألبرز.

وقد حصنوا هذه القلاع، وجددوا بناء بعضها، وأضافوا كذلك بناء قلاع أخرى.. حتى بلغ عددُ ما استولوا عليه خمسين قلعة تقريباً. واستطالت سلطتهم إلى بلاد الشام؛ إذ لا بد من أن زيارة الحسن الصباح إلى مصر وعودته على طول الساحل الشامي أوحت إليه بالاستفادة من جبال الشام. لكن قلاع الشام كانت تابعة إلى «ألموت» كغيرها[2].

ولا شك أن ألموت أهم هذه القلاع ومركز الحشاشين الأصلي[3]. ويذكر القزويني[4] أن «ألموت قلعة حصينة من ناحية روذبار[5]، بين قزوين وبحر الخزر، على قُلَّة جبل شاهق. وحولها وهاد تمنع نصب المجانيق عليها، ولا يبلغها النشاب. وهي كرسي ملك الإسماعيلية». وقد تعددت الآراء في أصل الكلمة؛ فيروى أن:

١ ـ أصلها «آله الموت» بلغة الديلم، أي تعليم العقاب، وهذا ما نرجحه[6].

٢ ـ معناها: ملجأ العقبان[7].

---

(١) دخلت الحشيشة الأدب العربي، والفارسي، والهندي، حتى فاقت شعر الخمرة في القرنين السابع والثامن. انظر كتابنا «التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي».

(٢) تاريخ المنصوري: ٩٦.

(٣) انظر خبراً طريفاً في دواعي بنائها في تتمة المختصر: ٢٣/٢. وقد ضمت هذه المنطقة كثيراً من المعتقدات والطوائف.

(٤) آثار البلاد: ٢٠٠.

(٥) رود بار: بمعنى نهر أو بقعة كثيرة الأنهار. والقلعة تبعد سبعين فرسخاً عن قزوين.

(٦) لغت نامه ـ مادة «آله موت».

(٧) تاريخ الشعوب: ٢٨٢.

٣ ـ معناها: عش العقاب، وهو رأي أغلب المعاجم الفارسية.

٤ ـ يرى إدوارد براون[١] أن مجموع حروف هذه الكلمة على حساب الجُمَّل يعادل سنة تملك الحسن الصباح للقلعة وهو سنة ٤٨٣ هـ. وعلى الرغم من نجاح الفكرة الحسابية فإنه لا بد لنا من أن نذكر أن القلعة واسمها كانا قبل أن يحتلها الحسن[٢].

والمهم أن نشير إلى منطقة قزوين وما حولها هي مراكز تجمعهم وتحصنهم وثقلهم. ومن جملة هذه القلاع «مَيمون دُژ و«لَمَّسارْ دُژ».

خلفاء الحسن الصباح:

يعد الحسن الصباح مؤسس هذه الدولة العجيبة القائمة على القلاع والحصون، وأكبر أمير مر بتاريخ الفرقة الصباحية الإسماعيلية. ولم يخلفه واحد من ولديه لأنه قتلهما: فالأول قتله لأنه شرب الخمرة. والثاني لأنه اشترك في إحدى المؤامرات.

ولهذا عين مجلساً للحكم من أربعة رجال، خص كل واحد منهم في مهمة. وأوصى أن يخلفه على العرش بعد موته «كِيا بُزُرْك». وهكذا انتقل من سلالته إلى رجل آخر من رؤساء القلاع. واستمر حكمهم ونشاطهم ١٧٧ سنة، بدءاً من ٤٧٧ هـ ١٠٨٤م، أو من ٤٨٣ هـ ـ ١٠٩٠م الذي يؤرخ لفتح ألموت. وانتهى حكمهم غُرة ذي القعدة سنة ٦٥٤ هـ ـ ١٢٥٦م على يد هولاكو. وقد تألفت سلالة الأمراء من ثمانية هم:

الاسم	بدء الحكم
١ ـ الحسن بن الصباح[٣]	٤٨٣ هـ ـ ١٠٩٠م
٢ ـ كِيا بُزُرك أُمِّيد الرُّوذْ باري	٥١٨ هـ ـ ١١٢٤م
٣ ـ محمد (الأول)[٤] بن بزرك أميد	٥٣٢ هـ ـ ١١٣٧م

---

(١) تاريخ أدبيات در إيران: ٢٠١.

(٢) حساب الجمل: آ: ١ + ل: ٣٠ + هـ: ٥ + أ: ١ + م: ٤٠ + و: ٦ + ت: ٤٠٠ = ٤٨٣.

(٣) ينتسب الآغا خان إلى الحسن الصباح مباشرة.

(٤) أضفنا هذه الأرقام للتفرقة بين الأسماء المتشابهة.

٤ ـ الحسن (الثاني) كوركيا بن محمد ٥٥٧ هـ ـ ١١٦١م

٥ ـ نور الدين خداوند محمد (الثاني) بن الحسن (الثاني) ٥٦١ هـ ـ ١١٦٥م

٦ ـ جلال الدين حسن (الثالث) بن محمد (الثاني) ٦٠٧ هـ ـ ١٢٠٦م

٧ ـ علاء الدين محمد (الثالث) بن حسن (الثالث) ٦١٨ هـ ـ ١٢٢١م

٨ ـ ركن الدين خور شاه بن علاء الدين ٦٥٣ هـ ـ ١٢٥٥م[١]

ومما تجدر ملاحظته أن دعوتهم الإسماعيلية الصباحية كانت تلقى هوًى في نفوس أعداد من المثقفين، ولدى الثورات السياسية والاجتماعية. وقد بالغ الخيال الشعبي في كثرة أعدادهم، وقوة انتشارهم، وفظاعة أعمالهم. ومع أن بعض أمرائهم غالى في دعوته وادعى أنه الإمام الروحي كالحسن الثاني، ووجب على كل من يذكر اسمه أن يعقبه بقوله: «على ذكره السلام»، نجد الحسن الثالث قد انضوى تحت حظيرة الإسلام على المذهب السني، وبنى المساجد، واستدعى الفقهاء، وطلب رضا الخليفة العباسي[٢]. ولكنهم بلغوا في آخر أمرهم مرحلة امتازت بالضعف والقلاقل.

إسماعيلية الشام:

تبع إسماعيلية الشام إسماعيلية ألموت منذ نشأتهم، ولعبوا دوراً بارزاً ضد الفرنجة والمسلمين. ومع أن حكمهم تأسس سنة ٤٩٣ هـ ـ ١١٠٠م. أي بعد عشر سنوات من تأسيس دولة ألموت، فإن حكمهم استمر حتى سنة ٦٧١ هـ ـ ١٢٧٣م. ولئن زال وجود الإسماعيلية الصباحية من منطقة قزوين ، لقد استمر وجود إسماعيلية الشام حتى اليوم.

على أن بعض المراجع تذكر أن إسماعيلية الشام «أصبحوا في عام ٦٢٤ هـ ـ ١٢٢٧م حكاماً تابعين لفرسان (هوسبتالر) المسيحيين. غير أن وجودهم قد عدَّ من جانب السلطان بيبرس أمراً غير مقبول. وفي عام ٦٧١ هـ ـ ١٢٧٣م وقعت قلعة الكهف آخر معقل الحشاشين في يد المماليك»[٣].

---

(١) الأسر الحاكمة في الإسلام: ١٨٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الأسر الحاكمة في الإسلام: ١٨٢.

زحف هولاكو نحو القلاع:

يذكر ابن الساعاتي[1] أن كثيراً من الناس والشخصيات كانوا يلجؤون إلى «منكو قاآن» ويرجونه أن يخلصهم من شر الإسماعيلية ـ الملاحدة. ولعل من أبرز من وفد عليه يرجوه إنقاذ الناس من شرورهم قاضي القضاة شمس الدين القزويني. فقد ذكر له أنه يلبس الزرد تحت ثيابه خوفاً من أن يقتلوه. وشرح له أن الملاحدة يدينون بما يخالف الإسلام والمسيحية، وما يتعارض مع معتقدات المغول. كما أن الملاحدة خطرون حتى على منكو قاآن.

ومع أن منكو قاآن لم يعبأ بشكاوى الناس والعلماء من خطر الحشاشين الملاحدة، فإنهم نبهوه إلى وجودهم وخطرهم. لذا رأيناه ـ يحث هولاكو على ضرورة اجتثاث جذورهم.

كان الإسماعيليون يتوقعون الهجوم المغولي، منذ وصول المغول إلى بلاد خوارزم وحربهم لخوارزمشاه. غير أنهم كانوا في مرحلة الضعف والتفكك، إضافة إلى أن قدرتهم على المجابهة تتمثل بقتل الشخصيات البارزة لأعدائهم. وفي اعتقادهم أن قتل الرأس يضعضع الأطراف. لذلك لم يقدروا على مجابهة المغول وحدهم. ولما لم يكن لهم رصيد بين الملوك العرب والمسلمين فقد لجؤوا إلى ملوك الغرب. وبالفعل أرسل علاء الدين بعثة إلى أوروبة سنة ٦٣٦ هـ ـ ١٢٣٨م، فزارت إنكلترة وفرانسة، تحثُّ الملكين على إنقاذهم من خطر المغول، وإنقاذ أنفسهم منهم أيضاً. ويعدونهم بأنهم سيعينونهم على حربهم الصليبية في الشام ومصر[2]. غير أن أسقف مدينة «وينشستر ـ Winchester» قال لهنري الثالث ملك إنكلترة: «دعِ الكلاب يأكلْ بعضهم بعضاً حتى ينتهي الوضع فيما بينهم. وبعدها سنؤسس على أنقاضهم الكنيسة الكاثوليكية الكبرى»[3].

---

(١) جامع التواريخ: ٢٣٣.

(٢) Baghdad The City of Peace, 138.

(٣) Let those olgs devour each other and be utterly wiped out and then we shall see founded on thier ruins the catholic church. (A History of Persia, 951).



يشرف هولاكو من قلعة «ألموت» بعد أن استولى عليها ونهبها
(عن مخطوطة «جامع التواريخ» المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس).

وحين دنا المغول من ديار الإسماعيلية قدَّم علاء الدين الطاعة إلى هولاكو، لكنه رفض طاعته. ففر علاء الدين إلى حصن «ميمون دژ» في ناحية ألموت وتحصن فيه[1]. كان علاء الدين مضطرب العقل، مشغولاً بالفسق والسكر. ولم يكن ابنه ركن الدين خورْشاه راضياً عن سلوك أبيه ـ إضافة إلى عداء شخصي بينهما ـ مما اضطره إلى خلعه وقتله والجلوس على العرش مكانه[2].

ولم تنفع الوفود بين هولاكو وركن الدين، لأن جواب هولاكو دوماً واحد، هو النزول من القلعة، والمثول بين يديه، والاستسلام، وتسليم جميع القلاع. فلم يجد ركن الدين في النهاية إلا الانصياع إلى أمره. وتهاوت القلاع إثر ذلك الواحدة

(١) تاريخ الشعوب: ٣٨٩.

(٢) تاريخ مغول: ١٧٤.

تلو الأخرى. وما استعصى منها دكتها مجانيق المغول.

كان نصير الدين الطوسي من داخل القلعة يحث ركن الدين على الاستسلام. وبسبب الطوسي تعجَّلَ ركن بالاستسلام. وحين شاهد الطوسي ركنَ الدين يقبل الأرض بين يدي سلطان السفك[1] قال بيتين فارسيين أرَّخ فيهما لهذا الحدث، ترجمتهما:

«حين كانت السنة الهجرية أربعاً وخمسين وست مئة، وفي صباح يوم الأحد غرة ذي القعدة قام خورشاه ملك الإسماعيلية من على عرشه، ووقف بين يدي هولاكو».

فرحب به هولاكو، وأوعز ركن الدين لرجاله بأن يسلموا القلاع. إلا «كردكوه» و«لِمَّسَر» فإنهما استعصتا. ويُذكر أن «كردكوه» ظلت تحت الحصار عشرين سنة، حتى استسلم أهلها.

ومن ألموت، حيث كان ركن الدين مع هولاكو، كتب إلى محتشمي[2] قلاع الإسماعيلية في الشام يدعوهم إلى التسليم حالما تصل الرايات الهمانية إليهم.

وبعد كل هذه التنازلات التي قدمها ركن الدين فإن هولاكو لم يطلق سراحه. بل أرسله إلى أخيه «منكو قاآن» ليحدد مصيره بنفسه. وقد ثار منكو قاآن حين وصل إليه ركن الدين ولم يقتله هولاكو. وسبب ثورته ـ كما يقول روبروك ـ أنه أرسل عدداً كبيراً من أتباعه الحشاشين إلى مدينة «قره قورم» في أثناء الحصار ـ يريدون قتل منكو قاآن.

وروى روبروك في مذكراته أن الداخلين على القصر كانوا يُسألون فرداً فرداً: من أين أنت؟ ولماذا قدمت؟ ويقول: «وهذه الاستفسارات سببها أنه بلغهم أن أربع مئة حشاش دخلوا قره قورم متخفِّين بأشكال مختلفة لقتل منكو»[3].

وحين وصل ركن الدين لم يستقبله منكو قاآن، بل قال للوفد المغولي: «لماذا

---

(١) الحوادث الجامعة: ٣١٢.

(٢) المحتشم: لقب حاكم القلعة. وكان الرجال يعيشون بلا زوجات ولا أولاد، ويدَّعون ذلك أسلم للحرب (تاريخ مغول: ١٧٢).

(٣) The Mongol Mission, 184.

تُحضرونه وتُشقون بذلك عبئاً الدابة التي يركبها؟». وقُتل سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧م.

ويعلل «براودين - Prawdin» أن سبب احتلال المغول للقلاع ضعف شيخ الجبل نفسه، لأن القلاع منيعة جداً ولا يمكن تذليلها أو دكُّها. وبرهاناً على منعتها أن بعضها صبر عشرين سنة على الحصار.

على أن الإسماعيلية لم يفنوا، بل تفرقوا في الأمصار. ثم حوربوا في إيران ثانية من قبل أباقا بن هولاكو، وفي الشام من قبل الظاهر بيبرس[١]. وقد تألم علماء العرب والغرب من حرق المغول لمكتبتهم النادرة، التي بفقدها فُقد علم كثير[٢].



هولاكو على عرشه في مروج «شفورقان» داخل خيمة عظيمة ذات ألف مسمار أهداه إياها الأمير «أرغون». وهو مشغول بالطرب والشراب، بينما تتوافد الهدايا عليه.
(عن مخطوطة «جامع التواريخ» المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس).

---

(١) Baghdad the City of Peace, 138.

(٢) ذكر لي المستشرق الروسي الكبير «إيفانوف فلاديمير» أنه جمع ذخائر من مخطوطات الإسماعيلية. وقد أراني إياها محفوظة في صندوق حديدي عام ١٩٦٤ بطهران، إذ كان جاري بيتَ بيتَ. وكان دائم الانكباب على دراستها وتحقيقها.

الفصل الرابع

غزو العراق وتدمير بغداد



«لقد بقيتُ عدة سنينَ مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها. فأنا أقدِّم إليه رجلاً وأؤخر أخرى. فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعيَ الإسلام والمسلمين؟ ومَن الذي يهونُ عليه ذكر ذلك؟ «فيا ليتَ أُمي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل حدوثها، وكنتُ نسياً منسياً».

«ابن الأثير: ٣٥٨/١٢»

الوضع العام للعصر العباسي الأخير

وضع الخلافة:

مُنيت الأمة العربية بغزوَين تدميريَّين؛ الأول هو الغزو الصليبي الغربي الذي قصد الشام أولاً. والثاني الغزو المغولي الذي قصد العراق أولاً. فالهجمتان هدفتا إلى احتلال البقعة العربية وامتصاص خيراتها وقتل سكانها. وقد تمكن صلاح الدين الأيوبي من دحر أهم جموع الصليبيين بعد طول عبث. كما تمكن الظاهر بيبرس من تدمير عنفوان المغول. ولم ينتصر العدوّان إلا لأنهما وجدا أرضاً خصبة، وبيئة مناسبة، وأمراء صغاراً، ومذاهب متناحرة.

وعلى هذا فقد كانت البلاد العربية مفككة الأوصال، تضربها الفُرقةُ من كل جانب، وتوهنُها التجزئة من كل ناحية، فكانت البلاد العربية في القرن السابع الهجري لقمة سائغة لكل معتد عابث، وإن لم يكن له القدر الكافي من القوة.

ولقد تميز العصر العباسي الأخير (٥١٢ - ٦٥٦ هـ/١١١٨ - ١٢٥٨م) باستيلاء العناصر الغريبة على الحكم. وكان وجود الخليفة على عرشه منوطاً بمدى ضعفه، ورضى هذه العناصر القوية عليه. ولقد توالى على هذه الحقبة تسعة خلفاء يمثلون الضعف الإداري في شخصهم؛ أولهم المسترشد بالله (قتل سنة ٥٢٩ هـ - ١١٣٤م)، وآخرهم المستعصم بالله.

ولم يكن لهؤلاء الخلفاء قوة ولا كلمة. وكانوا يعينون من قبل العناصر الأجنبية، وكانوا أحياناً يُحجر عليهم، أو يُحرمون من مرتباتهم. وليس للخليفة إلا الحفاظ على استمرارية كرسي الخلافة، والاحتفاظ بالمركز الديني المقدس. وتفكيرهم الديني هذا كان يمنعهم من حق التفكير بمزاحمة الخليفة على كرسيه، وإنهاء حكم العباسيين. حتى الحكام السلاجقة في بغداد كانوا ضعافاً، حتى غدوا هم أنفسهم لعبة أخرى في أيدي العناصر الغريبة الجديدة.

كان من الممكن أن تنتهي الخلافة قبيل العصر الأخير، أي قبل قرن من هجوم المغول. لكن محاولة بعض الخلفاء في إبراز قوتهم، وسعيهم إلى التخلص من السلاجقة والأمراء الغرباء، مدَّ من عمر الخلافة حيناً آخر[1].

إلا أن الصفة العامة للعصر العباسي الأخير هي احتجاب الخلفاء، وضعفهم، وانشطار جسم الدولة إلى إمارات صغيرة، حتى لم يعد يتبع بغدادَ إلا بعضُ جنوبها أحياناً. أما الموصل فقد اقتطعت عن جسم العراق، وتحكَّم بها مؤخراً عبد اسمه «لؤلؤ»، طال حكمه عليها قرابة خمسين سنة. وكان أول الأمراء الصغار الذين سارعوا إلى خدمة هولاكو، حتى حاصر بغداد معه[2].

حتى أمراء البادية والأطراف (من العرب) كانوا يثورون على الخلافة ويستقلون عنها.

فآلُ قَتادةَ حكموا الحجاز محلياً منذ ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠م. وبنو مَهْنا حكموا المدينة منذ سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧م. وبنو الرسِّي اليزيديون حكموا صعدةَ وصنعاء من ٢٤٦ - ٧٠٠ هـ/٨٦٠ - ١٣٠٠م. وبنو رَسول حكموا زَبيد وعدن وتعز بدءاً من سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨م. وكان هؤلاء العرب في صراع مستمر فيما بينهم. ولم نرهم شاركوا الخليفة بشكل فعلي في محاولة صد المغول.

فالخلافة العباسية غيرُ محسودة، بل كانت في وضع تُشعر معه بالرأفة لوضعها المتهالك. وما المستعصم إلا واحد من هذه الفئة العربية المغلوبة على أمرها. ولعل من أبرز مظاهر ضعف الخلافة:

١ - احتجاب الخلفاء عن الناس. فما كانوا يخرجون إلا مرة واحدة في السنة، هي لصلاة عيد الأضحى. وكان بعضهم يموت فلا يدري بموتهم أحد، إلا بعض الخدم[3].

٢ - اعتماد الخلفاء الكلي على الوزراء. وهذا الاعتماد واقع شاؤوا أم أبوا.

---

(١) المنتظم: ٤٦/١٠.

(٢) البداية والنهاية: ٢١٤/١٣.

(٣) الحوادث الجامعة: ١٥٥.

٣ ـ عدم قدرتهم على تلبية استنجادات المسلمين من الأمصار الأخرى، بدا ذلك واضحاً منذ استنجد بهم صلاح الدين. مما جعلهم منفصلين عنهم.

٤ ـ سعي المتنفذين إلى تعيين الخلفاء الضعفاء، ليتسنّى لهم التلاعبُ بمقدرات البلاد والشعب كما يحلو لهم. لذا نراهم حاربوا الخفاجيَّ (أخا المستنصر) حتى لا يكون خليفة على المسلمين لأنهم شعروا بقوته. وحين سمع بنبأ الزحف الجنگيزي قال: «لو ملَّكني الله تعالى أمر البلاد لأعبرنَّ بالعساكر نهر جيحون، وأنتزع البلادَ من التتار»[1].

٥ ـ انقسام الشعب إلى طوائف وفرق ومذاهب، لعدم وجود الخليفة الحازم. وكان يزيد الأمر سوءاً أن الجند الذين يرسلهم الخليفة لإخماد فتن هذه المذاهب يتحزبون لفئة على فئة.

٦ ـ بروز فئة اللصوص والعيارين الذين عاثوا فساداً، حتى بات الأغنياء يحتمون بحرس يستأجرونهم، أو يبنون أسواراً حول منازلهم لحماية أموالهم وأعراضهم.

٧ ـ عدم العناية بتنظيم جيش الدولة، والافتقار ـ بالتالي ـ إلى القيادة العسكرية التي تدرس أخطار البلاد وتستعد لها.

٨ ـ كثرة النكبات التي منيت بها البلاد من أمراض وفيضانات أهلكت الأوضاع الاقتصادية.

٩ ـ تزاحم الوافدين على بغداد هرباً من الزحف المغولي. وكان أكثرهم من الخوارزميين الذين زادوا من اضطراب البلاد، ومن سوء الأوضاع الاقتصادية.

١٠ ـ انشغال الطبقة الحاكمة في نزاعها فيما بينها أنساها التفكير في الاستعداد للحرب. كتطاحن الوزراء، وقواد الجيش، ورجال القصر، و...

١١ ـ هذه الأسباب ـ أو بعضها ـ سهلت على المغول عَيثهم وتدميرهم واحتلالهم. بل إن من هذه الأسباب ما أغرى فئات من العرب أو غيرهم لخدمة المغول والعمل معهم.

---

(١) ذيل مرآة الزمان: ٢٥٥.

وضع الوزراء ورجال الحاشية:

مع أن وضع الوزراء كان أحسن حالاً من وضع الخلفاء، فإن الوضع السياسي العام لم يسمح لهم بأن يكونوا أفضل مما هم عليه. فقد تعاقب في مرحلة العصر العباسي الأخير ثمانية وثلاثين وزيراً. فالمسترشد وحده استوزر تسعة وزراء، والناصر لدين الله استوزر ثلاثة عشر وزيراً. وكثرةُ الوزراء تُضعف من قدراتهم، ومن إمكانية متابعة أعمالهم. كما كانت الدسائس وسوء الأوضاع الداخلية سبباً في التلاعب بالوزراء وإهانتهم.

وكان الوزير واحداً من رجال الحاشية، يتصف بصفاتهم، ويشاركهم في خلع الخليفة أو في تعيينه، ويتلاعب في مقدرات الأوضاع الداخلية، كما كان ألعوبة في أيدي غيره، وإن كان الوزير سنياً قسا على الشيعة، وإن كان شيعياً تحزب لأهل مذهبه على السنة. وهكذا تتأجج العواطف وتثور الطوائف، ويقوى بعضها على بعضها الآخر.

ففي عهد الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٣ هـ/١١٧٩ ـ ١٢٢٥م) كان المتحكم في أمر الخلافة أستاذ داره[١] أبو الفضل بن الحاجب، وكان شيعيَّ النزعة؛ فحث أهل مذهبه على إقامة احتفالاتهم. وأقام شعائرهم في قصر الخلافة نفسه، معلناً تحديه لشخص الخليفة، مما أثار حفيظة رجال الحاشية الآخرين. ولما استفحل أمره تخلص الخليفة منه[٢]. كما قبض الخليفة الناصر على وزيره القميِّ، والذي كان وزير أبيه وجده[٣].

أما في عهد المستعصم فكان يلعب بمقاليد الأمور ستة من رجال الحكم، كان الخليفة بينهم دمية في يد طفل. وقد سبب وجودُهم وصراعهم تردّي أوضاع البلاد. وهم:

١ ـ الوزير ابن العلقمي: وقد خصصناه ببعض الصفحات في نهاية الفصل.

---

(١) أستاذ دار: لقب من يتولى قبض مال الخليفة وصرفه. والكلمة فارسية.

(٢) الكامل: ١٤٨/٩.

(٣) الفخزي: ٣٣٠

٢ ـ الدويدار[١] الكبير: هو علاء الدين أبو شجاع الطَّبْرس[٢] بن عبدالله الظاهري، من مماليك الخليفة الظاهر. ارتقى أعلى الدرجات في عهد المستعصم، وتزوج ابنة بدر الدين لؤلؤ. وتوفي سنة ٦٥٠ هـ ـ ١٢٥٢م.

٣ ـ الدويدار الصغير: مجاهد الدين أبو الميامن أيبك المستنصري، أمير الحج ومقدم الجيوش. تزوج كذلك ابنة بدر الدين لؤلؤ. حاول خلع المستعصم سنة ٦٥٣ وتعيين ابنه أبي بكر مكانه، فمنعه ابن العلقمي، فحدثت بذلك فتنة كبيرة، لم تهدأ حتى توسط فخر الدين الدامغاني. ونُودي أنَّ ما نُسب إلى الدويدار الصغير كذب[٣].

٤ ـ شرف الدين إقبال الشرابي: كان من خواص مماليك المستنصر، وعلا مقامه في عهد المستعصم. وكان حسن الادارة، حتى إن الأوضاع تدهورت بعد موته. اهتم كثيراً بالدفاع عن بغداد قبل وصول المغول، ولكنه توفي سنة ٦٥٣ هـ ـ ١٢٥٥م. وقد كان شجاعاً، ذا همة وخير، وبنى المساجد والمدارس والرباطات[٤].

٥ ـ فخر الدين أبو طالب أحمد بن الدامغاني: صاحب الديوان، ومن أعيان المستنصر والمستعصم. تقلد عدداً من المناصب الرفيعة والسفارات. وقد ظل على منصبه من سنة ٦٤٣ هـ ـ ١٢٤٥م إلى يوم فتح بغداد، واستمر عليه بعد ذلك. ثم أُوكل إليه أمرُ حكومة بغداد. لكن السعايات حيكت ضده حتى فرَّ إلى الشام[٥].

٦ ـ سليمانشاه بن بَرْچَم[٦] الإيواني: أحد رؤساء قبائل التركمان، واسمها «إيوَه»، المقيمين على حدود كردستان ولورستان. وتتابعت مناصبه في علو حتى رقيت في عهد المستعصم[٧].

---

(١) الدويدار: أصلها «دواة دار»، معناها صاحب المحبرة. الكاتب. المنشئ.

(٢) طبرس: مخففة من «طِيبَرْس». وهو من أعلام الترك، وليس نسبة إلى طبرستان.

(٣) الحوادث الجامعة: ٧٢ وغيرها. الفخري: ٧٢.

(٤) الحوادث الجامعة: ٤٥ ـ ٤٨. الإعلام بأعلام بيت الله الحرام: ١٧٧ .

(٥) تاريخ جهانكشاي: ٢٨٦/٣. تايخ مختصر الدول: ٤٧٢.

(٦) وردت خطأ في بعض الكتب «ترجم»، والكلمة تركية.

(٧) راحة الصدور: ٣٤٦ وغيرها. الكامل: ١٠٧/١١.

الحاكم السلجوقي:

لا بد من الإشارة إلى السلاجقة الذين كانوا يحكمون بغداد. ولا شك أن حكومتهم بدأت مزدهرة سياسياً وإدارياً، واشتد بهم أزرُ الخليفة، وتضامَّت دويلات وإمارات تحت إدارة واحدة. وقد دخلوا بغداد سنة ٤٤٨ هـ ـ ١٠٥٦م[١]، واعتراهم الضعف بعد مئة سنة تقريباً، حين ظهر إلى الساحة السياسية الأتابكة[٢] والخوارزميون والصباحيون. مما عجَّل في ضعف حكومتهم، وبالتالي ضعف الخليفة. حتى غدا سلاطين السلاجقة عبئاً على الخليفة نفسه. فبات يفكر بطريقة ما تنقذه من كابوسهم. وقد انتهى عهد سلطنتهم بانتهاء خلافة العباسيين ببغداد[٣].

المجتمع في العصر العباسي الأخير:

كان مَن ذكرنا جزءاً من المجتمع، من زاوية واحدة، تبيّنّا منها سوء أوضاع الطبقة الأرستوقراطية. ومن البديهي أن تكون الطبقة العامة مسحوقة تماماً لانشغال الطبقة الحاكمة بمكائدها ولذائذها.

ومع أن دراسة المجتمع شديدة الأهمية، إلا أن مؤرخينا القدماء قلما أولوا أهمية لذلك. لأن المؤرخين كانوا يظنون أن التاريخ هو تدوين أحوال الخلفاء، والحاشية، والحروب. وما كانوا يعيرون أهمية للشعب؛ كيف يحيا؟ وكيف تعامله الطبقة الحاكمة؟ وما هو مستواه؟ لكن مؤرخي الأدب كانوا أصدق تعبيراً عن الشعب؛ فمن وراء الشعر والنثر، والأخبار والروايات، والنوادر والفكاهات صوروا المجتمع تصويراً فيه كثير من الواقعية والصدق.

ومع أن المجتمع العربي في العراق والشام ومصر واحد، فإننا فضلنا فصل مجتمع العراق عن مجتمع الشام ومصر، لاختلاف وجهات النظر السياسية، وتنوع الدخلاء بين الأقطار العربية في تلك الحقبة.

معلوم أن العراق سكنته في تلك الحقبة فئتان من المجتمع: العرب الأصليون،

---

(١) The Cambridge History of Iran, 102.

(٢) الأتابكة: حكومة المربين لأبناء الأمراء. والكلمة تركية مركبة من «أتا: أب» و«بيك: كبير. رسول».

(٣) انظر للتوسع كتابنا «حول الأدب في العصر السلجوقي: ٣٦ ـ ٥٦».

والدخلاء القدماء والمحدثون. وقد كان العرب في الأعصر العباسية الأولى يحظون بصفة نبيلة خاصة، لانتمائهم إلى الخلافة ولكبار الأمراء. وكانت غالبية العلماء والشعراء والكتاب والأعيان وكبار القواد منهم. غير أن هذه الحال تبدلت، بل تبدلت في القرون الأخيرة. حتى غدا العربي ـ ومعه الخليفة ـ أدنى مرتبة من غيره بالنسبة إلى الدخلاء. وسرعان ما برزت الفئات الدخيلة من الفرس والترك والمماليك الصغار من مختلف الجنسيات. وشيئاً فشيئاً استطاعت هذه الفئات أن تحتل مقاعد المجتمع المصطفاة في الوزارات والقيادات والمراتب السامية في البلاط. وغدا الشعب العربي عندئذ مغلوباً على أمره مقهوراً.

وتشكلت فئات من هذا المجتمع؛ زنادقة وملحدون، ومتطرفون وصوفيون. كما عرف العصر بكثرة اللصوص والعيارين. أما طبقات الصناع والتجار والزراع وصغار الكسبة فمعلوماتنا عنهم نادرة. لأن الكتب القديمة حين تتحدث عن حدث معين جرى في العاصمة أو في بعض الأطراف لا تحدد الطبقة التي شاركت في هذا الحدث، أو وقع عليها[1]. إلا إذا كانت الثورة جامحة كثورة القرامطة، وثورة الزنج، وبعض الثورات الدينية أو المذهبية، من غير أن تعلق هذه المصادر على دور الأعيان في مثل هذه الأحداث[2].

ولعل طبقة العبيد والإماء أكثر هذه الطبقات اهتماماً لدى المؤرخين، فكم أطنبوا في الحديث عن سوق النخاسة وتجارة الرقيق، ومن هنَّ الجواري الغاليات الأثمان[3]، ومن هم الغلمان الذين رقوا إلى المقامات العالية في الدولة[4]. ولقد خصَّ بعض المؤرخين والرحالة فصولاً إضافية عن هذه الطبقة[5]، وبَيَّنوا أنهم كانوا يُقتنون لسدِّ شهوات بعض الأمراء، وللحروب، وللعيادة، وللحجابة، وللخدمات المنزلية... حتى الخصيان لقوا اهتماماً ملحوظاً لدى المؤرخين ورجال الدين. ولهذا

---

(١) The Ghaznavids, 1/1.

(٢) سنتحدث مفصلاً عن التناحر الطائفي أثناء الحديث عن ابن العلقمي.

(٣) صورة الأرض: ٤٥٢.

(٤) انظر أخبار أبي دلامة وقصة مروره بنخاس يبيع الرقيق (الأغاني: ١٢٨/٩).

(٥) صورة الأرض: ٤٥٢.

يمكننا أن نَدَّعي معرفتنا بالأقليات والغرباء أكثر من معرفتنا بالعرب السكان الأصليين، والطبقات الشعبية منهم خاصة.

ولا شك في أن الفئات الدخيلة هي السبب الأكبر في إثارة العصبيات الدينية، والنعرات المذهبية. محاولين بذلك الرفع من مستواهم الاجتماعي والسياسي، مما اضطر بعضهم إلى وضع الأحاديث النبوية لتؤدي الغرضَ الذي يجنحون إليه[1].

كما أن قدوم التركمان[2] إلى العراق والشام وفارس أحدث تغييراً جذرياً بالطبقات، «فقد أزالت الهجرة الطبقات الأرستوقراطية المحلية، وأحلَّت محلها طبقاتٍ تركيةً جديدة»[3]. ولا شك أن تدافع الموجات التركية الخوارزمية منذ سنة ٦٢٠ هـ - ١٢٢٣م على العراق خاصة هزَّ كيان المجتمع والاقتصاد.

والمؤرخون فصلوا كذلك في حديثهم عن أهل الذمة. فمع أنهم عرب (من بني غسان)، ولا يقارَنون من حيث العدد بإخوانهم المسلمين (بني عدنان) فإن دراسة أوضاعهم بشكل منفصل يؤدي الغاية الاجتماعية التي نحن بصددها.

فمن عادة أهل الذمة أن يلقوا الاحترام والرعاية في كل عهد إسلامي. وكان أغلب الخلفاء العباسيين يراعونهم مراعاة خاصة. وكان أهل الذمة - خوفاً على أنفسهم - يحرصون على الأعمال الحساسة الحرة التي تدرُّ عليهم الأموال، وتأمَن لهم غائلة العيش في أيام حرجة. فاشتغل اليهود في الصيرفة، والنصارى في الطب. وكانوا (كالشيعة) يتخذون أحياء خاصة بهم، وكان عدد اليهود أقل من عدد النصارى في العصر العباسي[4]. ولم يعكر صفوَهم شيء سوى علامة «الغيار» التي يجب أن يتميزوا بها من باقي فئات المجتمع. غير أنهم تمكنوا في مراحل عدة أن يُعفوا أنفسهم منها. وعلى رغم هذه المواقف المتسامحة لا يعني أنهم كانوا في مكانة

---

(١) الأدب في العصر السلجوقي: ٧٢.

(٢) التركمان: هم الترك المسلمون، أصل الكلمة: «ترك + مسلمان (جمع مسلم). ثم اختصرت الكلمتان.

(٣) تاريخ العرب والإسلام: ٣٣٦.

(٤) بالغ بعضهم فجعل عدد نصارى بغداد خمسين ألف نسمة. انظر الحضارة الإسلامية: ٥١/١. ضحى الإسلام: ٢٤. أحوال نصارى بغداد: ٢٣.

المسلمين اجتماعياً[1]. كما أنهم مروا بعهود أزعجوا فيها، مما اضطر بعضهم إلى إظهار الإسلام تقية وحماية لأرواحهم. ولكننا مع ذلك لم نقرأ في كتاب ما أنهم ثاروا على الخليفة أو الشعب إلا في أيام الغزو المغولي.

وهناك فئة أخرى ضُمت إلى أهل الذمة، هي طائفة الصابئة. وهناك صابئة في جنوبي العراق، وصابئة في شماليه... والفئتان تختلفان في المذهب والعقيدة تمام الاختلاف.

الوضع الاقتصادي والنكبات:

وكذلك ضنت المصادر في تصوير الوضع الاقتصادي. فمع أن بغداد كانت نقطة بارزة في الحركة الصناعية والحرف، فإننا لا نكاد نعرف شيئاً. لقد ذكرت بعض المصادر سعي الخلفاء إلى إرضاء الشعب وتخفيف الضرائب عنه، وإجراء تحسينات على الزراعة والري. لكنها أغفلت الجور الذي كانت تعانية، والفقر الذي يخنقها، غير أن المصادر تحدثت عن الحركة التجارية الخارجية وأسهبت، وبينت مسيرات القوافل شرقاً وغرباً، حاملة معها بضائعها[2].

ونلحظ اهتماماً كبيراً في رصد الحالات الاقتصادية دُوَين الهجوم المغولي ، وبالتحديد قبل سنوات منه. غير أنهم قُصارى ما كانوا يتحدثون عنه هو النكبات[3]. وكتب التاريخ كلها[4] كانت تعلق في ختام كل بحث يتعلق بالهجوم المغولي على النكبات التي منيت بها الأمة، وكأنهم كانوا يريدون بذلك أن يخففوا من وطأة النكبة المغولية، أو أنهم يجعلون هذه النكبات من أسباب ظفر العدو. وكانوا ـ وهم يتحدثون عن النكبات ـ يُولون اهتماماً أكبر للمدن التي جاس فيها المغول كبغداد وحلب، أو مدن الحجاز، لإثارة الشعور الديني أكثر من غيرها.

ففي ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة من سنة ٦٥٤ هـ ـ ١٢٥٦م

---

(١) الحياة السياسية: ١٨٤. يذكر رفائيل بابو إسحاق (أحوال نصارى بغداد: ٤٥): «كما أن المسلمين غالوا في ملاطفة النصارى».

(٢) The Ghaznavids, 13.

(٣) التاريخ المنصوري: ٦٨.

(٤) انظر: جامع التواريخ، شذرات الذهب، الكامل، الحوادث الجامعة، البداية والنهاية...

«ظهر بالمدينة النبوية دويٌّ عظيم، ثم زلزلة عظيمة... ثم ظهرت نار عظيمة في الحرَّة قريبة من قُريظة... وقد سالت أودية النار... فإذا الجبال تسيل نيراناً»[1].

وفي آخر صيف سنة ٦٥٤ هـ زاد منسوب مياه دجلة، فحدث سيل عظيم أغرق بغداد بدكاكينها ودورها حتى الطوابق الثانية، واستمر الغرق خمسين يوماً. وكان من نتيجة ذلك أن خرب نصف العراق... واستمر الناس زمناً يتحدثون عن الغرق المستعصي[2]. وبرز في هذه الأيام السفلة والرعاع ينكبون الأشخاص وينهبون، ومجاهد الدين الدواتدار يشجعهم. ولما قوي نفوذه اتفق مع عدد من الأعيان على خلع المستعصم وتولية عباسي آخر[3].

ومرت بغداد (خاصة) بأزمة اقتصادية حادة كان من أسبابها غلاءُ الأسعار، وقلة الغلات بسبب تدمير القنوات التي عُني بترميمها الخلفاء والوزراء. إضافة إلى تحول الحقول الفسيحة الخصبة في العراق والشام إلى ساحات للحروب والمعارك. فاشتد الفقر، وقلّ الطعام، وعمت الأوبئة. ففاجأ السكانَ الطاعونُ الأصفر، ففتك ممن نجا من فتك العرق الأصفر. والأمر نفسه حصل للتجارة الخارجية، حيث سُدَّت الطرق الآمنة بسيل الهجوم الكاسح.

وقد ربط المؤرخون الكوارث الطبيعية بالفتن الداخلية. فابن كثير، حين تحدث عن النكبات التي مُنيت بها بغداد أشار إلى «فتنة عظيمة بين الرافضة وأهل السنة؛ فنُهب الكرخ ودورُ الرافضة، حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمي. وكان ذلك من أقوى الأسباب في مُمالأة التتار»[4].

بهذا نستدل على أن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية كانت في الدرك الأسفل، جنباً إلى جنب مع الأوضاع السياسية والمذهبية... إبان الهجوم المغولي على العراق والشام.

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/١٨٨. شذرات الذهب: ٥/٢٥٥. الحوادث الجامعة: ٣١٥.

(٢) سمي كذلك لأنه وقع في عهد المستعصم.

(٣) جامع التواريخ: ٢٦٢. الحوادث الجامعة: ٣١٥. وقد كنا ذكرنا أنه سعى إلى تنصيب ابن المستعصم.

(٤) البداية والنهاية: ١٣/١٩٦.

اتجاه المغول نحو العراق

لم يكن هولاكو أول غاز مغولي للعراق؛ فقد سبقته عدة هجمات صغيرة متعمَّدة، قدَّرها المؤرخون بثلاث عشرة حملة تقريباً. لكن هذه الهجمات جميعاً لم تكن فتحاً بقدر ما كانت جسّاً لنبض القدرة العربية، وطلائع استكشافية لتقدير مدى القوة المجابهة[1].

وكانوا يعنون ـ بلا شك ـ الخلافة العباسية التي تُعد القوة الثانية في المشرق بعد الخوارزميين.

يذكر مظفر الدين الكوكَبري أن أول حملة كانت سنة ٦١٨ هـ ـ ١٢٢١م. وفي سنة ٦٢٩ هـ ـ ١٢٣١م وصل المغول إلى آذربايجان، ودنوا من إربل. فاستنجد المستنصر بالأمراء العرب فلباه الملك الكامل من مصر والملك الأشرف. غير أن المغول لم يدنوا من بغداد، فرجعت الجيوش العربية[2]. ثم عادوا إلى إربل سنة ٦٣٢ هـ ـ ١٢٣٤م فقتلوا ونهبوا ثم خرجوا عنها. وعادوا إليها بعد سنة وقتلوا نصارى نينوى وإربل، وبلغوا الموصل. وعادوا كذلك سنة ٦٣٤ هـ ـ ١٢٣٦م إلى إربل واستباحوا أهلها، فجاءهم إقبال الشرابي بجيش المستنصر فهربوا نحو تبريز.

وبعد سنة عبروا العراق، وبلغوا حتى سامراء، ففاجأهما إقبال الشرابي ومعه الدويدار الصغير، فانتصرا عليهم. وتوقفت هجماتهم على العراق حيناً، ثم عادوا يهاجمون العراق من جهة خراسان، وتخطوا خانقين، وكادوا يبلغون بغداد لولا أن صدَّهم جيش الخليفة.

ولم تتوقف هجمات المغول على العراق، كما كانوا يهاجمون الأناضول ويحاربون سلاجقة الروم، حتى استولوا على أخلاط وآمد. وهكذا دخل أمير

---

(١) الكامل: ٣٨٦/٩.

(٢) تاريخ مغول: ١٤١.

سلاجقة الروم تحت طاعة المغول إلى أن توفي سنة ٦٥٤ هـ ـ ١٢٥٦م، وخلفه ابنه على طاعتهم كذلك[١].

لاحظنا أن عدداً من هذه الإغارات جرى قبل مجيء المستعصم إلى عرش الخلافة. وقد كان المغول إثر كل إغارة يعودون إلى خانهم بأنباء البلاد، ويطمئنونه إلى أن قوة المهاجمة واهية. لكن خان المغول المشرف على هذه الهجمات في منطقة جنوبي روسية لم يُقدم على الفتح الكبير لأن الخان الأعظم في قره قورم لم يأمر بعدُ بالغزو. ثم إنه حين أقرَّ غزو إيران والعراق لم يكلفه بذلك. ولا بد أن هولاكو أفاد كثيراً من هذه المعلومات. والمضحك المبكي أن هذه الإغارات الاستكشافية كانت معروفة لدى الأمراء العرب، حتى لدى العامة. لكن الخليفة لم يرتدع ولم يستيقظ. وما أورده ابن الأثير خير دليل على إدراك الناس كنهَ هذه الحملات الصغيرة، فقال:

«لا تظنوا أن هذه الطائفة التي وصلت نصيبين والخابور، والطائفة الأخرى التي وصلت إربل ودَقوقا كان قصدهم النهب، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا؟ فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومُدافع، وأن البلاد خالية من ملك وعساكر. فقوي طمعهم. وهم في الربيع يقصدونكم»[٢].

ويتابع ابن الأثير متألماً: «فاللهُ تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده. فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين. بل كل منهم مُقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا أخوفُ عندي من العدو».

الخليفة المستعصم بالله:

هو أبو أحمد عبدالله بن المستنصر. ولد سنة ٦٠٩ هـ ـ ١٢١٢م. مات أبوه سنة ٦٤٠ هـ ـ ١٢٤٢م، ولم يعين خلفاً له. ولعله كان يريد تعيين أخيه «الخفاجي» لقوته وإدراكه للأمور. إلا أن رجال القصر سارعوا إلى تعيين ابنه عبدالله. فاستنكر الأمراء العباسيون أن يجلس عبدالله هذا على عرش الخلافة لضعفه، ورفضوا مبايعته

---

(١) تتمة المختصر: ٢/٢٥٢.

(٢) الكامل: ١٢/٤٩٧، نقلاً عن راوٍ لابن الأثير.

بادئ ذي بدء، لكنهم أكرهوا عليها في ٢٠ جمادى الأولى من سنة ٦٤٠ هـ[١].

كان المستعصم حسن الصورة والسريرة، صحيح العقيدة، حافظاً للقرآن الكريم، يصوم كل خميس واثنين[٢]. متمسكاً بمذهب السنة والجماعة على ما كان عليه أبوه وجده[٣]. إلا أنه كان فيه لين، وعدم تيقظ، ومحبة للمال. غير أنه كان كثير الميل إلى السرور وسماع الغناء والملاهي[٤]. وكان قليل المعرفة والتدبير والتيقظ، مهملاً للأمور. لذلك قويت الأراجيف في أواخر أيامه بوصول عسكر المغول. فلم يحرك منه عزماً، ولا نبَتْ منه همة، ولا أحدثَ هماً[٥]. وقد أحسن بعضهم إذ وصف الخليفة فقال:

فكأنه طفلُ الرضيع بمهده يزدادُ يوماً كلما حرَّكتَهُ[٦]

وكأن المؤرخين في وصفهم هذا إنما يهيئون وجود شخصية إلى جانبه هي على النقيض تماماً من القوة والدهاء والخبرة، وهي لعمري كذلك. ذلكم هي شخصية ابن العلقمي. فيرى بعض علماء الشيعة المعاصرين[٧] أن ظروف البلاد الراهنة كانت تستدعي أن يعين في هذا المنصب شخصية شيعية تتميز بصفات تستقطب الطبقات كافة ثقة واحتراماً... لتأمين كسب الولاء للحكومة (!). لكن ابن الطقطقى، وهو من رجاله أيضاً، يقول: «وكان وزيره ابن العلقمي يعرف حقيقة الحال في ذلك، ويكاتبه بالتحذير والتنبيه، ويشير عليه بالتيقظ والاستعداد»[٨]. ومع أن المؤرخين السنة يؤيدون أندادهم في تناقض الشخصيتين بين الضعف والقوة، فإنهم كانوا يَعرضون شخصية ابن العلقمي بصورة سلبية؛ فيرون أنه كان يتحكم في مصائر العباد[٩].

---

(١) البداية والنهاية: ٢٠٤/١٣. المختصر: ١٩٤/٣. ويروى أنهم سموا المستنصر لهذا.

(٢) خلاصة الذهب المسبوك: ٢٩٠.

(٣) فوات الوفيات: ٢٣١/٢.

(٤) تجارب السلف: ٣٥٤. خلاصة الذهب المسبوك: ٢٩٠.

(٥) الفخري: ٣٣٥.

(٦) تجارب السلف: ٣٥٤.

(٧) مؤيد الدين العلقمي: ٦٦.

(٨) الفخري: ٣٣٥.

(٩) تجارب السلف: ٣٥٤.

بين الخليفة وهولاكو:

الحرب النفسية التي تستخدمها كبرياتُ الدول في حروبها اليوم، كان المغول السفاحون يستخدمونها بكل دهاء وذكاء. فها هم المغول استطاعوا إنزال شيخ الجبل من مكمنه، وهو يعلم أنهم لا يقدرون على الصعود إليه. وكاتبوا الأمراء بالقدوم إليهم مع جيوشهم ليقدِّموا ذلهم... فلبَّاهم كثير منهم. وهم كذلك استخدموا هذه الخطط النفسية في حربهم للخليفة؛ فأرسلوا الكتائب لمناوشته، ثم أرسلوا الرسل يطالبون الخليفة بمساعدته. ثم أكثروا من رسائل التهديد والوعيد ليختبروا مدى صبر الخليفة وتحمله.

فحين كان هولاكو يحاصر قلاع الملاحدة سَيَّر رسولاً إلى المستعصم يطلب منه نجدة[1]، وكأنه علم بعداء الخليفة للإسماعيلية. وقد حاول المستعصم أن ينجده فعلاً لكن الوزراء ورجال الحاشية جميعاً لم يمكِّنوه من ذلك، وقالوا له: هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة، وليس محتاجاً إلى نجدتنا. وإنما غرضه إخلاء بغداد من الرجال، فيملكها بسهولة[2]. فأحجم الخليفة عن بذل المساعدة.

ولما تم لهولاكو فتح القلاع أرسل رسولاً آخر إلى الخليفة يعاتبه على إهماله في تسيير النجدة، وترجمة الكلام: «كلما استنجدتُ بك اعتذرتَ ولم تبعث لنا مدداً... وإنما نحذرك مغبة المناورة... فتأهب للقتال، واستعدَّ للنضال، وجهز جيشك، وعين جبهة القتال».

فاستشار المستعصم هذه المرة وزيره (وحده) فقال له: «لا وجه غيرُ إرضاء هذا الملك الجبار ببذل الهدايا له ولخواصه». وحين جهزوا الهدايا عارضهما الدويدار الصغير قائلاً: «إن الوزير إنما يدبر شأنَ نفسه مع التتار. وهو يروم تسليمنا إليهم، فلا نمكِّنه من ذلك». وحين رأى المستعصم المغلوب على أمره اضطراب المجلس، جعل للأمر حلاً وسطاً، بأن اكتفى بإرسال هدايا ضئيلة المقدار. فاحتقرها هولاكو كثيراً حين وصلت إليه.

وكأن عيناً سرية كانت تخبر هولاكو بماجريات القصر على قلة عدد

---

(١) اعتمد أغلب المؤرخين على «رسالة الفتح» للطوسي. انظرها في خاتمة «تاريخ فاتح العالم».

(٢) تاريخ مختصر الدول: ٤٧١.

المجتمعين في مجلس الخلافة[1]. ولا نشك في وجود (واحد أو أكثر) كان يراسله سراً. فطلب هولاكو عندئذ أن يمثُلَ بين يديه الدويدار الصغير أو سليمانشاه. ولم يرسل المستعصم أحداً منهما، واكتفى بأن أرسل ابن الجوزي[2] لفصاحته ليعتذر إليه[3]. كما يروى أن ابن العلقمي نفسه كان رسول الخليفة إليه غير مرة، كما زاره في مقره بهمدان[4].

يتبادر هنا إلى الأذهان نقطتان، نرى أهميتهما:

١ ـ لماذا كان هولاكو يُكثر من مراسلة الخليفة، علماً أنه لم يفعل ذلك مع غيره؟ ولماذا وصل سنة ٦٥٥ هـ ـ ١٢٥٧م إلى الدِّينَوَر قاصداً بغداد ثم قفل راجعاً إلى همدان؟ أكان يتهيب مقام الخلافة؟[5].

٢ ـ أصحيح أن الخليفة لم يكن عابئاً بهجوم المغول؟ الحقيقة أن الخليفة كان يستخف برسائل هولاكو، ويصفه دائماً بالشاب المتهور، ويعتمد على قدسية الخلافة في نفوس المسلمين، ويهدد هولاكو بالأذى الذي سيعتريه، وبالمصير المشؤوم الذي سيحيق به إن هو أقدم على فتح بغداد. حتى إن المستعصم نفسه صدق ما قاله له؛ فكان يقول لوزيره دوماً: «لا ضيرَ على الأسرة العباسية؛ إذ إن ملوك الأرض عبيد لنا»[6]. ولذلك سنجد هولاكو يستشير المنجمين والطوسي في مسألة غزو بغداد وقتل المستعصم، وهل يصيبه الأذى حقاً إن هو أقدم على قتله؟

لكن هولاكو ـ أمام استخفافات المستعصم به ـ حنقَ وأصرَّ على مجيء الخليفة إليه، أو مجيء الدويدار الصغير وسليمانشاه وابن العلقمي معاً[7].

---

(١) يؤيد كلامنا ما جاء في شذرات الذهب: ٥/٢٥٥: «في سنة ٦٥٢ هـ شرعت التتار في فتح البلاد الإسلامية والخليفة غافل في خلوته ولهوه. والوزير وأتباع الخليفة يكاتبون هولاكو، والرسل بينهم».

(٢) هو شرف الدين عبدالله بن محيي الدين ابن الجوزي. صاحب تاريخ المنتظم، وتلبيس إبليس. كان محتسب بغداد ومدرساً في المدرسة البشيرية. روي أنه قتل في الغزو، أو أنه ظل حياً.

(٣) الحوادث الجامعة: ٣١٩ .

(٤) الفخري: ٣٣٥.

(٥) الحوادث الجامعة: ٢٦٧.

(٦) جامع التواريخ: ٢٧٣.

(٧) تاريخ مختصر الدول: ٤٧٢.

الزحف على بغداد:

كان عسكر بغداد مئة ألف فارس، أعدَّهم المستنصر وجهزهم. لكن المستعصم حل معظم هذا الجيش لبخله، أو لأن ابن العلقمي وأمثاله حسنوا له حله ليُحمل إلى المغول متحصَّل إقطاعاتهم... ولم يبق من جيشه إلا عشرون ألفاً[١]، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وعلى أبواب المساجد، وأنشد الشعراء فيهم قصائد يرثون فيها حالهم ويحزنون على الإسلام وأهله[٢].

وقد كنا ذكرنا أن هولاكو كان يحجم عن فتح بغداد، ويحاول إنهاء الفتح سلماً تخوفاً من العاقبة. وحين تراجع عن فتحها عاتبه قائده «بايْجو نُويان» على تقصيره هذا. فأخبره أنه لم يدخلها لكثرة سكانها ووفرة جنودها[٣]. ولما كان يعتقد بالنجوم كثيراً فقد تنبأ له أحد الفلكيين بست كوارث إذا ما شرع في هجومه على عاصمة الإسلام[٤]. وأخبره منجمه أنه يخاف عليه «نفقَ الخيول، وغروب الشمس، والجفاف، والرياح والموت». غير أنه عاد فاستشار نصير الدين الطوسي فطمأنه إلى أن شيئاً من هذا لن يكون[٥] (وليته لم ينصحه). فقتل هولاكو الفلكي واستجاب لرأي الطوسي، وأقدم على الفتح[٦].

واستدعى «بَجرماغون» و«بايْجو»، وأمرهما أن يكونا على ميمنة الجيش. وتقدم الجناح الأيسر بقيادة «كَتُبُغا» و«قودْسون» من طرف لورستان. بينما سار هو في قلب الجيش. وعبر جبال «زاغروس»، ودمر «كرمانشاه»، يرافقه عدد من القواد المغول ومستشاراه: الطوسي وعطا ملك الجويني. وفي الطريق عهد إلى «أَرْقيو نويان»

---

(١) الحوادث الجامعة: ٣١٩. المختصر: ١٩٣/٣. تتمة المختصر: ٢٨٣/٢.

(٢) البداية والنهاية: ٢٠٠/١٣.

(٣) جامع التواريخ: ٢٦٠.

(٤) The Mongol Empire, 308.

(٥) جامع التواريخ: ٢٩٨، ولم يذكر المؤرخون الكارثة السادسة.

(٦) تاريخ مغول: ١٨٩.

فتح قلعة إربل الشديدة التحصين والارتفاع، فقتل سكانها وجنودها وأحرق المدينة[1].

كان هولاكو يعلم أن جيش بغداد سيكون أول جيش يلقاه، فحسب له حساباً كبيراً. لذا أخذ يستميل عدداً من أمراء الأطراف إليه[2]. وتابع مسيرته الحربية بخطة يحاول فيها تطويق بغداد من أطرافها تحسباً لكل توقع. وعسكر على شاطئ نهر حلوان، يدرس «استراتيجية» الموقف، ولا سيما السدود البحرية.

كان بإمكان المستعصم أن يتلافى تقصيره بأن يعلن الجهاد الأكبر، فيجند كل رجال المدينة وما حولها. إلا أن بخله أعمى قلبه، ولأن رجال الحاشية كانوا يعصون أوامره حتى اللحظات الأخيرة. فعندما أمر مرشداً الخصيَّ أن يخرج بجيشه لنجدة الدويدار أبى القواد أن ينضووا تحت لوائه. بينما لبَّى الدويدار الصغير أمر التوجه. وخرج بالجيش، فالتقَى جيشَ المغول فانتصر عليهم بخطة مغولية مرسومة[3]، حيث فاجؤوهم بفتح السدود عليهم، فغمرت المياه كل الصحراء خلف الجيش البغدادي. فعاقت المياه والوحول حركة الجيش عبر الصحراء[4]. واستطاع الدويدار الصغير أن يتراجع مع نفر ضئيل ويدخل بغداد[5].

وبدأ حصار بغداد يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من محرم سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م. وشاركهم في الحصار بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بجيشه[6]. وشرعت المنجنيقات تدك المدينة. عندئذ أرسل الخليفة وزيره

---

(١) جامع التواريخ: ٢٩٨. شذرات الذهب: ٥/٢٧٠.

(٢) استجاب له أمير «دَرْتَنْك» حسام الدين، لكنه عاد فقتله لما علم أنه يهادن الخليفة (جامع التواريخ: ٢٦٨).

(٣) تتمة المختصر: ٢/٢٨٣.

(٤) المختصر: ٣/١٩٤. مؤيد الدين: ٣٣٦.

(٥) جامع التواريخ: ٢٨٦.

(٦) ذيل مرآة الزمان: ٨٧.

الجاثليق[1] إلى هولاكو، فقالا له: «إن الملك قد أمر بأن أبعث إليه الوزير، وهأنذا قد لبيتُ طلبه. فينبغي أن يكون الملك عند كلمته». لكن هولاكو أجابهم: «كان هذا في همدان، أما الآن فأريد الثلاثة جميعاً: الوزير والدويدار الصغير وسليمانشاه»[2].

وفي هذه الأثناء حاول نفر من السكان أن يهربوا من المدينة عن طريق النهر بالسفن. لكن حرس المغول كانوا يوقفون السفن ويقتلون راكبيها. كما أقدمت بعض المجموعات على التفاوض مع المغول، ومن بينهم أفراد الحامية التركية الذين اتصلوا بأبناء جلدتهم في جيش المغول[3]. فضلاً عن قسم كبير من أهل الكرخ الذين توهموا أن المغول إنما جاؤوا لمساعدتهم، فخرجوا إليهم ليعاونوهم على حصار المدينة[4].

وأمر هولاكو أن يكتبوا بالعربية على السهام: «أن النصارى والعلويين والعلماء ومن لا يقاتل آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم»[5]. ثم يقذفون بها إلى داخل المدينة. وقصده من ذلك خلق البلبلة وتفرقة الصفوف.

---

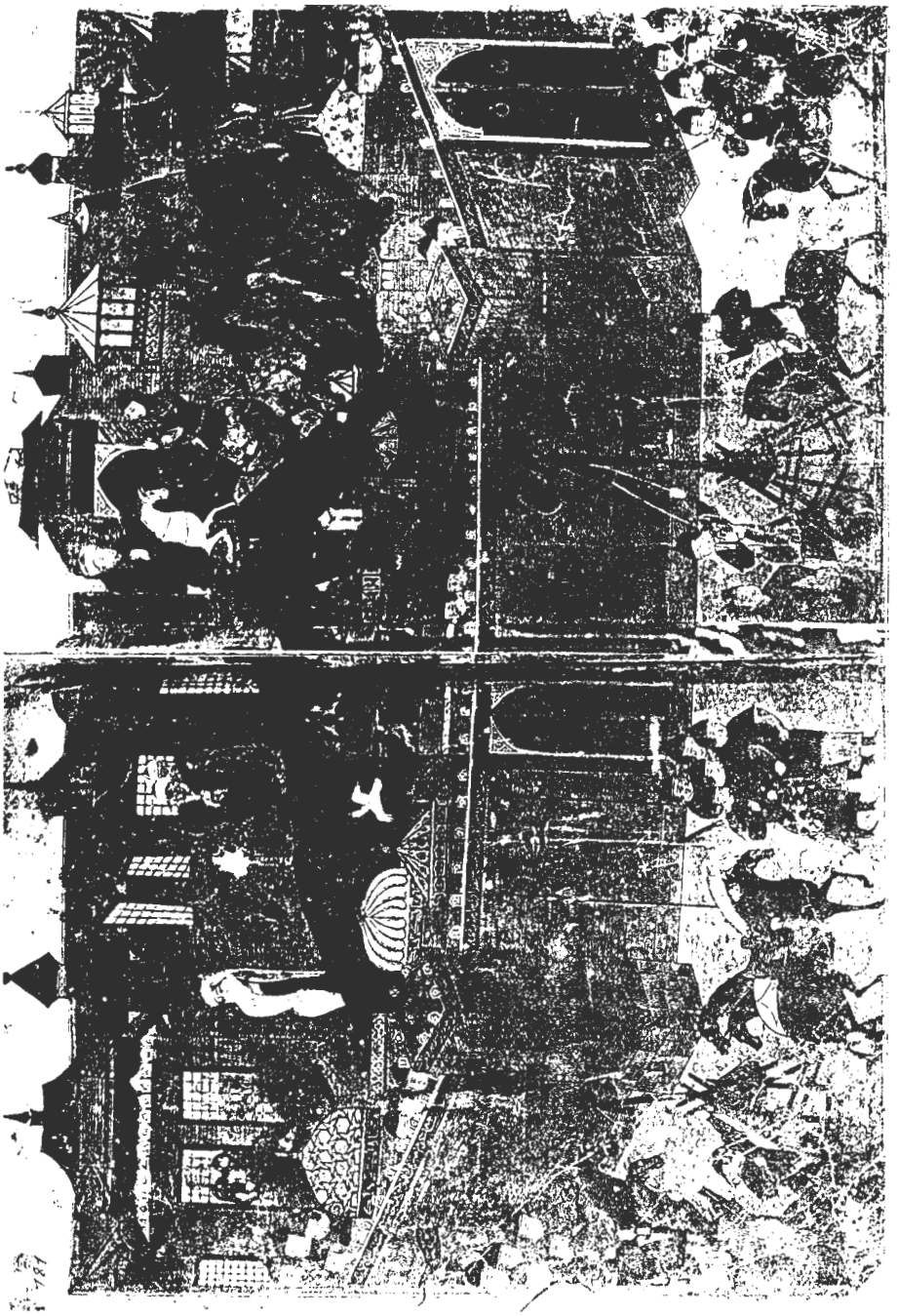
(١) الجاثليق: رئيس القساوسة النصارى في المماليك الشرقية خاصة. وهم اسم لرئيس النساطرة، أصل الكلمة Catholique . والكلمة يونانية.

(٢) جامع التواريخ: ٢٨٦. ذيل مرآة الزمان: ٨٨.

(٣) العالم الإسلامي: ٤٦.

(٤) ذيل مرآة الزمان: ٨٧.

(٥) تاريخ مختصر الدول: ٤٧٤.



المغول يحاصرون بغداد ويرمونها بالمجانيق
(عن مخطوطة «جامع التواريخ» المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس).

وحين اشتدت الأزمة استأذن الوزير ابن العلقمي الخليفة السماح له بمفاوضة هولاكو للمرة الأخيرة، فأذن له في الرابع عشر من محرم. وكان يطلب من جنود المدينة، حين عاد من زيارته، أن يتوقفوا عن رمي النشاب قائلاً لهم: «سوف يقع الصلح إن شاء الله، فلا تحاربوا». في حين أن المغول كانوا يستمرون في الرمي[1].

وتروي بعض الكتب أنه في زيارته هذه أخذ لنفسه المواثيق، ودبَّر معه خطة لإخراج الخليفة إليه. وقال للخليفة إثر عودته: «إن هولاكو يرغب في مصاهرتك، ويريد أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر. وسيبقيك على منصبك كما كان لأجدادك... ولا يطلب إلا أن تكون الطاعة له، ثم يترحَّل بعد حضور عقد القران. وأرى أن تجيبه يا أمير المؤمنين لهذا؛ فإن فيه حقناً لدماء المسلمين، ويمكن أن تفعل بعد ذلك ما تشاء. وأرى كذلك أن تخرج إليه، وتتفاوض معه»[2].

وهكذا شجَّع الوزير لقاء الخليفة بهولاكو، وهو يعلم أن في هذا اللقاء هلاكه. فلعله كان متواطئاً، أو لعله فكر بأن في قتل الخليفة إنقاذاً للمسلمين. ولما رأى الخليفة أنْ لا مفر من لقائه سأل وزيره: «ما تدبيرُ أمرنا؟». فأنشده هذا البيت جواباً:

يظنون أن الأمرَ سهلٌ، وإنَّما هو السيفُ حُدَّتْ للقاءِ مضاربُه[3]

وخرج المستعصم إلى هولاكو في جمع من الأعيان يوم الأحد الرابع من صفر. فلم يستقبله هولاكو، بل أنزله في خيمة. وكان الخليفة يردد قصيدة، منها:

وأصبَحْنا لنا دارٌ كجناتٍ وفردوسِ
وأمْسَينا بلا دارٍ كأنّا لم نُفِقْ أَمْسِ

وتابع ابن العلقمي الخطة (المرسومة)، فأخذ يدعو الفقهاءَ والأماثل رَتْلاً رتلاً حتى اجتمع خارج الأسوار جميعُ أعيان بغداد ومدرسيها وقضاتها، يوهمهم أنهم سيحضرون عقد قران ابن الخليفة على ابنة هولاكو. فلما تكاملوا قتلهم المغول جميعاً، وكان عددهم ثلاثة آلاف.

---

(١) الحوادث الجامعة: ٣٢٤.

(٢) المختصر: ١٩٤/٣. تتمة المختصر: ٢٨٣/٢. شذرات الذهب: ٢٧١/٥.

(٣) جامع التواريخ ٢٩٠.

وبعد ذلك أقدم «بايجو» على مد جسر على النهر، ودخل بمن معه من الجند، فبذل السيف في رقاب الأبرياء. وهاجموا دار الخلافة، وقتلوا من كان فيها. واستمر القتل والنهب والسبي أكثر من ثلاثين يوماً (وقيل أربعين)[١]. ولم يَسلم إلا من كان صغيراً، حيث أخذ أسيراً[٢]. كما سلم أهل الذمة، ومن التجأ إليهم، أو التجأ إلى دار ابن العلقمي وغيره من الأعيان المقربين من هولاكو، وبعض التجار الأثرياء ممَّن بذلوا للمغول أموالاً كثيرة[٣]. ولم يتوقف القتل حتى تقدم بعض الرجال يرجون هولاكو العفو عن الناس، فعفا عنهم[٤]. فارتاح الناس، وخرج من كان مختبئاً في الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ[٥]، وبعد أن قتلوا كل العباسيين، إلا «مبارك شاه» الابن الأصغر للمستعصم. فقد احتفظوا به لصغر سنه، وأهدوه إلى «أولجاي خاتون» زوجة هولاكو، فبعثت به إلى «مراغة»، وسلمته إلى نصير الدين الطوسي. ثم زوجوه فتاة مغولية، أنجب منها ولدين[٦].

قتل الخليفة ونهاية بني العباس:

وبعد أيام دخل هولاكو القصر، وجلس على عرش الخلافة. ثم استدعى إليه المستعصم وقال له: «إنك مضيف ونحن الضيوف، فهيا أحضر ما يليق بنا». فأسرع الخليفة ذليلاً مضطرباً، يقدم له النفائس. فوزعها هولاكو على أتباعه. ثم وضع أمام المستعصم طبقاً من الذهب وقال هولاكو له: كُلْ. فأجابه: لا يؤكل! فقال: فلمَ لم تدفع للجند؟ لمَ لم تأتِ لحربي إلى شاطئ جيحون؟ أو لمَ لم تسعَ إلى كسب ودي؟ لقد بذل الملوك الآخرون الذهب والفضة لدفع الأعداء عن بلادهم. ومساعدة شعبهم، بينما لم تفعل أنت شيئاً. قل لي: أيُّ رجل أنت؟ وأيَّ عقل تحمل؟ ثم قال له: وأين خزائنك الدفينة؟ فأراه حوضاً في ساحة القصر مملوءاً بالذهب الأحمر، كله سبائك[٧].

---

(١) المختصر: ١٩٤/٣. شذرات الذهب: ٢٧١/٥.

(٢) الحوادث الجامعة: ٣٢٤. تتمة المختصر: ٢٨٣/٢.

(٣) البداية والنهاية: ٢٠٣/١٣.

(٤) جامع التواريخ: ٢٩٣.

(٥) البداية والنهاية: ٢٠٣/١٣.

(٦) الحوادث الجامعة: ٣٢٨.

(٧) تجارب السلف: ٣٥٧. لغت نامه ـ هولاكو. وقد أخذها عن نصير الدين الطوسي.



الخليفة المستعصم وأركان دولته وحولهم المغول
(عن مخطوطة «جامع التواريخ» المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس).

وقال رشيد الدين: «وقصارى القول أن كل ما كان الخلفاء قد جمعوه خلال خمسة قرون أخذه المغول بأيام»[1]. وأحرقوا ما هو أغلى من الذهب وأثمن؛ أحرقوا الكتب والمدارس والمساجد. ونقل هولاكو كل كنوز بغداد إلى مراغة.

وفكر هولاكو في خاتمة الخليفة. وعاد ثانية يستشير نصير الدين الطوسي. فطمأنه بأنه لن يصاب بمكروه! «فلقد استشهد كثير من الصحابة ولم يحدث فساد. ولو قيل: إن للعباسيين مكرُمة خاصة فإن طاهراً قتل الأمين، وقتل المتوكلَ

(١) جامع التواريخ: ٢٩٢.

ابنهُ، وقد قتل الأمراء والغلمان عدداً من الخلفاء»[١]. وهكذا زال عن هولاكو قلقه وتشجع وقتل الخليفة.

أما كيفية قتله فغيرُ معلومة. يقال: قُتل وابنُه أبو بكر (وعمره خمس وعشرون سنة) خنقاً[٢]. أو قتل بإشارة ابن العلقمي في جُوالق، لئلا يقع على الأرض شيء من دمه؛ فقد خافوا أن يؤخذ بثأره - فيما قيل لهم - و«من خوف موروث مصدرُه خرافي من إراقة الدماء الملكية»[٣]، ولهذا لم يقتلوه بالسيف. أو قتلوه تحت سنابك الخيل[٤]. وقيل: بل أُغرق في دجلة...[٥] والله أعلم.

وقتل ليلة الأربعاء ١٤ صفر من سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م، أو في أواخر المحرم؛ فقد قال الشيخ الذهبي: «توفي الخليفة في أواخر المحرم سنة ٦٥٦ هـ، وما أظنه دفن. وكان الأمر أعظم من أن يوجد من يؤرخ موته أو يواري جسده»[٦].

واختلفوا كذلك في مدة خلافته؛ فذكروا أن مدة خلافته ست عشرة سنة وسبعة أشهر وأربعة أيام، وعمره ست وأربعون سنة[٧]، وخففها بعضهم مدة أحد عشر شهراً[٨]. ولهذا رأوا أن عمره حين مات ست وأربعون أو سبع وأربعون. وكان المستعصم الخليفة السابع والثلاثين... وانتهى بذلك حكم العباسيين في بغداد، بعد أن حكموا ٥٢٤ سنة أو ٥٢٦[٩].

وأمر هولاكو إحصاءَ القتلى فبلغت ألفي ألف قتيل[١٠]. وقيل: ثمان مئة ألف

---

(١) جامع التواريخ: ٢٦٨. ويذكر ابن كثير أن ابن العلقمي شارك الطوسي في الرأي (البداية والنهاية: ٢٠١/١٣).

(٢) تتمة المختصر: ٢٨٤/٢. البداية والنهاية: ٢٠٣/١٣. تاريخ الخلفاء: ٤٣٤.

(٣) العالم الإسلامي: ٤٧.

(٤) The Mongol Empire, 359.

(٥) البداية والنهاية: ٢٠٣/١٣. المختصر: ١٩٤/٣. حتى نصير الدين لم يحدد كيفية قتله (تاريخ جهانگشاي: ٢٩١/٣).

(٦) فوات الوفيات: ٢٣٢/٢.

(٧) خلاصة الذهب المسبوك: ٢٩١.

(٨) البداية والنهاية: ٢٠٣/١٣. فوات الوفيات: ٢٣١/٢.

(٩) خلاصة الذهب المسبوك: ٢٩١. تتمة المختصر: ٢٨٤/٢.

(١٠) السلوك: ٤٢٠/٢/١.

قتيل[1]. ولعل في الرقم مبالغة كبيرة؛ إذ لا يمكن أن يكون كل هذا القتل؛ فالمغول يهوّلون والمؤرخون يبالغون؛ قال الذهبي: «وراح تحت السيف أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى؛ فيقال: إنهم أكثر من ألف ألف. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وخلت بغداد من أهلها، وتشتَّتَ من بقي منهم في البلاد»[2]. ويروى أن رائحة الجثث سببت في قتل الناس، بل إن ريحها وصلت إلى الشام، فقُتل بسبب ذلك خلق كثير في حلب ودمشق!»[3].

وجُرح العرب والمسلمون جرحاً لا يندمل، و«تلك الحملة كانت أول صدمة صدعت بناء قوة المسلمين صدعاً لم يلتئم من بعده»[4]. ولا يمكن وصف ما ألـمَّ بالعرب، لأنه «حديث يأكل كل الأحاديث، وخبر يطوي الأخبار، وتاريخ يُنسي التواريخ، ونازلة تُصغِّر كل نازلة، وفادحة تطبِّق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض»[5]. وأحسنَ ابن بطوطة في وصفه لبغداد فقال: «ذهب رسمها ولم يبقَ إلا اسمها»[6].

والحقيقة أن ما جرى لبغداد لم يكن أقل مما جرى لبخارى وسمرقند مثلاً، بل كان أقلَّ مما مُنيت به حلب (كما سنرى). إلا أن الحديث عن بغداد هو الحديث عن الخلافة العباسية التي حكمت خمسة قرون وربع القرن، والحديث عن أفدح مصاب مُني به العرب والمسلمون.

وكانت بغداد أول مدينة عربية كبيرة عاثوا فيها فساداً. فلا عجب إذا رأينا الشعراء والأدباء يولون بغداد بعظيم عواطفهم وتقديرهم أكثر من غيرها. بل كانت عاطفة الشعراء في رثائها أعمق من عاطفتهم حين انتصر المسلمون في عين جالوت بعد سنتين.

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/٢٠٠.

(٢) فوات الوفيات: ٢/٢٣٣.

(٣) السلوك: ١/٢/٤١٠.

(٤) الوحدة الإسلامية ـ المقدمة.

(٥) تاريخ الخلفاء: ٤٣٠.

(٦) رحلة ابن بطوطة: ١٤٨ .

ابن العلقمي ودوافع الغزو المغولي:

هو محمد بن أحمد، الوزير مؤيد الدين أبو طالب، المعروف بابن العلقمي البغدادي. ولد في بغداد سنة ٥٩١ هـ - ١١٩٤م. وتتلمذ على خيرة أدباء عصره كأبي البقاء العُكبري، وابن حامد اللغوي، والصَّغاني. أشرف أبوه على علومه أثناء نشأته ببغداد. حتى إذا أتمَّ علومه فيها أرسله إلى الحلة ليتابعَ فيها دروسه.

وزر للظاهر والناصر قبل أن يستوزره المستعصم سنة ٦٤٣ هـ - ١٢٤٥م[١]. غير أنه قبل أن يتسنَّم منصب وزارته عمل في مناصب عدة للمستعصم[٢]. وحين غدا وزيراً عُين ابن الجوزي أستاذ دار الخلافة، وابن المطهِّر وكيلاً للخليفة[٣].

كان ابن العلقمي من الفضلاء في الإنشاء والأدب[٤]. وله نثر فني متفرق في كتب المراسلات الديوانية، ولا يختلف أسلوبه عن أسلوب أدباء عصره في كثرة الاستعارات وتعمُّد السجع والتضمين. وله شعر حسن. كان يحب أهل الأدب ويشجعهم ويمدحونه[٥]. ويُعزى إليه تأسيسُ مكتبة عامة ضمت عشرة آلاف مجلد[٦]، كان طلاب العلم - ممن لا يقدرون على اقتناء الكتب أو استنساخها - يطالعون فيها. كما كان حسن الخط.

هذا جل ما نعرفه عنه، من الناحية العلمية. ولم يذكر أحد أنه عربي الأصل أو غير عربي. وإذا لم يكن عربياً، فهل هو فارسي أو تركي؟ غير أننا نميل إلى كونه عربياً، لأن أكثر من خالفوه في سياسته من رجال البلاط كانوا غير عرب، والذين طعنوا في تصرفه لم يطعنوا في نسبه العربي. أما نسبته «العلقمي» فراجعة إلى جده الذي حفر النهر المسمى بالعلقمي. ويقول النويري: «وسُمي هذا النهر بالعلقمي لكثرة العلقم الذي ينبت على أطرافه، أو لأن أسرته (العلقمي) كانت تسكن على أطراف هذا النهر»[٧].

---

(١) نهاية الأرب: ٢٥٦/١.

(٢) تجارب السلف: ٣٥٥.

(٣) الحوادث الجامعة: ٢٧٩.

(٤) البداية والنهاية: ٢١٣/١٣.

(٥) فقد مدحه ابن أبي حديد بعدة قصائد.

(٦) تاريخ مغول: ١٨٥.

(٧) نهاية الأرب: ٢٥٦/١.

والحق أن ابن العلقمي شخصية فذة وذات أهمية كبيرة في مرحلة العصر المغولي؛ فهو آخر وزراء العصر العباسي لآخر الخلفاء. شخصية جذبت أنباه المؤرخين، وجعلتهم يحارون في وصفه: هل هو مؤيد أو مخالف؟ هل هو وطني أو خائن؟ ولا يُذكر فتح بغداد في كتاب قديم أو حديث إلا والقلم ينجرُّ ـ لا محالة ـ إلى دراسة هذه الشخصية، ولعلهم يقفون عنده أكثر مما يقفون عند الخليفة نفسه.

فهو وزير لأعصب مرحلة، قوي لأضعف خليفة، أديب يشجع الأدباء، شيعي قوي الشخصية، يخالف مذهب الحاكم علناً، ويعانده في حق شعبه. اتجهت نحوه أصابع الاتهام، ووقع مراراً في قفص الحكم. وحاول بعضهم الدفاع عنه وإنقاذه، وكأنهم بذلك يريدون تغطية خيانته بسلبية الخليفة. وهم بذلك يمنحونه قوة سياسية خارقة، استطاعت أن تسيِّر جحافل المغول بريشته وفكره، من غير أن نجد للفئتين فئة ثالثة وسطاً.

وسنحاول ـ فيما يلي ـ دراسة حال القصر العباسي، والعدوُّ يطرق الأبواب. ونستعرض موقف ابن العلقمي وموقف الحاشية من هجوم المغول، ثم نتحوَّل إلى الاتهام، محاولين الوصولَ إلى نتيجة علمية سليمة بعيدة عن العواطف والأهواء، معتمدين بذلك على استقراء الأخبار والأشعار والرسائل المتبادلة.

حادثة الكرخ[1] وتردي الأوضاع:

لم يكن الصراع بين السنة والشيعة أيام المستعصم وحسب، بل عرفت منذ أيام بني بويه. وقد كان هذا الصراع المذهبي يهدأ حيناً ويتأجج حيناً آخر... والقتلى بين الطرفين كثير دوماً. ولم يكن الصراع يجري بين فئات الشعب وحسب، بل كان يتعداه إلى رجال البلاط. وكثيراً ما يبدأ من الشعب لينتهيَ إلى البلاط. أو يتأزم في البلاط، ليلقى أرضاً خصبة من الشعب.

غير أن هذا الصراع أخذ في العصر العباسي الأخير طابعاً خاصاً، ولا سيما في عهد المستعصم. ففي سنة ٦٥٠ هـ ـ ١٢٥٢م حدث خلاف في الكرخ بين الطرفين. فعين الخليفة ابنه أبا بكر لتهدئة الثورة. وبدلاً من أن يقوم أبو بكر بواجبه في إصلاح ذات البين فتك بالشيعة فتكاً ذريعاً، مما ضايق ابنَ العلقمي[2].

---

(١) الكرخ: حي كبير من أحياء بغداد، يقع غربي المدينة. اشتهر بالوقائع الدامية على مر العصور.

(٢) تاريخ مغول: ١٨٠. المختصر: ١٩٣/٣.

وعاد الصراع يأخذ منحى أقوى سنة ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦م، والعدو على الأبواب! فأمر الخليفة بردعهم. لكن العوام تبعوا الجند، وبدلاً من التهدئة قتلوا ونهبوا وعملوا كل منكر. ثم أمر الخليفة برد كل ما نُهب إلى أصحابه[١]. ويعزو بعض المؤرخين[٢] سبب الثورة إلى وزير الخليفة ابن العلقمي؛ فقد «كان رافضياً، وأهلُ الكرخ روافض. فاقتتل السنة والشيعة ببغداد كعادتهم. فأرسل أبو بكر ركنَ الدين الدويدار (وكان سنياً) فأمر هذا عسكره فنهبوا الكرخ، وركبوا الفواحش. فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي، وكاتب التتر، وأطمعهم في بغداد، وطمع في إقامة حكم علوي».

نلاحظ من هذه الرواية أن الكرخ يضم سكاناً من المذهبين، وكلهم عرب في كل العصور. وأن الصراعات الدامية سببت فتناً داخلية، كانت كفة السنة فيها غالباً راجحة[٣]. ويرجع السبب الأصلي لهذا الصراع إلى أن قيام الحكم العباسي إيذان بانتهاء آمال آل البيت السياسية. فوقف العلويون موقف المعارضة، ودعوا الناس سراً إلى المبايعة لهم[٤].

ولم تكتف الخلافة العباسية بأن سلبت حق آل البيت في الحكم، بل عمدت إلى استخدام العنف معهم ومع التابعين لهم. وكان عنفها تابعاً لمدى قوتها؛ ففي أيام البويهيين قوي نفوذ الشيعة، حتى إذا جاء السلاجقة السنة خمد عنفوان الشيعة. وعدم اعترافهم بحق العباسيين بالخلافة جعلهم يتقوَّون في العصر الأخير، أيام ضعف الخلفاء والسلاجقة. ناهيك عن اهتمام الخلفاء بالسنة كثيراً؛ فمنهم يأتي كبار الموظفين، ولهم تؤسس المدارس.

ومما كان يزيد من حدَّة الصراع ما كان يتراشق به رجال الحاشية. وقد أسفر الدويدار الصغير قائد الجيش عن وجهه في الصراع ضد ابن العلقمي[٥]، حتى اتهمه

---

(١) الحوادث الجامعة: ٣١٤.

(٢) تتمة المختصر: ٢٨٢/٢.

(٣) المجمل: ٢٠٢.

(٤) الحياة السياسية: ١٥٩.

(٥) الحوادث الجامعة: ٢٩٤. وانظر تاريخ بغداد: ٢٧٦/١.

بالخيانة العظمى، وهي الاتصال بهولاكو. ولعل هذا الاتهام كان أول خبر يستند إليه المؤرخون. ولا شك أن تراشق رجال الحاشية أكبر عامل على تهافت الوضع السياسي. لكن هذا لا يعني أن الخلفاء لم يستوزروا شيعة. فالناصر وحده استوزر أربعة منهم. إلا أن موضوع الصراع الطائفي هو الذي يعنينا.

عود إلى ابن العلقمي:

ولقد كان ابن العلقمي شديد التعصب[1]. حتى إن ابن كثير وصفه بأنه «خبيث الطوية»[2]. لذلك رأيناه يدافع عن بني جلدته بكل حماسة، ويصرح بتضايقه من هذه الفتن، ومعه الحق في ذلك.

إلى هنا ونحن مع ابن العلقمي، ونرى أن ما قام به لا يعدو أن يكون دفاعاً عن النفس والحق. إلا أننا نُفاجأ بأنه ـ من ضيقه ـ استجار بهولاكو ثأراً لأهله، فدعاه إلى فتح نصف العراق، وترك نصفها الآخر للخليفة[3]. أو أنه سهَّل عليه الحرب، وأطمعه في أخذ البلاد، وحكى له حقيقة الحال، وكشف له ضعف الرجال، طمعاً في إزالة السنة بالكلية، وإظهار الرافضة لإقامة خلافة فاطمية!

ويبين المؤرخون أن هولاكو سُرَّ من مكاتبة ابن العلقمي له، وأعجبه اقتراحه. فأرسل «بايجونوئين»، ومعه الأمر الملكي مع ثلاثين ألفاً من الفرسان، فوصلوا تكريت، ثم اتجهوا نحو الطريق الغربي من بغداد[4]. ولما لاحظ ابن العلقمي أن أصحابه المغول جدُّوا في أمرهم شرع ينفذ خطته، و«يجتهد في صرف الجيوش، وإسقاط أسماء الجنود من الديوان. فكانت العساكر في أواخر حكم المستنصر قريباً من مئة ألف، فلم يبق منهم سوى عشرة آلاف»[5].

وكبُرَ الأمر على المقريزي؛ إذ رأى أنه «دُهيَ الإسلام وأهلُه بلينه (يعني

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/١١٠. شذرات الذهب: ٥/٢٧٥.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/٢١٣.

(٣) تجارب السلف: ٣٥٧.

(٤) المصدر السابق، وهو نفسه «بايجونويان».

(٥) البداية والنهاية: ١٣/٢٠٣.

الخليفة) وإسناده الأمر إلى وزيره ابن العلقمي؛ فإنه قطع أرزاق الأجناد، واستجرَّ التتار»[1]. حتى انجرَّ مع هذا الرأي أدباء معاصرون؛ فطه حسين ورفاقه يعلقون على غضبة ابن العلقمي من قتل الشيعة فقالوا: «فأثار ذلك ابنَ العلقمي، مما دفعه إلى تشجيع التتار على غزوِ العراق، والاستيلاء على بغداد»[2]. ويتساءل صلاح الدين المنجد، وكأنه يحرص على إثبات التهمة عليه فيقول: «ولكن لماذا لم يُصب ابن العلقمي بسوء عندما دخل هولاكو بغداد كما أصيب أهل بغداد» والخليفة؟ ويجيبه الساعدي بأنه لم يكن الشخصَ الوحيد الذي نجا من سيف التتار. ناسين أن من عادة التتار أن يحتفظوا بعدد من الإداريين أحياء ليساعدوهم على إدارة البلاد بعد فتحها. وناسين كذلك أن الخليفة بخيل، وهو الذي قطع الأرزاق عن الجند، وأن ابن العلقمي وزير وليس قائد جند حتى يقطع الأرزاق عنهم، وأن قائد الجند نفسه لم يعترض على قطع الأرزاق، بل اعترض على صلته بالمغول إثر حملته على الشيعة، التي نحن بصددها.

ومن الذين اتهموا ابن العلقمي بالخيانة العظمى ـ غير من ذكرنا ـ: أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٦م) في «الروضتين»، وقطب الدين اليُونيني (ت ٧٢٦ هـ ـ ١٣٢٥م) في «ذيل مرآة الزمان»، وشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ ـ ١٣٤٧م) في «دول الإسلام»، وابن شاكر (ت ٧٦٤ هـ ـ ١٣٦٢م) في «وفيات الأعيان»، والسُّبكي (ت ٧٧١ هـ ـ ١٣٦٩م) في «طبقات الشافعية»، وابن تَغري بَردي (ت ٨٧٤ هـ ـ ١٤٦٩م) في «النجوم الزاهرة»، وغيرهم كثير.

أما الذين دافعوا عنه، وأخلوا ساحتَه فهم كثير أيضاً، منهم: نصير الدين الطوسي (ت ٦٨٢ هـ ـ ١٢٨٣م)، وابن العبري (ت ٦٨٥ هـ ـ ١٢٨٦م) في «تاريخ مختصر الدول»، وفضل الله العمري (ت ٧١٠ هـ ـ ١٣١٠م)، وعبد الرحمن الإربلي (ت ٧١٠ هـ ـ ١٣١٠م) في «خلاصة الذهب المسبوك»، وابن الغُوَطي (ت ٧٢٣ هـ ـ ١٣٢٣م) في «الحوادث الجامعة». وأكثرهم دفاعاً عنه ابنُ

---

(١) السلوك: ٤١٢/٢/١. ويعلق بروكلمان فيقول: «إن هولاكو ما كان في حاجة إلى أن يحرضه الشيعة» (تاريخ الشعوب: ٣٩٠).

(٢) المجمل: ٢٠٢.

الطِّقْطَقَى (ت ٧٠٩ هـ - ١٣٠٩م) في «الفخري في الأداب السلطانية».

والملاحظ أن هاتين الفئتين من المؤرخين متزامنتان، وكلاهما في مستوى علمي مرموق. غير أن الذين كانوا إلى صفه إمّا هم على مذهبه كالطوسي. وإما من أتباع الطوسي وله عليهم فضل كابن الغوطي الذي يعمل مع الطوسي في مرصد المغول. في حين أن الذين اتهموه بعضهُم لم يكن من أهل بغداد أو العراق، وبعضهم متأخر نقل عن متقدم من غير تمحيص.

ويدافع الساعدي[١] عنه فيقول: «لو سلمنا جدلاً بأن ابن العلقمي قد راسل التتار، ووعدهم بتسليم بغداد... فإن هناك أكثر من علامة استفهام: فمتى بدأت تلك المراسلات؟ أكانت إثر حادثة الكرخ؟ أم أنه راسلهم قبل تسلمه الوزارة سنة ٦٤٣ هـ = ١٢٤٥م»؟ أمّا عباس إقبال[٢] - وهو كالساعدي في المذهب - فيعتدل فيقول: «في حين أن المؤرخين الشيعيين كابن طباطبا (ابن الطقطقى) يرونه رجلاً مستقيماً بريئاً من هذه التهم الباطلة. وما قيل فيه إنْ هي إلا اتهامات». أما هندوشاه[٣] فيذكر أن مدة وزارته كانت خيراً على البلاد والعباد، فمدحه الشعراء، وأثنى عليه الفضلاء، وقدَّم له المؤلفون كتبهم كرضي الدين الصغاني اللغوي مثل «العُباب» و«مجمع البحرين»، وعز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد الذي شرح «نهج البلاغة» باسمه.

ويُرجع ابن الطقطقَى[٤] سبب انهيار الأوضاع، وهجوم المغول إلى ضعف الخليفة، فقد «كان خيراً متديناً، لين الجانب، سهل العريكة، عفيف اللسان... إلا أنه كان مستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعاً فيه. وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني والتفرج على المساخرة. كان أصحابه مستولين عليه، وكلهم جهال من أراذل العوام».

ثم يتجه نحو وزيره ابن العلقمي مدافعاً عنه: «إلا وزيره ابن العلقمي، فإنه

---

(١) مؤيد الدين: ١١٢.

(٢) تاريخ مغول: ١٨٦.

(٣) تجارب السلف (فارسي): ٣٦٠.

(٤) الفخري: ٣٢٦.

كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال، بصيراً بأمور الملك، خبيراً بأدوات الرئاسة، عالماً بالقوانين، عارفاً باصطلاح الدواوين، خبيراً بالحساب، حافظاً لمحاسن الأشعار، راوياً لطرائف الأخبار، جَلداً على ممارسة الأمور الديوانية، ملازماً من الغدوة إلى العشية...».

وكان للشعراء دور حساس في إبراز خيانة ابن العلقمي. ونحن نهتم للإشارات التاريخية التي ترد شعراً. فقد وصف شمس الدين الكوفي نكبة المستعصم وسوء نية ابن العلقمي بقوله:

يا عُصبةَ الإسلام نُوحي وانْدُبي حُزناً على ما تَمَّ للمستعصم
دَسْتُ الوزارةِ كان قبلَ زمانهِ لابنِ الفراتِ فصارَ لابنِ العلقمي![1]

كما أكد الشاعر ابن الوردي خيانته فقال:

وأتَى الخائنُ الخبيثُ بِمُغْلٍ طبَّقَ الأرضَ بَغْيُهم تَطبيقا
هكذا يَنصرُ الجهولُ أخاهُ ومن البرِّ ما يكونُ عُقوقا[2]

فهل صحيح أنه راسل هولاكو:

قبل الإجابة عن هذا السؤال، نستعرض عدداً من الملاحظات الدقيقة، بعضها ينقذه، وبعضها يدينه:

أ ـ ما ينقذه:

١ ـ كان ابن العلقمي كثير الحساد من رجال البلاط[3]. ولعل سبب ذلك استهانته بهم، وترفعه عنهم.

٢ ـ تألم ابن العلقمي كثيراً من الأوضاع المتردية العامة، فصور ألمه ببيتين:

كيفَ يُرجى الصَّلاحُ مِن أمرِ قومٍ ضَيَّعوا الحزْمَ فيه أيَّ ضَياعِ؟
فمُطاعُ الكلامِ غيرُ سَديدٍ وسَديدُ المقالِ غيرُ مُطاعِ[4]

---

(١) شذرات الذهب: ٢٧١/٥. الحوادث الجامعة: ٤٣٥. وانظر البداية والنهاية: ٢١٣/١٣ لاختلاف الرواية.

(٢) تتمة المختصر: ٢٨٣/٢.

(٣) الفخري: ٣٣٨.

(٤) الفخري: ٣٤.

٣ ـ إن كثرة الحساد وهذا الشعر دليلان على أنه مقهور حقاً، لا كلمة مطاعة له، فكيف يمكنه أن يحل الجيش؟ لكن المقهور أحياناً يُقدم على أمور سلبية.

٤ ـ الغزو المغولي بدأ قبل بروز شخصية ابن العلقمي. وكانت خطة الهجوم مدبرة قبل جلوس المستعصم نفسه على كرسي الخلافة.

٥ ـ لعل المغول أشاعوا نبأ هذه العلاقة بين هولاكو وابن العلقمي لخلق روح النفرة بين الحاكم والمحكوم، وبين الحاكمين أنفسهم، وبين فئات الشعب.

ب ـ ما يدينه:

١ ـ سنة المغول استخدام رجالات بارزين من الدولة التي ينوون حربها. واعتبار الخيانة والحرب النفسية لديهم من الأسلحة المجدية. ولا سيما حينما يلقون الرجل المناسب.

٢ ـ إذا كان بريئاً حقاً، فلماذا يمجده الشيعة إلى هذا الحد؟ ولماذا يدافعون عنه؟ بل لماذا وجهت إليه أصابع الاتهام ولم توجه إلى غيره؟

٣ ـ يروى أنه لم يذكر اسم هولاكو في حضرة الخليفة إلا بلقب السلطان، ويبدي إعجابه بقوته. وإذا ما ذُكر بلاطه وَسمه بالدركَاه السلطانية[١].

٤ ـ يروي المؤرخون ـ وفيهم السيوطي ـ أنه «كاتبَ التتار، وأطمعهم في البلاد، وسهَّل عليهم ذلك. وطلب أن يكون نائبهم. فوعدوه بذلك، وتأهبوا لقصد بغداد»[٢].

ولماذا يكون نائبهم، وهو حالياً وزير؟

٥ ـ إن حادثة الكرخ لا شك فيها، ويذكرها المؤرخون كافة. كما أن غضبة ابن العلقمي واقعة أثبتتها الأحداث. ويروى أنه صب جام غضبه في رسالة بعث بها إلى «ابن صلايا»[٣] نائب الخليفة في إربل، وحكى له الحادثة والألم يعتصره. تُرى ألم يكتفِ بالرسالة؟ لقد أوضح فيها صراحة بسعيه! اقرأ ما كتب، ولاحظ «قد» التحقيقية المكررة، وانتبه إلى حديث الجيوش والجنود:

---

(١) درگاه: البلاط (فارسية).

(٢) تاريخ الخلفاء: ٤٢٩.

(٣) هو تاج الدين محمد بن نصر أمير المكارم الهاشمي العلوي.

«... قد نُهب الكرخ المكرَّم، وقد دِيس البلاط النبوي المعظم، وقد نُهبت العترة العلوية، واستؤسرت العصابة الهاشمية، وقد حسُنَ التمثيل بقول شخص من غزية:

أمورٌ تضحك السفهاءُ منها ... ويبكي من عواقبها اللبيبُ

فلهم أسوة بالحسين عليه السلام، حيث نُهب حريمُه، وأُريق دمُه...».

ومن الرسالة كذلك:

«وزيرٌ رضِي من حُكمهِ وانتقامهِ ... بطيٍّ رقاعٍ حشوُها النظمُ والنثرُ

كما تسجعُ الورقاءُ وهْيَ حمامةٌ ... وليس لها نَهيٌ يُطاعُ ولا أَمْرُ

فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قِبلَ لهم بها، ... ولنخرجنَّهم منها أذلة، وهم صاغرون:

ووديعةٍ من سِرِّ آلِ محمدٍ ... أودعْتَها أن كنتَ من أُمَنائها

فإذا رأيتَ الكوكبينِ تقارَنا ... في الجَدْي عند صباحِها ومسائها

فهناك يؤخذُ ثارُ آلِ محمدٍ ... وطِلابُها بالتُّرك مِن أعدائها

وكُنْ لما أقول بالمرصاد...»[1].

وليس بعد هذا التصريح ما ينقذه من وصمة الخيانة العظمى[2]. وسواء صحَّت التهمة أو لم تصحَّ فإننا نتهمه ونتهم غيره من رجال البلاط بتقصيرهم في الدفاع عن البلاد، لأنهم المسؤولون حقاً عن مستقبل العراق. فما دام الخليفة ضعيفاً ومشغولاً بتفاهات الأمور، وما داموا تعهدوا بإدارة البلاد، فلماذا لم يستعدوا الاستعداد اللازم؟ لماذا لم يحثوا العرب والمسلمين على «الجهاد المقدس»؟ وابن العلقمي أول المتهمين لأنه عربي (على الأرجح)، ولأنه وزير الدولة الأول.

ونحن إذا أيقنا بأنه اتصل بهولاكو وتواطأ معه، فلم يكن أول من اتصل به، كما لم يكن الوحيد من العرب والمسلمين. فالذين اتصلوا بالمغول، ودعوهم إلى فتح العراق كثيرون، نذكر منهم:

١ ـ الملك الناصر الأيوبي: فهو حين عجز عن الاستيلاء على مصر أنفذَ ابنَه

---

(١) تتمة المختصر: ٨٢/٢. طبقات الشافعية الكبرى: ١١١/٥.

(٢) يؤكد المستشرقون أن الوزير راسل هولاكو وهو على قلاع الإسماعيلية عقب خصامه مع الدويدار الصغير. انظر: A History of the Mongols: 111, 115 .

الملك العزيز إلى هولاكو يطلب منه نجدة لمساعدته على فتح مصر ومحاربة المماليك. وأجابه هولاكو إلى طلبه. غير أن المماليك البحرية الذين كانوا بدمشق في ذلك الوقت، لما سمعوا بخبر النجدة ساروا إلى الملك المغيث بالكرك، وحبوا إليه أخذ مصر. فسار بعساكره سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م. فالتقاهم «قطز» في عسكر مصر فهزمهم، وفرَّ المغيث عائداً إلى الكرك[١].

٢ - كان الأرمن، بعلَّة عدائهم للمسلمين، يشجعون المغول على احتلال بغداد، ليتسنى للصليبيين الانتصارُ على بلاد الشام[٢].

٣ - مقدَّم الإسماعيلية أرسل إلى المغول يعرفهم بضعف جلال الدين، وبهزيمته أمام علاء الدين كِيقُباذ صاحب بلاد الروم، ويحثهم على قصده عُقيب الضعف. ويضمن لهم الظفر[٣].

٤ - أرسل سلطان حلب وزيرَه زين الدين، وحمَّله رسالة وتحفاً إلى منكو قاآن. كما راسل هولاكو سراً حين كان في إيران. وحين كشف أمراء الشام تهمته قصدوا حربه لكنه هرب. ويذكر رشيد الدين أنه زار هولاكو فمنحه ابنة ملك خوارزمشاه فتزوجها[٤].

٥ - اتصل به بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل، وحاصر معه بغداد.

٦ - كاتبه المستعصم نفسه، ودعاه لإنقاذه من سلطان السلاجقة. ولهذا السبب لم يكن المستعصم يصدق بأنه سيهاجمه، وكان يقول لوزيره: «هم أصدقاء الخلافة»[٥].

٧ - نصير الدين الطوسي. ولعلنا نتشدد باتهامنا إياه أكثر من ابن العلقمي. فقد كان الطوسي مسموع الكلمة عند هولاكو، ورافقه سنتين قبل فتحه لبغداد. وهو أحد من شهد جريمة قتل الخليفة البشعة، وأول المشجعين على فتح بغداد وقتل

---

(١) المختصر: ١٩٥/٣. السلوك: ٤١٠/٢/١. دولة الظاهر بيبرس: ٣٥.

(٢) كان «هيثون» ملك الأرمن يراسل منكو قاآن، ويشجعه على حرب المسلمين في العراق.

(٣) Baghdad The City of Peace, 136.

(٤) الكامل: ٤٩٥/١٢.

(٥) جامع التواريخ: ٣٠٥.

المستعصم. بل إنه خان الإسماعيلية الذين احتضنوه في قلعتهم أكثر من ربع قرن، قبل أن يخون الخليفة. وقد ظل حياً ربع قرن بعد تدمير بغداد وحلب. كان همه جمع الكتب التي تنفعه لعلمه، وإنقاذ أرواح العلماء الذين رأى فيهم خيراً لبحوثه. أما من عدا ذلك فليذهبوا إلى الجحيم تحت سيوف المغول الفتاكة.

٨ ـ عطا ملك الجويني الذي كان رئيس ديوان هولاكو، ومرافقه حتى فتح بغداد، وحاكمها بعده. ومؤرخ التدمير المغولي في كتابه «تاريخ جهَانگشاي».

٩ ـ الناصر لدين الله اتُّهم بأنه راسل جنگيزخان، جد هولاكو، يشجعه على تخليصه من هجوم الخوارزميين على العراق.

١٠ ـ يرى بعضهم أن الإيرانيين هم الذين شجعوا المغول على مهاجمة العراق، ثأراً لمجد قديم أضاعه لهم العرب، ليمحوا بذلك الهجوم آخر قوة عربية[١]. ولهذا لم نجد مؤرخيهم يصفون المغول بالعنف.

ونحن، سواءٌ اتُّهمنا ابن العلقمي وغيره أو لم نفعل، وسواء أكشف التاريخ فيما بعد ما كان غامضاً أو لم يكشفه، فإننا نعلم أن هولاكو ـ كما ذكرنا ـ سار بأمر منكو قاآن من أقصى الشرق: لمحاربة الإسماعيلية، وفتح العراق، والشام ومصر. أما الخيانات فإنها تدل على ضعف النفوس وخَور العقول. والخيانة لا تكون أصلاً ما لم تكن نية الحرب مبيَّتة. والذي أثبته التاريخ من تخطي المغول للعراق، ومتابعة زحفهم نحو الشام، وإصرارهم على فتح مصر نتيجة حتمية تؤكد رغبة المغول بالقتل والتدمير في المشرق كله.

نهاية ابن العلقمي:

بعد أن تمَّ فتح بغداد سلم هولاكو البلدَ إلى ابن العلقمي، وأحسن إليه وحكَّمه. وسلم شحنة بغداد إلى علي بَهادُر. فمكث الوزير في منصبه شهوراً ثم مرض ومات في جُمادى الآخرة سنة ٦٥٦ هـ[٢]. بينما يرى السيوطي أن ابن العلقمي صار معهم في صورة بعض الغلمان، ومات كمداً[٣]. وينهي ابن كثير

---

(١) تاريخ مغول: ١٨٨.

(٢) الفخري: ٣٣٨. تجارب السلف: ٣٦٠.

(٣) تاريخ الخلفاء: ٤٣٥.

حديثه عن ابن العلقمي حديث الشامت بموته فقال[1]:

«وقد ردَّ كيده في نحره، وأذلَّه بعد العزة القعساء... بعد ما كان وزيراً للخلفاء. واكتسب إثم مَن قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال». ويَروي أن امرأة «رأته وهو في الذل والهوان، وهو راكب في أيام التتار بِرذَوناً وهو مرسم عليه، وسائق يسوق به ويضرب فرسه. فوقفت إلى جانبه وقالت: يا بن العلقمي، هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت هذه الكلمة في قلبه. ومات وله من العمر ثلاث وستون سنة».

كما يُروى أنه هولاكو أهمله، ولم يعينه نائباً على بغداد[2]، فمات غماً وتسلم ابنه بعده منصبه، إلا أنه لحق بأبيه بعد حين.

بغداد بعد الغزو:

بعد أن قتل هولاكو الخليفة وولديه وكل من كان معه من أهله والأقربين، أحس بأنه تأذى من عفونة جو بغداد وما يحيط بها. فرحل إلى خانقين[3]. ومن ثم تراجع إلى بعض أراضي خراسان[4]. غير أنه وقبل أن يرحل وزع الرجال على الأعمال؛ فعين ابن العلقمي وزيراً، وفخر الدين الدامغاني صاحباً للديوان، ونظام الدين البَنْجْدِهي قاضي القضاة[5]، وهي نفسها وظائفهم السابقة. يساعدهم في الإدارة عدد من أعيان المدينة كنجم الدين ابن الدَّرْنوس[6]، وابن الدَّوامي، وابن المُخَرمي[7]. كما عين علي بَهادُر شحنة بغداد. وأمرهم بأن يدفنوا الجثث، ويعيدوا إعمار البلدة. يساعدهم في ذلك «إيلغانويان» و«قرابُغا»، ومعهما ثلاثة آلاف من

---

(١) البداية والنهاية: ٢٠٢/٣ و٢١٣.

(٢) شذرات الذهب: ٢٧٠/٥. تتمة المختصر: ٢٨٩/٢.

(٣) تاريخ مغول: ١٨٣.

(٤) الحوادث الجامعة: ٣٢٧. وقد أخطأ ابن الغوطي إذ قال: «ومن هناك أمر بالتخلص من الخليفة». بينما حدد الطوسي مقامه في قريتي «وقف» و«جلابية»، وفيهما قتل الخليفة.

(٥) الحوادث الجامعة: ٣٣١.

(٦) الاسم من الجويني، والكلمة غير مقروءة عنده، اقترح المحقق «ابن دربوس» (تاريخ جهانگشاي: ٢٩٢/٣).

(٧) يروى أن لعنة الخلافة لحقت بهؤلاء جميعاً، فماتوا الواحد تلو الآخر!.

فرسان المغول[1]. كما أنه أكرم جلال الدين بن الدويدار الصغير، فعينه على بغداد، وأطلق يده فيها[2].

وفي أثناء الحصار قدم بعض العلويين والفقهاء من «الحلة»، والتمسوا منه أن يعين لهم شحنة. فعين لهم طلبهم، وأرسل أحد قواده وهو «بوقا تيمور» إلى الحلة، ليرى مدى إخلاص الشعب له. فاستقبله السكان ورحبوا به، وأقاموا الأفراح بقدوم القائد.

أما «واسط» فإن أهلها لم يدخلوا في الطاعة. فاستولى عليها، وشرع في القتل والنهب. بينما رجاه الأمير «سيف الدين البِيتَكجي» أن يرسل مئة مغولي إلى «النجف»، ليحافظوا على مشهد أمير المؤمنين علي، وعلى أهل تلك البلدة، فلبى لهم الطلب[3].

كما أرسل الخزائن والأموال من بغداد إلى آذربايجان بإشراف الملك ناصر الدين بن علاء الدين صاحب الري. وكل ما غنمه من أموال الملاحدة والروم والكرج والأرمن واللور والأكراد. وكلف الملك مجد الدين التبريزي ببناء عمارة عالية شديدة الإحكام على جبل يقع على ساحل بحيرة «أورْمية» (رضائية اليوم)، ثم صهر الكنوز جميعاً، وجعلها سبائك ووضعها هناك. وأرسل بعضاً من تلك التحف والأموال إلى منكو قاآن مع بشارات الظفر، وحمَّلها ابنه «هولاچو»[4].

فلم يكتف هولاكو بأن ضرب بغداد، وقتل أهلها، وأحرق كتبها، ونهبها. بل نقل عاصمته من بغداد إلى مَراغة (قرب تبريز). وقد اختارها لسلامة هوائها، ولقربها من الشام ومصر. وإلى هناك جاءته الوفود المهنئة وعلى رأسهم: بدر الدين لؤلؤ، والأتابك سعد، والسلطان عز الدين السلجوقي، وأخوه ركن الدين[5]. فتحولت بغداد من أكبر عاصمة في العالم إلى بلدة تابعة لحاكم أجنبي جائر.

---

(١) جامع التواريخ: ٢٩٥.

(٢) جامع التواريخ: ٣٣٩.

(٣) تاريخ جهانگشاي: ٢٩٢/٣. جامع التواريخ: ٢٩٦.

(٤) جامع التواريخ: ٣٠٠.

(٥) تاريخ مغول: ١٨٩. يرى دِهْخدا أنه أمر ببناء قصره في جزيرة وسط البحيرة (لغت نامه ـ هولاكو).

لكن الإيلخانيين لم يتركوا بغداد، بل كانوا يزورونها لتفقد أحوالها وأحوال الرعية فيها. فأباقا مثلاً: زارها عدة مرات. وفي سنة ٦٧٢ هـ - ١٢٧٣م دخلها ومعه الأمراء ونصير الدين الطوسي. فأمر بالإحسان إلى سكانها، وتخفيف الضرائب عنهم. كما أنفذ «كيخاتو» أميرين هما «ساطي» و«بكتمر» إلى بغداد لتصفح أحوالها والإشراف على مالياتها[١]. غير أن بغداد ظلت تعيش خاملة في الظل بعد أن زال عنها بريقها السياسي وألقها العلمي[٢].

ولم يتوقف هولاكو في مراغة طويلاً، بل إنه سرعان ما أمر بالتوجه إلى بلاد الشام، منتهزاً فرصة أوضاعها المتردية، تدفعه نشوة النصر إلى التقدم والمتابعة.

---

(١) الحوادث الجامعة: ٣٧٥ و٤٦٩.

(٢) يقول Sykes : «وكانت ضربة موجهة لحضارة الإسلام. وبعد ستة قرون من بداية الإسلام تحطمت كنوز الفنون الأدبية، وقتل رجال العلم. ولم تنهض المدينة بعد ذلك أبداً، وتراجعت اللغة العربية» A History of Persia, 97 .

الفصل الخامس

الأوضاع السياسيةوالعامة في الشام ومصر



الأوضاع السياسية
إبان الغزو المغولي

تعمدنا جمع القطرين معاً، لأنهما كانا يُحكمان معاً منذ أيام الطولونيين والإخشيديين، واشتدت الوحدة بينهما أيام الأيوبيين والمماليك، ولا سيما في حربهما ضد الصليبيين الفرنجة، ومن بعدِهم المغول.

وسنرى ـ في حديثنا ـ كيف أن الحكومات كانت ترغب في جمع القطرين ووحدة الصف. كما سنرى زوال بعض الإمارات قبيل الزحف المغولي وفي آنائه. وعلى الرغم من أن الخطر المغولي المرعب بدأ يهدد آسية كلها منذ مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، فإن النزاع القائم بين سلاطين الشام والجزيرة الشامية وبلاد الروم ومصر كان قائماً. بل إنهم كانوا يوقعون الخصام فيما بينهم عامدين.

حكومات الأطراف:

بينما كان الأيوبيون يبرزون إلى الميدان، وهم بين القوة والضعف، كانوا يمتصُّون الأراضي التي يحتلها بقايا الأتابكة بأطراف الشام:

فأتابكة الجزيرة حكموا من ٥٧٦ ـ ٦٣٩ هـ/١١٨٠ ـ ١٢٤١م. ثم دخلت الجزيرة تحت السيادة الأيوبية منذ ٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠م.

وأتابكة سنجار حكموا من ٥٦٦ ـ ٦١٦ هـ/١١٧٠ ـ ١٢١٩م. ثم دخلت المنطقة تحت السيادة الأيوبية سنة ٦١٧ هـ.

في حين أن الأُرْتُقيين في ماردين استمر حكمهم منذ ٥٠٠ هـ ـ ١١٠٦م إلى ٨٠٩ هـ ـ ١٤٠٦م. وكان لبعضهم جولات مبكرة في حرب الصليبيين[1].

---

(١) مثل نجم الدين إيلغازي بن أرتق، الذي كان صاحب بيت المقدس سنة ٤٨٨ هـ ـ ١٠٩٥م. انظر: الكامل، أحداث سنة ٤٨٨ و٤٨٩. الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب.

وحكموا حلب ومَيَّا فارقين والقدس حيناً. ومع امتداد حكمهم الطويل لم يتركوا بلادهم للأيوبيين، بل تبعوهم في الإدارة بدءاً من «ناصر الدين أرتق أرسلان» سنة ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠م. أما باقي الأناضول فكان فيه سلاجقة الروم والبيزنطيون.. وكانا في حرب طاحنة فيما بينهما. إلى أن دخل النفوذ المغولي آسية الصغرى منذ ٦٦٠ هـ - ١٢٦١م، واستمر أربعين سنة، ثم أخذ ينحسر[١].

هذا جانب من الحكومات المنقسمة عن جسم الإمبراطورية العربية، والتي تحيا حياة ضعف وقلق. إضافة إلى صغر رُقَعها، وعيش كثير منها على الثغور الشامية في مواجهة المغول والبيزنطيين. لكنها كانت - مع الأسف - ضعيفة جداً، لا تحتمل إغارة جانبية واحدة من إغارات المغول الوحشية.

الأيوبيون:

خلف الأيوبيون - على حكم الشام - الزنكيين والأتابكة. ومؤسس هذه الأسرة صلاح الدين بعد وفاة نور الدين زنكي[٢]. كان أقوى بطل في أسرته؛ فقد امتاز عهده بوحدة الصف العربي، الممتد من الموصل إلى مصر. وكان يستعين بأخيه العادل في ولاية مصر، لانشغاله في أوضاع الشام داخلياً، وفي الجهاد ضد الصليبيين. وبدت الشام في عهده مزدهرة سياسياً وأدبياً.

ومع أن صلاح الدين موحِّد البلاد الشامية والمصرية، فإنه عمل بنفسه على تمزيقها وبث روح الفوضى فيها، فقبل أن يتوفاه الله سنة ٥٩٠ هـ - ١١٩٣م وزع الولايات على أبنائه وأخيه وأبناء أخيه، وكأن البلاد ميراث. ومن هنا برز الشقاق في الأسرة الأيوبية[٣]، وعددها المشهور ثمانية أمراء.

وقام المتنافسون يسعى كلٌّ واحد ضد الآخر... ومال بعضهم إلى التواطؤ مع الفرنجة أو إلى إقامة علاقات سلمية معهم. وسنرى كيف أن بعضهم مالأ المغول وحارب معهم ضد أهليهم وأوطانهم في سبيل الحفاظ على عروشهم الصغيرة.

---

(١) وازدادت قوة الدولة العثمانية بعد سنة ٧٤٠ هـ - ١٣٣٩م. حيث أخذوا يقتطعون من أملاك الدولة الإيلخانية والأمراء المسلمين الصغار.

(٢) الروضتين: ١/١٨٨.

(٣) A History of the Crusades, vol 12, P 693.

واستطاع أخوه العادل أن يضم معظم الإمارات الأيوبية الصغيرة إليه[١]، وكاد يجعلها كما كانت أيام أخيه لكنه سرعان ما وقع بالخطأ الذي وقع به اخوه، إذ وزع أملاكه على أولاده[٢]. مما فتح الطريق للفرنجة كي يتوسعوا في الشام، وتمتد أطماعهم إلى مصر. وبالفعل باشروا بدمياط سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨م[٣]، ولم يخرجوا منها إلا بعد ثلاث سنوات، وبصعوبة.

وهكذا لاحظنا أن موقع الأيوبيين وزمان حكومتهم مهم جداً في مجابهة الحربين: الصليبية والمغولية. فهم أقرب إلى العروبة والإسلام من خوارزمشاه، لوجودهم على أراض عربية، ولأنهم أحفاد صلاح الدين. لكنهم تفرقوا وتناحروا. كما استعانوا بفلول الجنود الخوارزميين المنهزمين[٤]. فكانوا دماراً عليهم وعلى البلاد... وماذا ينفع جندي فرَّ من أرض وطنه خاسراً... في أرض غير أرضه، ووطن غير وطنه؟

فمن البديهي أن تكون قوة الأيوبيين حين وصول المغول إلى الشام منهارة، فقد كان بعضهم يفر منهم كالفئران؛ مثل الملك المنصور صاحب حماة. وبعضهم سار في ركابهم، وحارب تحت رايتهم في معركة عين جالوت المشرِّفة، وهما اثنان: الأشرف موسى والملك السعيد. وبعضهم راسلهم خوفاً منهم، وهم على أبواب بغداد، وهو الملك الناصر.

وبدخول المغول أرضَ الشام زال قسم كبير من بقايا الأسرة الأيوبية. ولم ينجُ منهم إلا أسرتا حماة وحمص[٥]. بينما أجهز المماليك على من تبقى منهم في مصر.

على أن الواجب يضطرنا إلى التريث لدى اثنين من أبناء الأسرة الأيوبية

---

(١) تاريخ سورية: ٢٦٤/٢.

(٢) شفاء القلوب: ٢٢٨. وكان عددهم سبعة عشر أو أكثر.

(٣) التاريخ المنصوري: ٧٥.

(٤) فقد اعترف الملك المعظم بجلال الدين خوارزمشاه ضد الكامل. كما دعاه الأشرف للاستيلاء على ديار بكر. فاضطر الكامل إلى حرب الخوارزميين بالاتفاق مع كيقباذ السلجوقي. انظر: Gibb, 699 and 702.

(٥) تاريخ سورية: ٢٦٤/٢.

بشيء من التفصيل؛ لعلاقة الأول بتأسيس دولة المماليك، وبالتالي معركة عين جالوت. ولعلاقة الثاني بحرب المغول مباشرة، لأنه كان أشبه بالسلطان خوارزمشاه أيام جنگيزخان، وهما:

١ ـ الصالح أيوب.

٢ ـ الملك الناصر.

الصالح أيوب (٦٣٨ ـ ٦٤٧ هـ /١٢٤٠ ـ ١٢٤٩م):

حكم الملك الكامل مصر والشام حكماً دل على قوة وهيبة من ٦١٥ ـ ٦٣٦ هـ/١٢١٨ ـ ١٢٣٨م. وكان له ولدان: الصالح، والعادل الثاني.

كان الصالح نجم الدين أيوب الابن الأكبر. لكن أباه أقصاه عن مصر خوف احتمال تآمر المماليك ضده، فمنحه حكم الجزيرة وما بين النهرين (شمالاً). فعانى الصالح أيوب هناك كثيراً من فلول الخوارزميين الذين لجؤوا من الشرق. كما عانى من أقربائه الذين كانوا يعرقلون مساعيه لتوحيد البلاد[١].

أما الابن الذي تركه الكامل معه في مصر فهو العادل الثاني[٢]. وحين توفي الكامل سنة ٦٣٦ هـ/١٢٣٨م أوصى للعادل بالحكم. فما كان من الصالح ـ على عادة الأيوبيين ـ إلا أن ثار عليه. فقدم إلى دمشق ثم دخل مصر سنة ٦٣٨ هـ ـ ١٢٤٠م ليطرد أخاه منها بمساعدة مماليكه الأتراك.

وقد امتاز عهد الصالح بالقوة وتوحيد البلاد، بعد أن استعاد دمشق من عمه إسماعيل الذي استولى عليها بعد أن تركها الصالح إلى مصر. كما تسامح عمه مع الصليبيين كثيراً.

باشر الصالح منذ توليه حكم مصر والشام في تأليف جيش من المماليك الأتراك، وجعل مركزهم «الروضة» قرب القاهرة[٣]. وجرت في عهده تحالفات عديدة ضده، ولم يكن معه في الساحة سوى أمير حماة. غير أنه استطاع أن يدحر

---

(١) Gibb, 707.

(٢) الحوادث الجامعة: ١٤٠.

(٣) سيأتي الحديث عن نشأة المماليك بعد.

خصومه كلهم، فيتفرغ لتنظيم بلاد الشام، وإنشاء المدارس والخانقاهات فيها.

وبينما كان الصالح أيوب في الشام يحاول استرجاع حمص دخل الفرنجة دمياط سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧م بقيادة لويس التاسع[١]. لكنه عاد مريضاً وتوفي في مصر سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩م قبل أن ينتهي من حرب لويس[٢]. ومن حسن حظ المرحلة التاريخية قومياً أن وُجد إلى جانبه مملوكته «شجر الدر»[٣] الذي كتمت أمر موته على الجنود حتى لا يعتريهم الخور والخذلان، وباشرت مع المماليك الأشداء المعركة البطولية، التي أسفرت في النهاية عن أسر لويس وقتل نصف جيشه وانتصار المسلمين[٤]. «وقد وقف الشعب مع الجيش ضد الصليبيين، وقام رجال الدين يخطبون في الجنود والناس خطباً حماسية جهاديه، ومنهم الشيخ المراكشي أحمد البدوي، والذي كان له أثر عميق في إلهاب حماسة الجنود والرفع من معنوياتهم»[٥].

كان للملك الصالح ولد اسمه «المعظم تُورانْشاه»، وكان أميراً على حصن كيفا[٦]. فاستدعته زوجة أبيه شجر الدر على جناح السرعة، بينما استمرت في قيادة البلاد. لكن الفرق شاسع جداً بين الأب وابنه، كما بين الثريا والثرى. فسرعان ما شرع في إزاحة مماليك أبيه عن مواقعهم العسكرية، مع أنهم في حال حرب، ويؤدون دورهم خير أداء. وعين مكانهم أصدقاءه، وكانوا أقل خبرة من المماليك. حتى إنه تطاول على شجر الدر، تلك التي كان لها الفضل في تهيئة العرش له، وفي إدارة الوضع العسكري.

فالتف المماليك، وقرروا التخلص من ابن سيدهم الذي لم يثبت كفاءة في إدارة البلاد، ولم يقدرهم، وفضل عليهم من لا خبرة لهم، فتخلصوا منه بعد أقل من

---

(١) يذكر مؤلف حسن المحاضرة: ٣٥/٢ أن الفرنج هجمت على دمياط سنة ٦٤٧ هـ.

(٢) تاريخ مغول: ١٩٣.

(٣) اسمها كما ذكرنا من غير تاء. وكذا كتبها المؤرخون القدماء عدا المقريزي، فانساق معه المحدثون. كما أن الغربيين يذكرونها بغير تاء. انظر A History of Egypt, 236 .

(٤) Ibid.

(٥) Gibb, 711. ويؤكد Lane - Poole في الصفحة ٢٤١ أن الأيوبيين كانوا على علاقة طيبة مع النصارى العرب والأقباط. ولهذا لم يؤازروا الفرنجة في حروبهم، مثل نصارى الشام.

(٦) السلوك لمعرفة الملوك: ٣٦٩/٢/١. وحصن كيفا في ديار بكر.

عام، وذلك سنة ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠م. واستولوا على مقاليد الحكم خشية أن يثأر أحد الأيوبيين لقتله. وبقتل تورانشاه انفصلت مصر عن جسم الوحدة المصرية الشامية.

وصدق حدسهم، إذ سرعان ما تطلع أبناء الأسرة الأيوبية في الشام نحو مصر[١]. ليجعلوها تابعة لهم، بعد أن كانت الشام تابعة لمصر. ولا سيما حين جلست على عرش مصر مملوكة أرمنية الأصل، يحيط بها مماليك ابن عمهم.

وقد تولى زعامة الأسرة الأيوبية الناصر يوسف صاحب حلب (وسيأتي ذكره). فاستولى على دمشق وبعلبك[٢]، وأخذت أنظاره تتطلع إلى مصر. فقطعت عليه شجر الدر طريق التقدم بزواجها من كبير المماليك «عز الدين أيبك»، وتنازلت له عن الحكم. لكن المماليك لم يقبلوا بأن يحكمهم خشداشهم، فثاروا عليه، وأجبروه على تعيين أحد أبناء الأيوبيين من أمراء اليمن، وهو أحد أحفاد الكامل، واسمه «الأشرف موسى الثالث»، وعمره ست سنوات[٣]، على أن يصبح عز الدين أتابكة[٤].

وعاد الناصر يوسف يطالب بدم ابن عمه تورانشاه، ويحث الأمراء الأيوبيين على مؤازرته لحرب المماليك، واستعادة العرش السليب. وبالفعل اتجه نحو غزة، فقابلته المماليك البحرية بقوة كبيرة، فاضطر الناصر إلى الفرار سنة ٦٤٩ هـ - ١٢٥١م، وإلى قتله على يد هولاكو (كما سيأتي). وبذلك انتهى عهد الأيوبيين في مصر، وبدأ عهد المماليك.

ولما لم تنجب شجر الدر ولداً لعز الدين أيبك، فقد رغب في الزواج من ابنة صاحب الموصل. وحين علمت بذلك قتلته سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧م. ما لبثوا أن قتلوا شجر الدر أيضاً[٥]. وهكذا زالت آخر بارقة أمل لحكومة الأيوبيين في مصر،

---

(١) A History of Egypt, 256.

(٢) السلوك لمعرفة الملوك: ١/٢/٣٦٩.

(٣) Gibb, 712.

(٤) تاريخ مغول: ١٩٣.

(٥) تاريخ الشعوب: ٣٦٤. قتلها المماليك بسعاية زوجة أيبك الأولى.

لتقدم جحافل الجيش المغولي المدمر. فاستعد أمراء الأيوبيين للهرب، بينما شغل قطز بتهيئة الجيش والشعب لمعركة المصير في عين جالوت سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م.

الناصر يوسف:

رأينا أن الأيوبيين كانوا يحكمون الجزيرة، والشام، ومصر. وأهم مواقعهم: مَيّافارقين، كيفا، الكرك، حلب، حماة، حمص، دمشق، مصر. ولكل موقع أمير، ولو أنهم كانوا متفقين لاستطاعوا صد غارة هولاكو بسهولة. كان الناصر أمير حلب أقواهم جميعاً، وقد حكم من ٦٤٠ - ٦٥٩ هـ/١٢٤٢ - ١٢٦٠م[١]. لكن قواه خارت لدى سماعه صهيلَ خيل المغول تحيط بمدينة بغداد، وتهاوى بعده الأمراء الصغار.

فهو يوسف بن محمد بن غازي... بن صلاح الدين. ولد بقلعة حلب سنة ٦٢٧ هـ - ١٢٢٩م. وكان أبوه العزيز محمد حاكم حلب، وحين توفي سنة ٦٣٤ هـ - ١٢٣٦م خلفه ابنه الصغير وعمره سبع سنوات[٢] حاملاً اسم جده ولقبه «يوسف صلاح الدين». وحكم تحت وصاية جدته صفية خاتون أخت الكامل. وقام بتدبير الدولة الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني وابن القفطي وغيرهما، على أن يكون الأمر لجدته. ثم حين تسلم الحكم بنفسه سيطر على البلاد[٣]. واهتم بالشعب، فبنى المدارس والرباطات، ورعى الشعراء. وكان هو نفسه شاعراً وراوية للنوادر. وكان يحب حلب كثيراً، وله فيها شعر وصفي جميل، من ذلك:

سقَى حلبَ الشهباءَ كلَّ مُرِنَّةٍ سحائبُ غيثٍ نَوؤُها ليس يقلعُ
فتلك رُبوعي لا العقيقُ ولا الحِمَى وتلك دِيـــاري لازَرودُ ولَعْلعُ[٤]

فكر الناصر في إعادة مجد جده، في جمع بلاد الشام تحت رايته، وبالتالي ضم مصر إليها. لكنه قبل أن يتقدم كثيراً في خطوات الوحدة بلغه ما فعله المغول في بغداد، وما ارتكبوه من فواحش وتدمير. فحاول أن يسالم هولاكو، فأرسل إليه هدية

---

(١) تاريخ مغول: ١٩٢.

(٢) Gibb, 704.

(٣) فوات الوفيات: ٣٦١/٤.

(٤) فوات الوفيات: ٣٦٣/٤. النجوم الزاهرة: ٢٠٤/٧. كما له شعر في رثائها.

برفقة ولده «الملك العزيز»[1]. ويقال: بل إن هولاكو هو الذي استدعاه، فلم يذهب، بل أرسل إليه ولده الصغير. فغضب هولاكو من الناصر وقال: «أنا أسير إليه بنفسي»[2].

وأياً كان الأمر فإن الناصر سقط وطنياً حين أرسل إليه ابنه وهداياه لتقديم واجب الولاء والطاعة[3]. ويروي المقريزي أن العزيز طلب من هولاكو على لسان أبيه نجدة ليساعده على فتح مصر من المماليك[4]، وهذا ما نرجحه أيضاً. ولعل هذا الخبر الذي طار بين الناس جعل المماليك البحرية في دمشق يهربون إلى ملك الكرك. ويتابع المقريزي روايته ـ التي انفرد بها ـ بأن هولاكو أرسل نجدة (؟) إلى الناصر بدمشق. فكتب قطز إليه ـ وقد خافه! ـ يترفق فيه ويقسم له بأنه لا ينازعه الملك ولا يقاومه، وبأنه نائبه في الديار المصرية. فلما قدم كتاب قطز على الناصر اطمأن من ناحية المماليك.

ولكنا إن عدنا إلى نص رسالة هولاكو للناصر التي حملها ابنه العزيز، دلتنا على عدم إرسال نجدة، وعلى ما يوجب تخوفه من هولاكو السفاح: «... أجب دعوة ملك البسيطة تأمنُ شره، وتنال بره. واسع إليه برجالك وأموالك، ولا تعوّق رسولنا. والسلام».

وقال في الرسالة أيضاً: «... الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب أنّا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**قالت إن الملوكَ إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون**﴾[5]. واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم، واستوجب منا العدم».

---

(١) السلوك: ١/٢/٤١٥.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/٢١٥.

(٣) Gibb, 714.

(٤) السلوك: ١/٢/٤١٠.

(٥) الآية: ٣٤/ النمل: ٢٧.

وقد روت كتب التاريخ أن ثلاث رسائل وصلت إلى الناصر من هولاكو[1]. بعضها إلى حلب، وبعضها إلى دمشق. ونرجح أن الناصر أدرك الزلة التي هوى فيها بمراسلته هذه، والتي لن يغفرها التاريخ له. وقبل أن يتجه هولاكو نحو حلب هرب الناصر إلى دمشق. ووقع بين نارين؛ نارِ الهرب من المغول، ونارِ الرغبة في الوصول إلى مصر ليحكمها.

ولما بلغ الناصر مسير المغول إلى حلب برز من دمشق إلى قرية «بَرْزة» في أواخر سنة ٦٥٧ هـ - ١٢٥٨م. فاجتمع لديه جيش قُدر بمئة ألف. إلا أنه ذُعر، فترك دمشق خالية وهرب إلى غزة[2] متجهاً نحو مصر، وبصحبته الملك المنصور صاحب حماة. وهناك انضم إليه مماليكه الذين كانوا ينوون قتله، فاصطلح معهم. كما انضم إليه الملك الظاهر غازي[3] غير أنه خشي دخول مصر، فظل في مكانه تائهاً متحيراً. وأخيراً صمم على الذهاب إلى الحجاز.

كان الناصر واقعاً بين فئتين من المماليك؛ فئة تزين له لقاء هولاكو لتوقع به، حباً بالمغول، وعلى رأسها الأمير زين الحافظي. وفئة تحضُّ على حرب المغول، وعلى رأسهم الظاهر بيبرس. والفئة الثانية قررت قتل الناصر لخيانته.

ويروى أن الناصر اختفى في موضع يدعى «القَطْيَة»[4]، بعيداً عن عسكره، حيث عزم على الهرب منه إلى الحجاز. وكان له «طَبَرْدار»[5] كردي اسمه حسين. فحسَّن له المضي إلى المغول وقصد هولاكو. فاغتر بقوله، ونزل ببركة «زيز». فسار حسين الكردي إلى «كتبغا»، وعرَّفَه بموضع الملك الناصر. فأرسل كتبغا إليه وقبض عليه[6]. وأحضره إلى عجلون، وكانت بعدُ عاصية على المغول. فأمر الملك الناصر

---

(١) شذرات الذهب: ٢٧٣/٥. نهر الذهب: ١٥٨/٣.

(٢) السلوك: ٤٢٢/٢/١. المختصر: ٢٠١/٣.

(٣) المختصر: ٢٠١/٣. البداية والنهاية: ٢٢٠/١٣.

(٤) قطية: المكان الذي انفرد فيه الناصر... من غير تحديد (شفاء القلوب: ٤١٨).

(٥) طبردار: (فارسية) معناها الحرفي: صاحب الفأس الحربي. وهي رتبة عسكرية. و«طبر» فأس أصلها بالتاء تحولت إلى طاء لدى التعريب (المعجم الذهبي).

(٦) شفاء القلوب: ٤١٨. البداية والنهاية: ٢٢٠/١٣.

سكان عجلون بتسليم مدينتهم. فسلمت إليهم، فهدموها.

وبعث كتبغا بالملك الناصر إلى هولاكو. فمر بدمشق، ثم حماة. وحين وصل الناصر إلى حلب رأى ما قد حل بها وبأهلها فتضاعف ألمه، وأنشد:

يعزُّ علينا أن نَرى ربعَكم يَبلى وكانت به آياتُنا تُتلى[1]

ثم سار إلى معسكر هولاكو، فوعده بأن يعيده إلى ملكه حين ينتهي من فتح البلاد. ولكنه حين وصله اندحار عسكره في عين جالوت وقتل قائده «كتبغا» غضب. وأحضر الناصر وأخاه الظاهر غازياً وقال: إن عسكر الشام في طاعتك فغررتَ بي وقتلتَ المغل. فقال الناصر: لو كنتُ بالشام ما ضرب أحد في وجه عسكرك سيفاً. ومن يكون بتبريز كيف يحكم على الشام؟ لكن هولاكو قتله بنشّابه[2]. ثم أمر بضرب رقاب الباقين، فقتل أخوه غازي، والصالح ابن صاحب حماة سنة ٦٥٩ هـ - ١٢٦٠م[3].

والذي نقل هذه الأنباء منه قصر المغول العالم الفلكي محيي الدين المغربي الذي كان يعمل في الفلك والنجوم مع نصير الدين الطوسي[4]. توفي الناصر بعد أن أمضى في الحكم بين حلب ودمشق ثلاثاً وعشرين سنة وبضعة أشهر[5].

وهكذا طوي آخر بارقة أمل لملك أيوبي كبير، في الوقت الذي انخذل فيه المغول انخذالاً أنهى وجودهم وكسر شوكتهم. وعمل على ظهور قوة جديدة في الساحة، أثبتت وجودها في زحمة الأحداث، وبرهنت على تمكنها من قيادة دفة الحكم في الشام ومصر.

---

(١) المختصر: ٢٠٤/٣.

(٢) النجوم الزاهرة: ٢٠٤/٧.

(٣) شفاء القلوب: ٤١٩. المختصر: ٢١١/٣. البداية والنهاية: ٢٢٠/١٣.

(٤) تاريخ مختصر الدول: ٤٨٩.

(٥) السلوك: ٤٢٢/٢/١.

السلالة الأيوبية في مصر والشام

أيوبيو مصر

٥٩٣ ـ ٦٥٠/١١٩٢ ـ ١٢٥٢(*)

بدء الحكم:

٥٥٩ ـ ١١٦٣[1]	الناصر صلاح الدين
٥٩٠ ـ ١١٩٣	العزيز عثمان (ابنه)
٥٩٥ ـ ١١٩٨	المنصور محمد
٥٩٧ ـ ١٢٠٠	العادل صفاء الدين(*)
٦١٥ ـ ١٢١٨	الكامل محمد(*)
٦٣٦ ـ ١٢٣٨	العادل الثاني(*)
٦٣٨ ـ ١٢٤٠	الصالح أيوب (أخوه)(*)
٦٤٧ ـ ١٢٤٩	المعظم تورانشاه(*)

أيوبيو دمشق

٥٨٢ ـ ٦٥٩/١١٨٦ ـ ١٢٦٠

٥٨٢ ـ ١١٨٦	الفضل علي (ابن صلاح الدين)
٥٩٣ ـ ١١٩٦	العادل صفاء الدين(*)
٦١٥ ـ ١٢١٨	المعظم عيسى
٦٢٥ ـ ١٢٢٧	الناصر داوود
٦٢٦ ـ ١٢٢٨	الأشرف موسى (مع الجزيرة)
٦٣٥ ـ ١٢٣٧	الصالح إسماعيل (بن العادل)
٦٣٦ ـ ١٢٣٨	الكامل(*)
٦٣٦ ـ ١٢٣٨	العادل الثاني(*)
٦٣٧ ـ ١٢٣٩	الصالح إسماعيل (ثانية)
٦٤٣ ـ ١٢٤٥	الصالح أيوب(*)
٦٤٧ ـ ١٢٤٩	المعظم تورانشاه(*)
٦٤٨ ـ ١٢٥٠ / ٦٥٩ ـ ١٢٦٠	الناصر يوسف (من حلب)

(*) وضعنا النجمة لمن حكموا مصر ودمشق معاً.

(١) استولى الناصر في هذه السنة على مصر. وأعلن نفسه سلطاناً عليها سنة ٥٦٧ هـ ـ ١١٧١م.

أيوبيو حلب

٥٨٢ ـ ١١٨٦/٦٥٩ ـ ١٢٦٠

بـدء الحكم:

٥٨٢ ـ ١١٨٦	الظاهر غازي (ابن صلاح الدين)
٦١٣ ـ ١٢١٦	العزيز محمد
$\frac{٦٣٤}{٦٥٩} - \frac{١٢٣٦}{١٢٤٥}$	الناصر يوسف (من دمشق)

أيوبيو الجزيرة

٥٩٧ ـ ١٢٠٠/٦٤٣ ـ ١٢٤٥

٥٩٧ ـ ١٢٠٠	؟ الأوحد أيوب (ابن العادل)
٦٠٧ ـ ١٢١٠	الأشرف موسى (ابن العادل ـ مع دمشق)
$\frac{٦٢٨}{٦٤٣} - \frac{١٢٣٠}{١٢٤٥}$	المظفر غازي (ابن العادل)

أيوبيو حماة

٥٧٤ ـ ١١٧٨/٧٤٢ ـ ١٣٤١

٥٧٤ ـ ١١٧٨	المظفر الأول تقي الدين عمر (ابن شاهنشاه)
٥٨٧ ـ ١١٩١	المنصور الأول محمد
٦١٧ ـ ١٢٢٠	الناصر قلج ارسلان
٦٢٧ ـ ١٢٢٩	المظفر الثاني محمد (أخوه)
٦٤٢ ـ ١٢٤٤	المنصور الثاني محمد
٦٨٣ ـ ١٢٨٤	المظفر الثالث محمد

التابعون للماليك منهم

بـدء الحكم:

٧١٠ - ١٣١٠	المؤيد أبو الفداء (المؤرخ)
٧٣٣ / ٧٤٢ – ١٣٢٢ / ١٣٤١	أفضل محمد

أيوبـيو حمص(*)

٥٧٤ ـ ١١٧٨/٦٦١ - ١٢٦٢

٥٧٤ - ١١٧٨	القاهر محمد (ابن شيركوه)
٥٨١ - ١١٨٥	المجاهد شيركوه الثاني
٦٣٧ - ١٢٣٩	المنصور إبراهيم
٦٤٣ / ٦٦١ – ١٢٤٥ / ١٢٦٢	الأشراف موسى

(*) لم نذكر أيوبية اليمن لبعدهم مكاناً عن مسار بحثنا.

الوضع العام للشام ومصر

حين اعترى الخلافة العباسية الوهن والضعف شرعت الإمارات والدويلات تنفصل عن جسم الإمبراطورية العربية. وكانت الشام ومصر أكبر هذه الدويلات. وكان حظ مصر أفضل من حظ الشام؛ فقد كان في مصر حكومة واحدة، أو صراع على حكومة واحدة. بينما كان الأمراء الصغار يتصارعون في عدد من المناطق الشامية، إضافة إلى توزع إمارات الفرنجة فيما بينهم.

وإبان الزحف المغولي كانت الشام في اضطراب كبير، ولا سيما في الوضعين: الديني والاجتماعي. ولا نجد إمارة من أماراتها تخلو من الاضطرابات. وكان الشعب دائماً ضحية هذه الاضطرابات. ففي الشام عرب، هم العلماء، والتجار، والمزارعون، والحِرْفيون، ورجال الدين. وأعراب بدو يعيشون في الخيام أو في الدور. وبين هؤلاء مماليك متعددو الجنسيات، وخوارزميون عسكريون أتباع للأيوبيين، أفسدوا الناس وعاثوا وسطوا. ومغول تغلغلوا في المدن والقرى، بعضم مسلم وبعضهم هارب من الحرب. وعباسيون هربوا من هجمة المغول أو قُبيلها، وزنكيون، وأكراد، وأرقاء. وكان فيهم أيضاً الشطار والعيارون، والميدان لهذه الفئة مناسب جداً وخصيب.

والشعب العربي ـ مع أنه صاحب البلاد ـ كان مزدرًى من قبل الحكام والمماليك؛ إذ لا يحق له الدخول في الجيش، ولا تسنُّم المناصب العالية. وقد برز من الشعب تجار أثرياء، كانوا يسمَّون اسماً فرنسياً من أثر الحروب الصليبية، وهم «البرجاسيون ـ Bourgeasisie»[1] وقد اهتم المماليك بهم كثيراً، وقربوهم إليهم، ليستفيدوا من أموالهم كثيراً لسد حاجات البلاد مادياً. ولا سيما في حربهم ضد المغول.

---

(١) الأدب في العصر المملوكي: ٧٢.

وكان الإقطاع متفشياً في مصر والشام، سببه وجود الإمارات الصليبية الصغيرة، والدويلات الأيوبية المتفرقة. لكن هؤلاء الإقطاعيين كانوا تابعين لأحد الأمراء، وهو الذي أقطعهم هذه الإمارات. وقد يقوى نفوذ بعض الإقطاعيين فتزداد سطوته، وقد يذوب بعضهم في إقطاع مجاور.

أما الإدارة فقد توزعت بين النصارى واليهود في الشام، والأقباط في مصر. وقد يتسرب إلى الإدارة بعض المسلمين والعرب عن طريق مكانتهم العلمية، ولا سيما في الشام.

ولا شك أن أهم فئة اجتماعية هي المماليك، ولكنها طبقة عسكرية تحيا في الثكنات وتتدرب على السلاح والرماية، لخدمة أهداف الأمراء عسكرياً. كما كانوا يدرسونهم العلوم الدينية، إضافة إلى السلاح، كي يكونوا على دين مالكيهم. لذا مالوا إلى الدين بقدر ما أحبوا الحرب. ولعل لهذا الميل سبباً وجيهاً في حربيهما: المغولية والصليبية. وقد بدا طابع الدين بارزاً فيهم، ولا سيما في ألقابهم. فكان لا بد للواحد منهم من لقب ديني يمتاز به. ومع أن هذه الألقاب كانت موجودة قبلهم، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يستغنوا عن هذا اللقب طوال حكومتهم. وكان كل من يرقى إلى الحكم يتلقب بواحد منها، مثل الظاهر بَيْبرس (ركن الدين)، أَيبك (عز الدين)، قَلاوون (سيف الدين)، لاچين (حسام الدين)... حتى انتقلت هذه الظاهرة إلى الوزراء والعلماء والكتاب والشعراء... ممن يرد ذكرهم في كتابنا «التيارات الأدبية إبان الغزو المغولي».

والحق الذي تجدر الإشارة إليه أن ظاهرة الدين هذه غدت عندهم سياسية أكثر منها شعوراً وانطباعاً. حتى اهتمامهم بإعادة كيان الخلافة العباسية الثانية نوع من هذه السياسة الشعبية، لتوطيد شرعية حكمهم.

وقد كان الدين العام هو الإسلام؛ سنة وشيعة بمذاهبهما المتعددة. ومع أن أكثر الحكام الذين تعاقبوا على الشام كانوا سنة، فإنه لم يجرِ فيها ما جرى في العراق من قلاقل مذهبية.

أما طبقة أهل الذمة، فكانوا يعيشون مع الشعب بحرية، وإن كانوا يتخذون حواريَ خاصة بهم، أو ينعزلون ببعض القرى. لكنهم جميعاً كانوا يدفعون الجزية.

وقد كان الزنكيون والأيوبيون يكرمونهم ويعاملونهم بالحسنى.[١] ولم يصدر عن أهل الذمة أي عداء للشعب أو للحكم، ولم يُقدموا على التعاون مع الصليبيين ليقينهم بأن هؤلاء ما جاؤوا إلا لهدف استعماري، وكم كان إحجامهم هذا يغيظ الصليبيين. ولولا تهور بعضهم في دمشق مع المغول لنفينا أي بادرة صدرت عنهم[٢].

لكن المماليك لم يكونوا أرحب صدراً من الأيوبيين نحوهم. فمع أنهم لم يسيئوا إليهم فإن الاعتماد عليهم قلَّ في الدواوين، وحُددت ألوان عمائمهم، ومنعوا من الركوب. ولعل ذلك جرى عُقيب أحداث هجوم المغول على الشام. ولهذا رأيناهم يميلون إلى بعض الحرف الخاصة كالطب والصيدلة.

نشـأة المماليك:

معنى كلمة مملوك «تابع». وكانت تطلق على العبيد الذكور البيض المستولى عليهم في الحرب أو المشترين من أسواق النخاسة[٣]. وقد استُوردوا (غالبيتهم) من جنوبي روسية والقوقاز. وكان منهم طليان وبنادقة وروم وفرس وترك ومغول. وقد بدأ ظهورهم منذ أيام الطولونيين بهدف تقوية جيوشهم[٤]، حتى بلغ عددهم أربعة وعشرين ألفاً[٥]. وتبعهم في ذلك الإخشيديون فالفاطميون. وكذلك الأيوبيون. بل إن هؤلاء أولوا مسألة استيراد المماليك أهمية كبيرة، بذلوا لها الأموال الضخمة.

على أن الصالح أيوب هو الذي قدمهم وهيأهم للحكم[٦]. وهذا ما جعل المماليك يبرزون في مصر، وبعد أن كانوا تابعين صاروا متبوعين[٧]. يقول فيليب

---

(١) A History of Egypt, 241.

(٢) يذكر عمر موسى باشا أن أهل الذمة كانوا يسرقون أطفال المسلمين ويبيعونهم للفرنجة في قلاعهم!

(٣) A History of Egypt, 241.

(٤) دولة الظاهر بيبرس: ١٩.

(٥) بدائع الزهور: ١/٣٧.

(٦) تاريخ الشعوب: ٣٦٥. دولة الظاهر بيبرس: ١٩.

(٧) The Mongol Empire, 360.

حتي[1] عنهم إنهم سلسلة عجيبة من العبيد تحكمت في مصائر البلاد، والأعجب أنها ذات قوميات مختلفة. وقد أُسكنوا الروضة مقابل الفسطاط على النيل، ولهذا دُعوا بالمماليك البحرية[2]. وحكموا مصر والشام من ٦٤٨ - ٧٩٣ هـ/١٢٥٠ - ١٣٩٠م. وخلفهم المماليك الجراكسة، أُسكنوا البرج فدُعوا البرجية، وحكموا من ٧٨٤ هـ - ٩٢٣ هـ/١٣٨٢ - ١٥١٧م.

وسنتوقف قليلاً عند أبرز الشخصيات ممن لهم دور في حرب المغول، وعلاقة بالدولة الإيلخانية. ذلك أن المماليك حكموا القطرين منذ دخول المغول أرض العرب، واستمر حكمهم حتى ما بعد زوال الإيلخانيين.

شجر الدر:

ذكرنا قبلُ أن شجر الدر مملوكة الصالح نجم الدين أيوب، وواحدة من مماليكه. وقد كان لها دور مشهود في الحرب ضد الصليبيين دفاعاً عن «المنصورة»، وفي المحافظة على زمام الأمور بحزم في مرحلة حرجة جداً.

هي أرمنية الأصل. وقيل: بل تركية. اشتراها الصالح، فحظيت عنده بالحب، فلم تفارقه سفراً ولا حضراً. ولعل لذكائها أثراً في ذلك. وهي أول من ملك مصر من الملوك المماليك. حتى كانت التواقيع تصدر من قلعة الجبل، وعلامتُها عليها وهي «والدة الخليل»، وسُكت السكة باسمها[3]، وعليها «ملكة المسلمين والدة الخليل». وقد حكمت ثمانين يوماً، وكانت أول ملكة مسلمة تحكم باسم الإسلام[4]. ولكن حين وصل إليها تقريع المستعصم «إذا كانوا بحاجة إلى رجل...» تباحثت مع المماليك في الأمر، فرأوا أن يُشركوا قائد الجيوش عز الدين أَيْبَك معها في الحكم. فنصبوه عليهم، ورضيت به زوجاً[5]. فاستاء الأمراء الأيوبيون، ولا سيما أمراء الشام، فكتبوا إلى صاحب حلب الناصر يوسف (ابن حفيد صلاح الدين) يعلمونه

---

(١) تاريخ سورية: ٢٦٧/٢.

(٢) المفروض أن يُدعوا «النهرية»، لكن المصريين يسمون النيل بحراً لغزارته وضخامته.

(٣) العملة الوحيدة المتبقية منها محفوظة في المتحف البريطاني.

(٤) حكمت بعدها في الهند ملكة من سلالة الأباطرة المغول اسمها «رضية».

(٥) تاريخ سورية: ٢٦٧/٢.

عن استيائهم لِما آلت عليه مصر، ويحثونه على المسير إليهم حتى يتملك دمشق، ومن ثم ينتقل إلى مصر[1]. ذلك أن الأيوبيين يتطلعون إلى حكم مصر، لتبقى تابعة لأسرتهم.

يعد عز الدين أيبك التركماني، الملك المعز، أول المماليك الأتراك، وكان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين أيوب، وكان ديناً عفيفاً كريماً. وهو الذي استعد لحربه الناصر. فقد تقدمت جيوش الناصر جنوباً، حتى بلغت حدود النيل.

غير أن الأيوبيين أُسقط في أيديهم، حين استدعى أيبك أحد أحفاد الكامل الأيوبي من اليمن، وكان طفلاً في السادسة يدعى الملك الأشرف موسى بن الملك مسعود[2]، فـأمَّره، وأعلن نفسه وصياً عليه. ومع أن العرش غدا أيوبياً فإن الحكم ظل بيد المعز أيبك وزوجه شجر الدر.

واستمر أيبك يحكم البلاد سبع سنوات[3]. ثم إنه خطب ابنة أمير الموصل، لأن شجر الدر لم تنجب له. فاستاءت من زواجه الجديد وصممت على قتله[4]. وحين دخل الحمام أتبعته بخمسة من الخدم فقتلوه، وهو عُريان[5] وعمره ستون سنة. فقُبض على الخدم. وبعد التعذيب صرحوا بأن شجر الدر هي التي دفعتهم إلى ذلك. فهجم عليها جواري المعز وقتلنها بالقباقيب، وألقوا بجثتها من سور القلعة[6]. فنصب المماليك المغيث نور الدين بن عز الدين أيبك، ولقبوه بالملك المنصور، وعمره خمس عشرة سنة سنة ٦٥٥ هـ ـ ١٢٥٧م، وأقيم «قطز» نائباً للسلطنة[7] وأتابكاً للمغيث.

---

(١) السلوك: ٣٦١/٢/١.

(٢) السلوك: ٣٦٨/٢/١.

(٣) البداية والنهاية: ١٩٨/١٣.

(٤) حسن المحاضرة: ٣٨/٢.

(٥) شذرات الذهب: ٢٦٧/٥.

(٦) السلوك: ٤٠٢/٢/١. البداية والنهاية: ١٩٨/١٣.

(٧) السلوك: ٤٠٥/٢/١.

قطز:

تولى قُـطُز (قوتوز) نيابة السلطنة، وتلقب بالملك سيف الدين المظفر[١]. لم يكن قطز مجرد مملوك مجهول الهُوية كأغلب المماليك، بل كان من أكبر مماليك المعز أيبك. وقال يعرف نفسه: «أنا محمود بن مودود، ابن أخت السلطان خوارزمشاه». ولم يخلف ولداً ذكراً[٢]. وكان ثالث المماليك البحرية. ومع أن حكومته دامت أقل من سنة فإن ذكره مهم جداً في تاريخ العرب، لأنه مقرون بمعركة عين جالوت. وهو الذي قتل رسل هولاكو، واعتقل المغيث الأيوبي وإخوته وأمهم في برج السلسلة، كما قبض على عدد من المماليك معهم[٣]. وقاد الجيوش لمعركة النصر ضد المغول.

كان بيبرس قائد جيشه، ويتوقع منه أن يكافئه بتعيينه والياً على حلب[٤]. لكن قطز لم يفعل، وعين عليها أميراً آخر. فاستاء بيبرس منه، وأضمر الغدر به مع ثلة من أصحابه المماليك. وأثناء عودة الجيش إلى مصر، وعند غزة طلب بيبرس من قطز امرأة من سبي الترك، فأنعم بها عليه. فأخذ بيبرس يد قطز يقبلها شكراً على الهدية. وكانت هذه الهدية إشارة بينه وبين الأمراء. فظل ممسكاً بها، بينما بَدَرَه الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف وتبعه آخرون[٥]. ثم قَطع بيبرس رأس قطز.

غير أن السيوطي[٦] يذكر أن قطز هو الذي أضمر لبيبرسَ شراً، وأسرّ ذلك إلى بعض خواصه، فأطلع هذا بيبرسَ على نية قطز، فأنجز بيبرس بصاحبه ما كان قطز ينويه له.

ولما كان المماليك يقدسون القوة في قائدهم، فقد أجمعوا على أن يكون بيبرس هو الرئيس. وبينما كان الناس ينتظرون قدوم قطز ويدعون له، سمعوا من

---

(١) السلوك: ٤١٧/٢/١. البداية والنهاية: ٢١٦/١٣.

(٢) شذرات الذهب: ٢٩٣/٥.

(٣) البداية والنهاية: ٢١٦/١٣.

(٤) يُعزى حبه إلى حلب أنه بعد أن بيع عاش حيناً فيها (الوافي بالوفيات: ٣٢٥/١).

(٥) السلوك: ٤٣٥/٢/١.

(٦) تاريخ الخلفاء: ٤٣٧. حسن المحاضرة: ١٣٩/٢. ولطريقة قتله رواية أخرى.

ينادي: «أيها الناس، رحم الله قطز. فابتهلوا إلى الله أن يطيل حياة سلطانكم الجديد الملك الظاهر بيبرس الفاتح»[١]. ودفن قطز بالقصير سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٥٩م[٢].

الظاهر بيبرس[٣]:

كان بيبرس الرابع من سلسلة المماليك البحرية، لكنه الأول من عظماء السلاطين، والمؤسس الحقيقي لسلطة المماليك بما تحلى به من شخصية ذكية موهوبة في الإدارة، وبما حققه من انتصارات ساحقة ضد المغول والصليبيين، وبما سعى إليه لتثبيت دعائم الخلافة العباسية الثانية.

ولد بيبرس في بلاد القِفْجاق سنة ٦٢٠ هـ - ١٢٢٣م (حول الفولغا والبحر الأسود)، ثم جيء به من قرب بحيرة أورال على أثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢م. فكأن حروبه للمغول جاءت ردة فعل له[٤]. وقد بيع في سوق النخاسة لعلاء الدين أيدكين البُنْدُقْدار بثمن بخس[٥]. ثم أخذه منه نجم الدين أيوب، وعينه رئيساً لإحدى فرق حرسه الخاص[٦]. وارتقى بيبرس حتى غدا قائداً لفرقة المماليك التي صدَّت حملة لويس التاسع عن مصر، وهو الذي أطلق سراح لويس بضريبة كبيرة[٧]. كما اشترك في قتل ابن سيده تورانشاه[٨]. والتحق بخدمة السلطان الجديد أيبك. ثم فر إلى الشام لخدمة الأيوبيين بين دمشق والكرك.

ولما تولى قطز حكم مصر كاتبه وبذل له الأمان، ووعده الوعود الجميلة. ففارق بيبرس الأيوبيين في الشام، وعاد إلى مصر في جماعة من أصحابه. فأقبل عليه قطز وأنزله في دار الوزارة، وأقطعه قَلْيُوب وأعمالها[٩].

---

(١) السلوك: ٤٣٧/٢/١. وانظر: The Mongol Empire, 369 .

(٢) فوات الوفيات: ٢٠٢/٣. وعلى رواية أن عين جالوت جرت سنة ٦٥٩ مات فيها.

(٣) بيبرس: رسول الملك القوي كالفهد.

(٤) دولة الظاهر بيبرس: ٢١.

(٥) كان ذا عينين زرقاوين، إحداهما مشوَّهة: A History of Egypt, 263.

(٦) Enc of Islam, Baibars.

(٧) Enc Britannica, Baibars.

(٨) Larousse Encyclopédique, Baibars.

(٩) المختصر: ٢٠٠/٢.

لم تكن معركة المنصورة وعين جالوت آخر أعماله، فقد أَتبعهما بكثير من الأعمال النادرة، مما جعله شخصية أسطورية، يعكف على روايتها الرواة. وغدا إلهاماً للشعراء الذين يحبون الرجال الأبطال. فكان له حظ كبير من ثناء شعراء شعبه وكتابه.

ومما قام به من أعمال خالدة:

١ ـ حارب إسماعيلية الشام؛ فقد ساءه أن يراهم مرتبطين بالصليبيين بمعاهدة يدفعون لهم فيها أموالاً كثيرة. فأمرهم بيبرس بتحويلها إليه. ثم أخذ يحتل قلاعهم الشامية واحدة واحدة. ونقل أغلبهم إلى مصر، وأقطعهم أراضي هناك يسكنونها[١].

٢ ـ حارب الصليبيين؛ فانتزع منهم حصن الأكراد ومدينة صَفَد وحيفا ويافا وإنطاكية[٢]. وقد استخدم ذكاءه في حربهم، ذلك أنهم كانوا في وضع ضعيف لأن الإمدادات الأوروبية انقطعت عنهم. فبدأت حصونهم تسقط واحداً تلو الآخر[٣] على طول الساحل الشامي من عكا جنوباً إلى كيليكية شمالاً على مدى عشر سنوات من سنة ٦٦٠ ـ ٦٧٠ هـ/١٢٦١ ـ ١٢٧١م. لكن الصليبيين لم ينتهوا تماماً إلا سنة ٧٠٢ هـ ـ ١٣٠٢م.

٣ ـ اعتنى بمدن الحدود؛ لأنه يعلم أن العدو المغولي يطمع بها[٤]. كما أمر بقطع الأشجار من شمالي سورية، وحرق المزروعات، وإخلاء المدن والقرى حتى لا يستفيد المغول منها في هجماتهم[٥]، على حسب خطة عسكرية دفاعية.

وهكذا استطاع أن يدير دفة الحكم، ويحافظ على وحدة الأمة العربية في مصر والشام، محاولاً في ذلك أن يكون خلفاً لصلاح الدين، على الرغم من الأخطار التي تحيط به من كل جانب؛ ففي الشمال أرمينية، وعلى طول الساحل

---

(١) تاريخ الشعوب: ٣٦٦. دولة الظاهر بيبرس: ٩٠.

(٢) Enc Britannica, Baibars.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية (المترجمة) ـ بيبرس.

(٤) Enc Britannica, Baibars.

(٥) The Mongol Empire, 363.

الشامي الصليبيون، وفي الداخل جماعة الإسماعيليين والحشاشين، وفي الشرق المغول الإيلخانيون، وفي جنوب مصر النوبيون، وفي الغرب البربر، وفي الشام بقايا الأيوبيين الذين يحاولون إعادة كيانهم.

غير أنه استطاع أن يحكم زمام الأمور بقوته ودهائه سياسياً وبإحياء الخلافة العباسية دينياً.

كما أنه حسَّن علاقاته مع بعض الدول الأجنبية[١]. ونظم البريد، حتى كانت الأخبار تصل إليه بسرعة فائقة. وأعاد بناء الحصون الشامية التي هدمها المغول.

حكم بيبرس سبع عشرة سنة، قام خلالها بست وثلاثين حملة؛ تسع منها ضد المغول، وخمس ضد أرمينية الصغرى، وثلاث ضد الإسماعيليين. وخرج من عاصمته ستاً وعشرين مرة، قطع فيها أكثر من أربعين ألف كيلومتر[٢].

غير أنه اتصف بالبطش والخيانة والغدر. وفي سنة ٦٧٦ هـ - ١٢٧٧م حين كان في دمشق قام بمؤامرة غادرة، أراد بها أن يسمِّمَ الأمير الأيوبي بكأس من الشراب. ومات الأمير بالفعل، إلا أنه أخطأ فشرب من الكأس، فمات ضحية غدره يوم الخميس ٢٨ محرَّم فدفن بدمشق[٣]. غير أن بَبْليك الخزندار كتم موته، ورجع بالعساكر إلى مصر. وفي القلعة بايع ابنه بركة بن بيبرس ولقبه بالملك السعيد[٤]. ففرح الابن بموت أبيه، وأنعم على الحاضرين[٥]. كما فرح المغول بموته.

وهكذا مات البطل الأسطوري الكبير خليفة صلاح الدين في النصر وفي تحقيق الوحدة العربية.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (المترجمة) - بيبرس.

(٢) The Aiyubids, in A History of Crusades, 714.

(٣) النجوم الزاهرة: ١٧٥/٧. يعادل ٣٠ حزيران ١٢٧٧م.

(٤) تاريخ ابن خلدون (العبر): ٨٤٧/٥.

(٥) السلوك: ٦٤١/٢/١.

معركة عين جالوت

المغول في طريقهم إلى حلب:

طمع المغول بالنصر الذي حالفهم في العراق، وأثارتهم مناظر الدماء والسفك في بغداد، فتابعوا مسيرتهم نحو الشام، التي كانت تتوقع قدومهم بكل جزع. ولم يكن للشعب حول ولا قوة؛ فإما الرحيل وإما الصبر على المكاره، لضعف حُماة بلادهم.

وكانت وجهة هولاكو مدينة حلب، لكن الطريق إليها هو الجزيرة العليا. بل إن الجزيرة كانت طريقهم في الذهاب وفي الإياب، مما يجعلها تقع تحت ضربات المغول المضاعفة، حتى أثناء تراجعهم وانخذالهم.

واتجه المغول بقيادة «يَشموت بن هولاكو» يصحبه «سُونَتاي نويان» نحو ميافارقين. وكان صاحبها الكامل محمد بن المظفر غازي بن العادل[1]، فحاصروها. بينما استمر الجيش في مسيرته نحو حلب. واستمر حصارهم لميافارقين مدة سنتين، حتى فَنيت أزواد الناس، وتفشى الموت جوعاً ووباء، والكامل محمد صابر ثابت. غير أنهم في النهاية استطاعوا أن يستولوا عليها سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٥٩م، ويقتلوا أميرها، ويحملوا رأسه على رمح. ومروا به في حلب وحماة، ووصلوا به إلى دمشق، وطافوا به بالطبول، ثم علقوه على سور باب الفراديس، إلى أن عادت دمشق إلى أهلها، فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس[2].

وكان الأمير الشهيد قد كتب إلى صاحب حلب يطلب منه نجدة ليمنع

---

(١) تتمة المختصر: ٢٨٧/٢.

(٢) المختصر: ٢٠٣/٣. جامع التواريخ: ٣٢٠. ويذكر صاحب الحوادث الجامعة: ٣٤٠ أن هولاكو قتله بدمشق وهذا خطأ لأن هولاكو لم يصل إلى دمشق، والذي قتله يشموت. والأمير عالم فاضل شجاع ذو عبادة. وقد رثاه الشعراء، وانظر بقية صفاته في شذرات الذهب: ٢٩٥/٥.

المغول من دخول الشام (قبل وصولهم)، لكن صاحب حلب استخف برأيه، واستبعد قدومهم إلى الشام[1].

كما اتجهوا نحو ديار بكر، وحاصروا ماردين، وكان أميرها الملك السعيد. فرفض الطاعة، وأرسل إليهم: «إنكم تغدرون بكل من يطيعكم». فنصبت المجانيق، وشرعوا بضربها. لكن أحد أولاد الأمير سمَّ أباه، ونصب نفسه مكانه، وكتب إلى قائد الحملة «أرقتو»: «إن من يخالفكم مات، فإن أوقفتم القتال نزلتُ إليكم»، فعفا عنه هولاكو، وسلمه قلعة ماردين، وظل عليها سلطاناً حتى ٦٩٥ هـ - ١٢٩٥م. واستمر أبناؤه من بعده يحكمون هذه القلعة[2].

وبعد ذلك دخلوا حران، فتسلموها بالأمان، وكذلك الرها. ولم يؤذوا أحداً في البلدتين. أما أهل سَروج فقد قُتلوا عن بَكْرة أبيهم. ثم تابعوا مسيرتهم نحو منبج، حيث قَتلوا فيها مقتلة عظيمة[3].

وقد كان هولاكو نفسه قائد الحملة نحو حلب. ثم تبعه ابنه يشموت وعدد من قواده، منهم «كورْماغون» و«بايْدو»[4]. ووصل الجيش أسوار المدينة في الثاني من صفر سنة ٦٥٨ هـ بعد أن قطعوا نهر الفرات، وبها تورانشاه ابن أخي الناصر نائباً عنه[5]. وكان هولاكو قد وضع خطة كبيرة لحصار حلب؛ إذ أمر كل جيش أن يحاصر أحد أبوابها[6]. ولاحظ أن «باب بغداد» أضعف الأبواب منعة وحماية. فشدد الحصار عليه سبعة أيام. ثم أرسل رسالة إلى تورانشاه، وفيها: «إنكم تضعفون عن لقائنا، ونحن إنما قصدنا الناصر. فاجعلوا لنا عندكم شحنة، وفي القلعة شحنة. ونحن نتوجه إلى العكسر. فإن كانت الكسرة على المسلمين كانت البلاد لنا، وتكونون قد حقنتم دماءكم. وإن كانت الكسرة علينا فأنتم مخيرون في الشحنة».

---

(١) تاريخ مختصر الدول: ٤٨٣.

(٢) جامع التواريخ: ٣٢٤.

(٣) تاريخ مختصر الدول: ٤٨٦.

(٤) A History of Persia, 309.

(٥) شذرات الذهب: ٢٨٨/٥.

(٦) تاريخ مغول: ١٩٢.

فأجاب المعظم: «ما لنا عندكم إلا السيف»[١]. وكان رسول هولاكو إلى تورانشاه صاحب «أَرْزَن» الروم. فتعجب من جواب تورانشاه وتألم، لِما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك[٢].

كانت جيوش المغول كثيرة العدد، حتى امتدت المساحة التي عسكروا فيها من قرية المُسلمية إلى حيلان[٣]. ناهيك عن جيوش ملك أرمينية، وبوهيموند ملك إنطاكية اللذين قدما لمساعدة المغول على حلب[٤].

أما الطريقة التي فتحوا فيها المدينة، فهي طريقتهم المعهودة عن طريق الفرار المصطنع، ثم الهجوم المباغت. فقد خرج إليهم المعظم مُكرهاً ليحاربهم، وأكمنَ لهم المغول عند باب معروف بباب الله[٥]. وهرب المسلمون يطلبون باب المدينة، والمغول يقتلون فيهم، حتى دخلوا البلد. واختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين[٦].

واشتد الحصار على المدينة حتى تمكنوا من دخولها من ذيل قلعة الشريف[٧]. وبذلوا السيف في المسلمين، وأباحوا القتل فيها بوحشية لرفضها الاستسلام، مدة سبعة أيام. وتوقف يوم الجمعة ١٤ صفر[٨] حيث أمر هولاكو برفع السيف والنداء بالأمان. ولم يسلم من أهل حلب إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين ابن عمرون، وإلى دار نجم الدين مَزْدكين (مزدلين)، وإلى دار الباز يار، وإلى دار علم الدين قيصر الموصلي، والخانقاه التي فيها زين الدين الصوفي، وكنيسة اليهود، وذلك لفرامانات بأيديهم من هولاكو[٩]. ويقال إنه سلم في هذه الأمكنة ما يزيد على

---

(١) شفاء القلوب: ٤١٦.

(٢) المختصر: ٣/٢٠٠.

(٣) نهر الذهب: ٣/١٥٨. المسلمية: قرية تبعد اليوم ٢٠ كم، وحيلان تبعد ٧ كم عن حلب.

(٤) The Mongol Mission, 26.

(٥) ما زال الباب والحي معروفين في حلب.

(٦) المختصر: ٣/١٩٩.

(٧) ما زال تل القلعة معروفاً ويقع قرب باب الحديد، ويدعوه الناس قلعة الشليف.

(٨) The Mongol Empire, 309.

(٩) تتمة المختصر: ٢/٢٩٢.

خمسين ألف نفس. وبينما كان هولاكو يحاصر قلعة حلب وثب بعض الشبان على صفي الدين ابن طرزة رئيس حلب وعلى نجم الدين مزدكين فقتلوهما لتواطئهما مع المغول.

واستمر حصارهم للقلعة مدة أربعين يوماً، وجرح كثير من المغول في هذا الحصار. فقال لهم هولاكو يعزيهم: «كما أن اللون الأحمر يكون زينة للنساء، فكذلك للرجال تكون الدماء الحمراء على وجوههم ولحاهم زينة لهم»[١]. ولم تستسلم المدينة إلا يوم الاثنين ١١ ربيع الأول.

كانت حلب ضحيّتهم الكبرى في بلاد الشام، حيث سقط من أهلها خمسون ألفاً بحد السيف[٢]. و«جرى عليهم قريبُ ما جرى على أهل بغداد. فجاسوا خلال الديار، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال»[٣]. ويتابع ابن كثير وصفه: «وبقيت حلب كأنها حمار أجرب».

وعين هولاكو على حلب عماد الدين القزويني، وأمره بتخريب أسوار المدينة وقلعتها، فخربت عن آخرها[٤]. كما عين فخر الدين الساقي على القلعة. لكن الساقي اشتد على الناس وظلمهم، فشكوه إلى هولاكو فقتله بعد فتح قلعة حارم. ثم عهد بحكومة حلب إلى زين الحافظي[٥]، بعد أن أمر القزويني بالتوجه نحو بغداد.

ثم اتجه إلى قلعة حارم وحاصرها. فطلب أهلها أمان فخر الدين والي قلعة حلب. فدخل إليهم وحلف لهم. لكن هولاكو قتل فخر الدين، وقتل أهل حارم وجميع من كانوا في القلعة، لأنهم لم يثقوا بعهوده[٦]. ثم تسلم أعزاز بالأمان[٧].

وقبل أن يتجه جيش المغول جنوباً، وبعد أن فتحت حلب، أرسل صاحب

---

(١) جامع التواريخ: ٣٠٥.

(٢) تاريخ سورية: ٢٦٨/٢.

(٣) البداية والنهاية: ٢١٨/١٣.

(٤) المختصر: ٢٠٣/٣.

(٥) جامع التواريخ: ٣٠٧، وهو أحد الخونة.

(٦) تاريخ مختصر الدول: ٤٨٧.

(٧) المختصر: ١٩٤/٣.

حماة مفاتيح البلدة إلى هولاكو. فاستناب هولاكو عليها رجلاً من العجم يدَّعي أنه من ذرية خالد بن الوليد، فخرب له أسوارها[1]. كما أحرقت زرد خانتها، وبيعت الكتب التي بدار السلطنة في قلعة حماة بأبخس الأثمان.

كما وصل إلى هولاكو في حلب الملك الأشرف[2] صاحب حمص، وكان قد انفرد عن الأمراء المسلمين لما توجه الملك الناصر نحو مصر. فأكرمه هولاكو، وأعاد إليه حمص. وكان قد أخذها منه الملك الناصر سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨م، وعوَّضه عنها بتل باشر، وأمره بتخريب أسوارها. غير أنه لم يخرب منها شيئاً لأنها مدينته. ويروي المقريزي أن الأشرف عاد ومعه مرسوم نيابة السلطنة بدمشق والشام[3].

كما قدم إليه من دمشق محيي الدين ابن الزكي من دمشق، فخلع عليه هولاكو وولاه قضاء دمشق. ولما عاد ابن الزكي لبس خلعة هولاكو (وكانت مذهبة)، واستقر في القضاء[4].

وحين سمع الملك الناصر - وهو في دمشق - بسقوط حلب، أيقن أن طريقهم إلى دمشق غدا مذللاً. فعوضاً عن أن يعد العدة للقاء المغول وحربهم، رحل عن دمشق بمن بقي معه من العسكر، واتجه جنوباً نحو مصر، فحل غزة. وهناك انضم إليه مماليكه الذين أرادوا قتله وصالحوه. كما اصطلح معه الملك غازي وانضم إليه.

ولما شعر أهل دمشق أنهم بلا حام، ولما سمعوا بما حل بأهل حلب أرسلوا إلى هولاكو وفداً من الأكابر، وسلموه مفاتيح المدينة خوف أن يحل بهم ما حل بغيرهم. فأرسل هولاكو إليهم «كتبغا» سنة ٦٥٧ هـ - ١٢٥٨م. وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ولا قتال. فعين رجاله عليها، يعاونهم ثلاثة من أهل البلدة، هم: علاء الدين الجاشي، وجمال الدين القرقاوي، والقاضي شمس الدين القومي[5].

---

(١) البداية والنهاية: ٢١٨/١٣.

(٢) هو موسى بن إبراهيم بن شيركوه.

(٣) السلوك: ٤٢٥/٢/١.

(٤) المختصر: ٢٠٢/٣. وهو أحد الخونة.

(٥) جامع التواريخ: ٣٠٧.

إلا أن القلعة استعصت عليهم فحاصروها، وضيقوا عليها، وخربوها بالمجانيق. ثم جدوا بالاتجاه نحو بعلبك.

ثم اتجهوا جنوباً ووصلوا نابلس، فنزل الناصر حتى العريش. ومن هناك سير رسولاً إلى قطز يطلب المعاضدة. لكن الناصر خاف أنه إن دخل مصر قبضوا عليه، فتأخر نحو قَطية، حيث أسره المغول، واقتادوه إلى هولاكو (كما سبق). أما جيش حماة فدخل مصر[1] استعداداً للحرب الكبرى.

وهكذا غدت مصر ملاذ أهل الشام الوحيد للهرب من وجه المغول. فارتفع سعر البعير ارتفاعاً فاحشاً[2]. وكان الوقت شتاء، فمات كثير من أهل الشام برداً في طريقهم إلى مصر[3].

أحداث معركة عين جالوت:

لم يقدر لهولاكو المعركة الفاصلة، وليته فعل لتكون بها نهايته، ويلقى مصرعه على جرائمه الإنسانية البشعة. على أي حال ما نكب به لم يكن قليلاً.

فبينما كان يدمر حلب جاءه رسول من قره قورم ينبئه بموت أخيه الخان الأعظم منكو قاآن ٦٥٨ هـ/١٢٥٩م، فاضطرب وتألم وقرر العودة. فاستخلف كتبغا على الشام مع جيش كبير وعاد إلى العراق[4]. ثم إلى إيران. والذي جعله يعود بسرعة، إضافة إلى موت أخيه، أن العداء استحكم بينه وبين عمه «بِركا» خان القبائل الذهبية في القفچاق، فأعد العدة لحربه. فقد شعر بركا بالخطر يتهدده من جانب هولاكو وقوته الجديدة الطاغية[5] على طول حدود بلاده الجنوبية. كما أن بركا دخل في الإسلام، وأحس بضرورة إيقاف الزحف البربري على البلاد العربية والإسلامية.

كان هولاكو بعد أن تمت له انتصاراته في حلب، ينوي الاتجاه نحو مصر.

---

(١) المختصر: ٢٠١/٣.

(٢) The Mongol Empire, 309.

(٣) البداية والنهاية: ٢١٥/١٣.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ٨١٩/٥.

(٥) تاريخ الشعوب: ٣٩١.

فأرسل إلى قطز رسالة تهديد وإذلال، يأمره فيها بالانصياع إليه. لكن قطز لم يخف تهديدات هولاكو. فجمع الأمراء، وشرح لهم الخطر الذي سيداهمهم. ثم رأى قطز أن يحزم الأمر، ويبرز القوة، فقتل رسل المغول (وعددهم أربعة)، وعلق رؤوسهم على باب زويلة، وأبواب أخرى من القاهرة، ليحفز الناس، ويُعدهم للمعركة القاسية القادمة[١]. وقال لأمرائه: «لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو. والملك المنصور صبي لا يعرف تدبير المملكة».

وانتهز فرصة خروج الأمراء للصيد فأسرهم، كما أسر الملك الصبي وأمه وإخوته، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر سنة ٦٥٧ هـ - ١٢٥٩م، وتلقب بالملك المظفر[٢]، لأنه وجد في نفسه الكفاءة في حزم الأمور. ولما استنكر المماليك ما فعله قال لهم:

«إني ما قصدتُ إلا أن نجتمع على قتل التتار، ولا يتأتّى ذلك بغير ملك. فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم؛ أقيموا على السلطنة من شئتم»[٣].

فأفتى المماليك معه بأن الملك الصبي (الأيوبي) لا يصلح للملك، ولا سيما في هذا الزمان الصعب الذي يحتاج إلى ملك شهم مطاع، لأجل إقامة الجهاد، والمغول قد وصلوا إلى الديار الشامية، وجاء أهلها إلى مصر يطلبون النجدة[٤].

ثم خطب في الناس: «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون في أموال بيت المال، وأنتم للغَزاة كارهون. وأنا متوجه فمن اختار الجهاد فليصحبني، ومن لم يختر فليرجع إلى بيته، لأن الله مطلع عليه. وخطيئةُ حريم المسلمين في رقاب المتأخرين»[٥]. وبعد ذلك نودي في مصر للجهاد العام في سبيل الله ونصرة دين رسول الله.

وشرع قطز بإعداد العدة للحرب؛ فأخذ يجمع الأموال عن طريق

---

(١) دولة الظاهر بيبرس: ٣٩. وانظر: A History of Egypt, 26 .

(٢) تاريخ الخلفاء: ٤٣٧.

(٣) السلوك: ٤١٧/٢/١.

(٤) حسن المحاضرة: ٣٩/٢.

(٥) السلوك: ٤٢٩/٢/١.

الضرائب، ومصادرة الممتلكات الشخصية، أو بالاستيلاء على الأموال. وجنَّد التركمان والخوارزميين والعرب والشاميين الهاربين من وجه المغول. ومن تأخر عن الحرب جلد أمام الناس[١].

وسارت جيوش قطز، بينما أرسل بيبرس في الطليعة ليكشف أخبار العدو. وحين دنا جيشه من عكا ـ وبها الفرنج ـ خرج الفرنجة يريدون أن يسيروا معه نجدة. فشكرهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه. وأقسم لهم أنه إذا تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين، رجع وقاتلهم قبل أن يلقى المغول[٢]. وهكذا ضمن حياد الصليبيين. وحين وصل بيبرس إلى غزة هربت منها حامية مغولية كانت مرابضة هناك.

وعند عين ماء تُدعى «جالوت»[٣] التقى الجمعان يوم الجمعة في الخامس والعشرين من شهر رمضان[٤]. وكان مع المغول الملك الأشرف صاحب حمص، والسعيد صاحب الصبيبة، وهو ابن عبد العزيز بن العادل. فبعث قطز يستميلهما، فوعده الأشرف بالانخذال ساعة المعركة. كما كان في جيشهم فصائل من القبائل الذهبية. فأمرهم «بركا» أن ينسحبوا من جيش كتبغا، وينضموا إلى جيش المماليك[٥].

وهجم قطز على المغول بكل شراسة، وحين اشتدت المعركة رمى خوذته عن رأسه على الأرض، وصاح «وا إسلاماه». وراح يبتهل إلى الله بقوله: «يا أَلله، انصر عبدك قطز على التتار». وبناء على الخطة التي رسمها بيبرس تراجع جيش قطز، فتبعه المغول، ففاجأهم بكمين طغى عليهم وأذهلهم.

وحين أحس كتبغا بالهزيمة قرر الموت. فكتب رسالة إلى هولاكو، قال فيها:

---

(١) The Mongol Empire, 360.

(٢) السلوك: ١/٢/٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

(٣) جالوت: بليدة قرب الناصرة بين نابلس وبيسان، في فلسطين.

(٤) البداية والنهاية: ١٣/٢٢٠، وعلى ذلك أغلب كتب التاريخ. غير أن مؤلف تاريخ الفكر العربي: ٤٤٦ يذكر أن المعركة جرت في محرم ٦٥٩، يؤيده في ذلك مؤلف الحوادث الجامعة: ٣٤٤، ونحن معهما.

(٥) The Mongols and Western Europe, in A History of Crusades, 528.

«... إن كيتو بوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل، فضحى بحياته الغالية. وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحدا، وأن جياده لم تلد المهور. فليدم إقبال الملك». وتابع الحرب حتى قتل وأسر ابن هولاكو[1]. وهزم المغول هزيمة منكرة، فتعلقوا برؤوس الجبال. وتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع.

وجرد قطز بيبرسَ في إثرهم، فتبعهم إلى أطراف البلاد الشرقية. ثم شكر قطز الملك المنصور صاحب حماة لقتاله الشديد المشرِّف[2]، وكان قائدَ الجيش الشامي في المعركة. وطلب الملك الأشرف صاحب حمص الأمان من قطز. فأمنه وأكرمه، وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها.

أما الملك السعيد فقد أخذ أسيراً. فأمر قطز به فقطعت عنقه جزاء خيانته. كما أقر صاحب حماة عليها وعلى بارين، وأعاد إليه المعرة، وكانت بأيدي الحلبيين من حين استولوا عليها سنة ٦٣٥ هـ - ١٢٣٧م. وأخذ سَلَمْيَة منه، وأعطاها أمير العرب شرف الدين عيسى بن مَهنا[3]. وأمر بإرسال رأس كتبغا إلى القاهرة.

وابتهج الدمشقيون بالبطلين: قطز وصاحب حماة[4]، وبالنصر بعد أن يئسوا منه، وبعد أن حكمهم المغول سبعة أشهر ونصف الشهر. ويوم دخول قطز دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى المغول، ومن جملتهم حسين الكردي الذي سلم الملك الناصر إلى المغول. بينما هرب الزين الحافظي وبعض نواب المغول في دمشق.[5] وحين عاد صاحب حماة إلى بلده فعل ما فعله قطز بالمتواطئين مع المغول.

وعين قطز شمس الدين أقوش البرلي العزيزي أميراً على السواحل وغزة. وفوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سَنجر الحلبي. وفوض نيابة

---

(١) جامع التواريخ: ٣١٤.

(٢) البداية والنهاية: ٢٢٠/١٣.

(٣) المختصر: ٢٠٥/٣. البداية والنهاية: ٢٢٠/١٣.

(٤) نسي معظم المؤرخين الدور البطل الذي قام به صاحب حماة في المعركة. وسلطوا الأضواء على قطز وبيبرس.

(٥) السلوك: ٤٣١/٢/١. وعزل ابن الزكي الذي عينه هولاكو على قضاء دمشق. وعين مكانه ابن سنا الدولة نجم الدين. ثم عزله بيبرس وعين مكانه ابن خلكان (المختصر: ٢١١/٣).

السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بعد أبيه. ولما استقر السعيد في حلب سار سيرة سيئة؛ إذا كان دأبه التحايل على أخذ مال الرعية[1].

وحين عاد بيبرس من ملاحقة المغول، رأى أن قطز ولى غيرَه على حلب. وكان قد وعده بها مكافأة له على نجاحه في الحملة ضد المغول. فأضمر له الشر، وقتله كما سبق.

والحق أن فوز المسلمين في عين جالوت يرجع كله إلى براعة بيبرس. فيروى أنه هو الذي حث قطز على حرب المغول، ولا سيما حين بلغه نبأ عودة هولاكو. وهو الذي اقترح عليه أن يذهبوا إليهم بدلاً من قدومهم إلى مصر[2]. وهذا وحده ـ الهجوم ـ عامل بارز في نجاح الحرب ضد المغول. ويذكر براودين كذلك أن بيبرس انتصر عليهم، لأنه كان في بدء حياته محارباً في جيش المغول قبل أن يأسره المسلمون. وعلى هذا فهو خبير بفنونهم الحربية؛ فقد قام بخدعة متميزة حسمت المعركة بفوزه؛ إذ عمل كميناً مباغتاً أذهل المغول وأحبط تقدمهم. ولم يدعهم، بل تعقبهم إلى ما وراء نهر الفرات، حتى لا تتسنى لهم العودة.

ومن حسن الحظ أن الظروف لم تكن تسمح لهولاكو بإرسال جيش الثأر مباشرة[3]. فقد صمم على رد الضربة ثأراً لكتبغا، إلا أن انشغاله شرقاً، ومن ثم موته السريع حالا دون إنجاز وعده. وسنرى أن الإيلخانيين (أحفاده) ورثوا العداء ضد المماليك، وحاولوا أكثر من نصف قرن الوصول إلى حكم مصر والشام، وبالتالي الاستيلاء على الساحل السوري[4] ليجدوا لهم منفذاً على البحر الأبيض المتوسط، من دون أن يتحقق جزء من مطامحهم... لوجود بيبرس خاصة.

وهكذا استطاع البطل بيبرس أن يُحيي معنويات الشعبين في مصر والشام، وأن يُبطل مزاعم الانتصار المغولي الذي لا يُقهر، وأن يكسرهم كسرة جبر بها

---

(١) المختصر: ٣/٢٠٦.

(٢) The Mongol Empire, 361.

(٣) جامع التواريخ: ٣١٤.

(٤) مغول إيران: ٧٤.

الإسلام[1]. فكان هذا النصر العظيم غذاء روحياً وقومياً للشعراء والأدباء.

والحق أن معركة عين جالوت إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام والعرب، وفي تاريخ مصر والشام. فقد كانت أول سد جُوبِهَ به المغول منذ خروجهم من بلادهم أيام جنگيزخان. ولم تكن هذه المعركة ضربة لهولاكو وحده، بل كانت للمغول جميعاً. لأن بيبرس برهن على أن شبح المغول يقهر كأي قوة إذا وضع له التصميم والاستعداد.

كما لا نريد أن نغمط من مقام قطز في الإشادة بالبطل بيبرس. فلولا إقدام قطز، ولولا إعلانه الجهاد المقدس، وإطلاق يد بيبرس في المعركة لما تحقق النصر، ولما برز بيبرس مطلقاً. ولعل موت قطز السريع، وبالتالي طول مدة حكم بيبرس جعلنا نربط استمرار نجاحه بجذور معركة عين جالوت. ونرجح أن حماسة قطز في هذه الحرب جاءت ثأراً لخاله خوارزمشاه الذي أطاح المغول بإمبراطوريته.

أما الشعب، فكانت فئة قليلة هي التي وثقت بالنصر ضد المغول المتوحشين. ولهذا هرب كثير من الشعب المصري إلى إفريقيّة جنوباً، أو إلى سواحل تونس غرباً[2].

وقد حاول بعض المؤرخين الإقلال من أهمية فوز العرب في هذه المعركة، بأن قللوا من عدد جنود كتبغا، فجعلوهم اثني عشر ألفاً. بينما رفع آخرون العدد إلى ثلاثين ألفاً[3]. ولا نعتقد أن يخطئ هولاكو هذا الخطأ الفادح، كما لا يقبل كتبغا أن يقود حملة لفتح بلاد واسعة بثلّة من الجند، وهو الذي قاد الجيوش إلى حلب[4]. في حين أن بعض المؤرخين جعل عدد الجنود يزيد على مئة ألف[5]، وهو الصحيح.

كما أن بعضهم عزا سبب فوز العرب إلى فصائل بركا التي انسلخت عن المغول، وانضمت إلى جيش المماليك[6]. حتى إن «دهمذا» في كتابه «لغت نامه»

---

(١) شذرات الذهب: ٥/٢٩٣.

(٢) The Mongol Empire, 359. A History of Persia, 98.

(٣) The Mongol Empire, 361.

(٤) البداية والنهاية: ١٣/٢٠٦.

(٥) تاريخ مغول: ١٩٥.

(٦) A History of the Crusades, 528.

أشاد بانتصارات هولاكو في الشام، وأغفل ذكر معركة عين جالوت تماماً! ونسي هؤلاء براعة قطز الحربية، واندفاع المصريين في حربهم دفاعاً عن بلادهم، وطموح الشاميين في طلب الثأر الغالي!

وقد صدق بروكلمان[1] حين وصف المعركة بأنها «أول هزيمة يُمنون بها، تصد سيلهم، وحولت مدهم إلى جزر».

وأياً كان الأمر، فقد كان هذا النصر نشوة للعرب، كانوا بحاجة إليها. لأنهم لم ينعموا بمثل هذا الظفر (عدا حطين) منذ قرون، مما أثلج صدورهم، وألهم شعراءهم، وزين المؤرخون كتبهم.

وقد كان لمعركة عين جالوت نتائج تاريخية كبيرة جداً في هذه المنطقة. من ذلك:

١ ـ غدت سورية تابعة لحكم المماليك في مصر، بعد أن كانت مصر تابعة لسورية أيام حكم الأيوبيين. واستمر الحال كذلك حتى انتهاء حكم المماليك ودخول العثمانيين أرض الشام ومصر.

٢ ـ هزت المعركة كيان المغول، فانعدمت عندهم فكرة الغزو الساحق. وهذا الخذلان الذريع في الجناح المغولي الإيلخاني جعلهم يبحثون عن حليف يعينهم على حرب عدوهم. فوجدوا الأرمن والغرب. وكان البابا لولب هذه الاتصالات والتحالفات[2].

٣ ـ عقدت معاهدة شديدة الأهمية بين مغول القبائل الذهبية في شخص بِركا، وبين المماليك في شخص بيبرس. ونحسب أن بيبرس أسمى ابنه «بركة» تشبهاً باسم مُعاهده المغولي المسلم.

---

(١) تاريخ الشعوب: ٣٦٥. وهو قريب من كلام المقريزي: ٤٣٢/٢/١.

(٢) The Mongol Empire, 370.

الخلافة العباسية الثانية

خيم على العالم الإسلامي والعربي مرحلة سكون وذهول، دامت ثلاث سنوات ونصف السنة إثر مقتل المستعصم بالله. فعمَّ الحزن أركان البلاد، وبدا كأنهم فقدوا رابطاً مهماً في حياتهم السياسية والدينية، بعد أن كانوا مطمئنين إلى وجود الرمز الديني الذي يجمعهم، ما كانت قوة هذا الرمز تهمهم بقدر ما يهمهم وجوده.

ولم يكتف المغول بقتل المستعصم وابنه أبي بكر، بل راحوا يجدّون بالبحث عن كل عباسي أو ذي قرابة بالعباسيين، وقصدُهم اجتثاث شأفتهم. ولكنهم أبقوا على ابن المستعصم الصغير ليجعلوه خادماً، وعلى بناته الثلاث ليصبحن وصيفات في قصور المغول.

ولم يكن أمراء الشام ومصر بأقلَّ هلعاً وقلقاً من شعبهم. فقد كانوا يطمئنون إلى وجود الخليفة على رغم ضعفه لضمان شرعيتهم على كراسي الحكم. لكنهم يعلمون أن المغول لم يُبقوا على أحد منهم. حتى مَن كان مُغَيَّباً في غياهب السجون قتلوه.

وبينما كانوا في تفكيرهم هذا، بدت ملامح إشراقة دينية من جديد. وها هي ذي الأنباء تترامى من بعيد عن نجاة بعض بني العباس، ممن كانوا في سجون نائية، أو كانوا خارج بغداد أيام المجزرة. فتسابق الأمراء الشاميون والمصريون إلى استضافة بعضهم، ومنحهم حريةَ إعلان الخلافة. وكان لعرب الصحراء أكبر الفضل في ذلك.

ويعد الملك الناصر، حين كان بدمشق، وقبل أن يؤسر، أول من فكر من الأمراء بإحياء الخلافة العباسية ثانية. فكان كلما سمع بوجود أمير عباسي استدعاه إليه، وتدارس معه مسألة إعادة الخلافة العباسية[1].

---

(١) دولة الظاهر بيبرس: ٥١.

الخليفة الأول:

هو الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر (ت ٦٢٣ هـ - ١٢٢٦م) االزراتيتي[١]. وهو أخو الخليفة المستنصر بالله (ت ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢م، وعم المستعصم[٢]. كان المستعصم قد حبسه مع عدد من الأمراء العباسيين خوفاً على عرشه. ولما استولى المغول على بغداد هرب أبو القاسم إلى البادية، ولجأ إلى عرب العراق من بني مَـهْنا، وكان أميرهم «عيسى بن مهنا». فأرسله الأمير عيسى إلى الملك الناصر بدمشق. وقبل أن يصل إليها فوجئ بهجوم المغول على دمشق. فعاد أدراجه إلى مضارب خيام الأمير عيسى، ريثما ينجلي الموقف العسكري. وحين دخل قطز مدينة دمشق ظافراً قدم عليه الأمير عيسى، وشجعه على إعادة تأسيس الخلافة العباسية، فأجابه: «إذا رجعنا إلى مصر فأَنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله». ولم يصل قطز إلى مصر كما هو معلوم.

غير أن بيبرس لم ينسَ موضوع الخليفة العباسي مذ كان في دمشق. وكان يريده فعلاً ليمكن به سلطانه في مصر، ويستمد منه شرعية حكمه. فجرت مكاتبات بين علاء الدين البُنْدُقْداري بدمشق والظاهر بيبرس في القاهرة. وكان الأمير علاء الدين بادئ العرض، إذ أرسل إليه يخبره أنه «ورد الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر بن الإمام الظاهر، وهو عم المستعصم وأخو المستنصر[٣]، ومعه جماعة من عرب خَفاجة»[٤]. فسر السلطان بيبرس لهذا النبأ، وكتب إليه على عجل، يوصيه بالأمير خيراً، ويطلب منه أن ينفذ الأمير العباسي إلى مصر مع حجاب يخدمونه في الطريق[٥].

واستقبله الظاهر بيبرس في مصر في الثاني من رجب سنة ٦٥٩ هـ - ١٢٦٠م[٦]، وأكرمه. واجتمع إليه أمراء المماليك وكبار أعيان المدينة. وبعد أن

---

(١) السلوك: ٤٤٨/٢/١. شذرات الذهب: ٢٨٧/٥.

(٢) تاريخ الخلفاء: ٤٣٩.

(٣) يرى Coke أنه ابن الناصر. انظر: Baghdad The City of Peace, 155 .

(٤) السلوك: ٤٤٨/٢/١.

(٥) دولة الظاهر بيبرس: ١٥.

(٦) تاريخ الخلفاء: ٤٣٩.

تأكدوا من اتصال نسبه بالشجرة الكريمة تقدم إليه القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، فبايعه بالخلافة[١]. ثم تبعه السلطان بيبرس، فالشيخ عز الدين ابن عبد السلام[٢]. وكان ذلك في ١٣ رجب.

وقد شك عدد من المؤرخين العرب بصحة نسبه[٣]، لكن الغالبية كانت مع صحته. وتلقب بلقب أخيه المستنصر بالله، وخطب في جامع القلعة[٤]. وفي ١٤ شعبان سنة ٦٥٩ هـ فوض الخليفة السلطان بيبرس أمر المسلمين. وقرئ التفويض على الحضور، وفيه تصوير لفاجعة بغداد، ولما أصاب المسلمين من جراء هجوم المغول، وإشادة بكفاءة بيبرس في إدارة البلاد[٥].

وما أن استقر المستنصر (الثاني) حتى شرع يعد العدة للجهاد، ويحث بيبرس على تجهيز الجيش لاستعادة بغداد من أيدي المغول. فأبدى بيبرس بادئ ذي بدء استعداده، فهيأ الجيوش وبذل الأموال الكثيرة. ويقال: إنه أنفق في سبيل ذلك ألفَ ألف دينار[٦]، وسار معه حتى دمشق. غير أن بيبرس تراجع عن تصميمه في متابعة الحملة مع المستنصر لوسوسة جاءته من أحدهم. فترك المستنصر وحده مع سبع مئة من التركمان، وعدد قليل من العرب والأكراد. أما المستنصر فقد تابع تقدمه نحو هدفه. واستطاع أن يُحرز عدة انتصارات على المغول، حتى وصل إلى «عانة» قرب مشهد الإمام علي.

الخليفة الثاني:

هو أبو العباس أحمد بن أبي الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن القَبِّي بن الخليفة المسترشد (ت ٥٢٩ هـ - ١١٣٤م). اختفى وقت الهجوم على بغداد، إذ

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٨٢٥/٥.

(٢) البداية والنهاية: ٢٣١/١٣.

(٣) منهم أبو الفداء. ومن المؤيدين: ابن خلدون: ٨٢٥/٥. النويري: ٢٨/١٨.

(٤) انظر الخطبة والتفويض في الفصل الأدبي والملحق من كتابنا التيارات الأدبية، وانظر النجوم الزاهرة: ١٨٨/٣.

(٥) السلوك: ٤٥١/٢/١.

(٦) Baghdad The City of Peace, 155.

كان غائباً يوم الفتنة[1]. ثم قدم إلى حلب، وكان عليها يومئذ رجل تركي يدعى شمس الدين أقوش، وهو الذي عينه قطز على حلب بعد معركة عين جالوت.

فكان أبو العباس الرجل الثاني الذي فكر في إحياء الخلافة العباسية. فاحتضنه أقوش، وأعلنه خليفة عباسياً في حلب على المسلمين، ولقبه الحاكم بأمر الله. فبايعه الناس، وخُطب له على المنابر، ونقش اسمه على الدراهم[2].

غير أن طموح أبي العباس لم يقنعه بمدينة حلب؛ إذ لم يجدها كافية لتكون مركزاً للخلافة العباسية، ولا سيما بعد أن هدمها المغول. فرحل عنها قاصداً حسين ابن فلاح أمير بني خفاجة. فأقامه عنده مدة من الزمان. ثم نزل ضيفاً على الأمير عيسى بن مهنا. فطالع به الناصر صاحب دمشق. فأرسل الناصر يطلبه، ولكنه بغته مجيء التتار[3].

ولما حكم بيبرس أرسل يطلبه (أيضاً)، لكن المستنصر بالله (الخليفة الأول) سبقه إلى دخول القاهرة بثلاثة أيام. فخاف أبو العباس أن يدخلها بعده فتصير فتنة. فرجع إلى حلب، فجدد له أميرها البيعة. ومن حلب جمع رجالاً، وقصد بهم فتح بغداد، واستعادة خلافة آبائه. ولكنه عند عانة فوجئ بالخليفة المستنصر يتأهب لفتح بغداد. فانقاد الحاكم بأمر الله له، ودخل تحت طاعته[4].

وهكذا اجتمع الخليفة الحلبي مع الخليفة القاهري، واتجها بجيشيهما نحو بغداد. وانتصر المسلمون في معركتهم الأولى ضد بَهادُر شحنة بغداد. إلا أن قرابغا[5] ـ وهو الذي عينه هولاكو حاكماً على بغداد ـ خرج عليه في كمين. ودارت معركة دامية بين الطرفين انتصر المستنصر في بدئها. غير أن أصحابه خذلوه، فهرب قسم كبير منهم. لكن المستنصر استمر في جهاده حتى استشهد في أول المحرم من سنة ٦٦٠ هـ ـ ١٢٦١م، بعد أن دامت خلافته ستة أشهر. وقد أخطأ ابن

---

(١) نهر الذهب: ١٦٧/٣.

(٢) وذلك قبل إعلان المستنصر خليفة كما يتضح.

(٣) السلوك: ٤٧٧/٢/١. تتشابه الأحداث هنا، ويبدو أن الروايتين تضاربتا.

(٤) البداية والنهاية: ٢٣٩/١٣.

(٥) السلوك: ٤٦٧/٢/١. وقد نهب الأنبار في طريقه.

خلدون حين قال: «وهو الذي استقرت الخلافة في عقبه»[١].

وتألم بيبرس كثيراً لمقتل المستنصر[٢]، وللخسارة المادية التي نجمت عنه في سبيل توليته، وفي سبيل إعداد الجيش. وراح يفكر في عباسي آخر يستحق أن يكون خليفة.

كان الخليفة الحلبي من بين الهاربين (أو الناجين) في المعركة. فسار في ثلة من رجاله إلى عيسى بن مهنا (ثانية)، وهو على ثقة أنْ لا منافس له الآن. ومن هناك عادت المراسلات تترى بين مصر ودمشق. وهكذا دخل الخليفة الجديد مدينة القاهرة. واستقبل بحفاوة بالغة، وجلس إلى جانب الظاهر بيبرس. وبعد أن تأكد القضاة والأعيان من صحة نسبِه بايعوه سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٢م[٣].

واستمر الحاكم بأمر الله خليفة حتى سنة ٧٠١ هـ - ١٣٠١م، بعد أن أمضى على عرشه الرمزي أربعين سنة وعدة أشهر. ثم خلفه ابنه أبو الربيع سليمان، وتلقب بالمستكفي وحكم حتى سنة ٧٤٠ هـ - ١٣٣٩م. ومن عقبه جاء العباسيون.

المماليك والمغول بعد بيبرس:

توفي الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦ هـ - ١٢٧٧م، فعين مكانه ابنه ناصر الدين أبو المعالي محمد بركة خان الملقب بالسعيد. وقد تزوج سيف الدين قلاوون الألفي، مما زاد من مقام هذا المملوك سياسياً[٤].

لكن قلاوون لم يقبل بوجود فتى مراهق على العرش. وشاركه في هذا الرأي المماليك الموالون له. فقتلوا بركة خان ٦٧٨ هـ - ١٢٧٩م. واختلفوا في الذي سيولونه بعده. فطلبوا من قلاوون تولي السلطنة، غير أنه رفض وقال: «أنا ما خلعت الملك السعيد طمعاً في السلطنة، والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر». فاستدعوا سُلامش بن بيبرس، ولقبوه بالملك العادل بدر الدين، على أن يكون قلاوون أتابكه[٥].

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٨٢٨/٥.

(٢) يذكر Coke أنهم ذبحوه. انظر: Baghdad The City of Peace, 155 .

(٣) شذرات الذهب: ٣٠٤/٥.

(٤) البداية والنهاية: ٣١٦/١٣.

(٥) السلوك: ٦٥٦/٢/١.

لكن قلاوون خلع سلامش بعد مئة يوم من جلوسه على العرش، وانفرد بالحكم. كان قلاوون من مغول القفچاق. أحضر إلى مصر صغيراً، فاشتراه علاء الدين آقسنقر. ثم انتقل إلى الصالح أيوب، فجعله الصالح من المماليك البحرية. وكان من جملة من خرجوا من مصر عقب قيام المعز أيبك. ثم عاد معدوداً أحد كبار المماليك. وبعد أن خلع ابني بيبرس تلقب بالملك المنصور سيف الدين، وأقيمت الخطبة له.

وقد أثبت قلاوون بطولة فائقة في حروبه ضد المغول، ولا سيما في معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ - ١٢٨١م. كما أنه صد هجوم الصليبيين، واستطاع أن يستعيد منهم طرابلس وحصن المرقب. ووطد البلاد وأخمد الفتن. ومن أكبر الفتن التي جرت في عهده ثورة شمس الدين سُنْقُر الأشقر ضده، ورفضه سلطنة قلاوون. فادعى السلطنة لنفسه، واختار لقب الملك الكامل. لكن قلاوون انتصر على سنقر سنة ٦٧٩ هـ - ١٢٨٠م، فهرب سنقر إلى البادية[١].

واستمر قلاوون على العرش حتى توفي سنة ٦٨٩ هـ - ١٢٩٠م، وجلس مكانه ابنه الأشرف خليل، وتلقب بصلاح الدين. واستفتح حكمه بالجهاد، فذكرنا بالظاهر بيبرس. فقد فتح عكا، وتمكن من تطهير الشام من بقايا الفرنجة. ولو طالت مدة حكمه لملك العراق وغيرها[٢]. لكن المماليك قتلوه وعمره ثلاثون سنة[٣]. فالمماليك لا يقبلون بوجود مملوك ضعيف على العرش ولا قوي. لذلك تخلصوا منه سنة ٦٩٣ هـ - ١٢٩٣م، وعينوا مكانه «بَيدرا»، وتلقب بالملك الظاهر. لكنهم سرعان ما ثاروا عليه بزعامة زين الدين كتبغا وقتلوه، وعينوا مكانه أخاه محمد بن قلاوون، وعمره تسع سنوات.

غير أن المماليك تضايقوا من وجود طفل على العرش، فقتلوا وزيره سَنْجَر الشجاعي، ووضعوا الطفل في القلعة. وحكم كتبغا باسم الملك العادل سنة ٦٩٤ هـ. وقد كان كتبغا من جملة أسرى المغول في واقعة حمص. فرباه السلطان قلاوون، ثم حرره.

---

(١) تاريخ مغول: ٢١٥.

(٢) الوافي بالوفيات: ٤٠٦/١.

(٣) الحوادث الجامعة: ٤٧٧.

ثم سار عليه مملوك إسلاقي الأصل يدعى لاچين. فهرب كتبغا إلى دمشق بعد أن دام حكمه سنتين. وتسمى لاجين بالملك المنصور سنة ٦٩٦ هـ ـ ١٢٩٦م. سار لاچين بجيش عظيم من مصر إلى حلب ليحارب بلاد الروم في كيليكية وعاصمتها سيس (دولة الأرمن الصغرى)، وانتصر في حروبه.

وفي عهده هرب عدد من المماليك، والتجؤوا إلى الحكام المغول في ديار بكر وماردين، فنقلوهم إلى بغداد. فاستقبلهم فيها غازان أحسن استقبال، ورحب بهم شخصياً، وأحسن وفادتهم. ووعده المماليك بأنه إذا أراد إعداد حملة إلى الشام ومصر فسيكونون تابعين له، محاربين مع جنوده[1]. واستمر حكم لاچين حتى سنة ٦٩٨ هـ ـ ١٢٩٨م. ثم إن الحكم عاد إلى محمد بن قلاوون.

وعلى الرغم مما رأينا من اضطراب وضع المماليك، وانشغالهم فيما بينهم بالتناحر والمؤامرات فقد استطاعوا أن يثبتوا وجودهم عسكرياً في ساحتين كبيرتين، كانت الاثنتان إنقاذاً للشام ودفاعاً عنها. هاتان الساحتان هما:

١ ـ ساحة الجهاد ضد الوجود الصليبي الغربي، وإنهائه تماماً.

٢ ـ ساحة الجهاد ضد الهجوم المغولي الإيلخاني، ومنعهم من تملك شبر واحد من أرض الشام.

ولا بد من عرض لمحة عن حكومة الإيلخانيين في إيران والعراق، واستعراض هجومهم المتكرر على أرض الشام التي كانت مسرح المعارك المستمرة.

---

(١) تاريخ مغول: ٢٦٩.

المماليك البحرية

٦٤٨ - ١٢٥٠	شجر الدر
٦٤٨ - ١٢٥٠	المعز عز الدين أيبك
٦٥٥ - ١٢٥٧	المنصور نور الدين علي بن أيبك
٦٥٧ - ١٢٥٩	المظفر سيف الدين قطز
٦٥٨ - ١٢٦٠	ركن الدين الظاهر بيبرس (الأول)
٦٧٦ - ١٢٧٧	ناصر الدين بركة خان بن بيبرس
٦٧٨ - ١٢٧٩	العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس
٦٧٨ - ١٢٧٩	المنصور سيف الدين بن قلاوون
٦٨٩ - ١٢٩٠	الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون
٦٩٣ - ١٢٩٣	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون
٦٩٤ - ١٢٩٤	العادل زين الدين كتبغا
٦٩٦ - ١٢٩٦	المنصور حسام الدين لاچين المنصوري
٦٩٨ - ١٢٩٨	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون
٧٠٨ - ١٣٠٨	المظفر ركن الدين بيبرس (الثاني) الجاشنكير
٧٠٩ - ١٣٠٩	الناصر ناصر الدين محمد
٧٤٢ - ١٣٤١	المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر

(*) اكتفينا من تعداد المماليك البحرية بما يتناسب ومدة حكم الإيلخانية.

الفصل السادس

الدولة الإيلخانية في إيران والعراق



بين بركاي وهولاكو:

بينما كان هولاكو يمعن في غزو حلب قدمت إليه الرسل من الشرق، تبلغه نعيَّ أخيه منكو قاآن. فتألم كثيراً، وأحس بفقدان درعه الواقي. فاضطر إلى عدم متابعة غزو بلاد الشام بنفسه، وتسليم المهمة إلى قائده كتبغا. غير أنه أثناء عودته حاصر ماردين واستولى عليها[1].

والحقيقة أن موت منكو قاآن وحده لم يُكرهه على العودة. إنما منذ وفاة جنگيزخان وأطماع الفتوح الواسعة تموج في مخيلات قواد المغول. وكان كل قائد يأمل بالاستقلال في البقعة التي يفتحها. وبالتالي يتولد في نفسه طمع التطاول على أملاك مجاوريه المغول.

ولقد كان منكو قاآن أوصى بتنصيب أخيه «أريق بوقا ـ Arigh Buga». إلا أن «قوبيلاي» إمبراطور الصين عارض هذا الإجراء، وطالب بأحقيته بالخانية، وشاركه أخوه هولاكو الرأي. واستطاع في النهاية قوبيلاي أن ينتصر على أخيه أريق بوقا[2]، وصار قاآن المغول. فنقل عاصمته من قره قورم إلى «خان باليق»[3].

وادعى أبناء جوجي (القبيلة الذهبية) أن لهم حقوقاً في الأراضي الواقعة جنوبي قفقاسية وغربي بحر قزوين، لأنها جزء من أملاك أبيهم، ولأن عدداً من قواد جيش هولاكو من رجالهم. وأدى هذا الادعاء إلى سلسلة من الحروب ضد الدولة المغولية الإيلخانية.

فبعد موت «باتو بن جوجي» خلفه على الخانية الذهبية أخوه «بِركاي» سنة ٦٥٤ هـ ـ ١٢٥٦م[4]. وكان بركاي يعدُّ نفسه أعلى مقاماً من هولاكو، لأن منكو

---

(١) الحوادث الجامعة: ٣٤٢.

(٢) العالم الإسلامي: ٤٩.

(٣) انظر رحلة ماركو بولو: ٣١٣. خان باليق هي بكين اليوم.

(٤) العالم الإسلامي: ٩١.

قاآن إنما وصل إلى منصب الخان الأعظم بمساعي أخيه باتو[1]. وكان بركا ـ أو بركاي ـ أول خان مسلم في هذه الشعبة المغولية. ولهذا أمر جنوده بالانسحاب من جيش هولاكو والاتجاه نحو جيش المسلمين في عين جالوت ودعمه. ثم إن بركا أرسل إلى هولاكو رسله يطالبه بنصيبه مما فتحه من البلاد، ومما غنمه من أموال وأسرى، على ما جرت عليه عادة ملوكهم. فغضب هولاكو من طلبه وقتل رسله. فثارت ثائرة بركا، وكاتب بيبرسَ ليتفقا معاً على هولاكو[2].

كما يذكر المؤرخون الإسلاميون أن بركاي غضب من هولاكو لقتله الخليفة العباسي وسفكه دماء المسلمين. ويروي رشيد الدين العمري أن بركا قال: «إنه دمر جميع مدن المسلمين، وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعهم، ولم يميز بين الصديق والعدو.. فلو أمدني الله لطالبته بدماء الأبرياء»[3].

ومما زاد في تأزم الوضع بين القائدين أن بركا لم يؤيد قوبيلاي بالوصول إلى العرش[4]. وهكذا وقع بركا بين خصمين: هولاكو من الغرب، وقوبيلاي من الشرق. والتقى جيش بركا جيش هولاكو. وبعد أن انهزم بركا في الجولة الأولى[5]، عاد ثانية وهاجم جيش هولاكو، وهزمه هزيمة منكرة[6]. فأمر هولاكو ـ ثأراً لهزيمته ـ بقتل جميع التجار التابعين إلى القبيلة الذهبية، فرد عليه بركا بقتل تجار هولاكو في بلاده[7].

وتألم هولاكو من الخذلان السريع المتوالي في عين جالوت، وفي صحارى القفچاق، فأصيب بالصرع ومات سنة ٦٦٣ هـ ـ ١٢٦٤م في عاصمته مراغة[8]. فاجتمع المغول على ابنه أباقا (أبغا).

---

(١) تاريخ مغول: ١٩٧. وانظر تفصيله في مطلع الجزء الثالث من «تاريخ جهانگشاي».

(٢) البداية والنهاية: ١٣/٢٤٣.

(٣) جامع التواريخ: ٣٣٢.

(٤) السلوك: ١/٢/٤٧٣. واقرأ فيه تفصيلاً مهماً.

(٥) تاريخ مغول: ١٩٧.

(٦) شذرات الذهب: ٥/٣٠٠. البداية والنهاية: ١٣/٢٣٩.

(٧) تاريخ الترك: ١٩٦.

(٨) البداية والنهاية: ١٣/٢٤٥. بينما يذكر ابن العبري: ٤٩٧، أن موته وقع سنة ٦٦٤ هـ.

أما بركا فقد مات سنة ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٦م، بعد أن حكم عشر سنوات[١]. وكان قد أعلن إسلامه منذ صغره على المذهب السني. وكان جيشه مسلماً أيضاً، ويؤدي صلاته. كان بركا يحب العلم والعلماء، ويقرب رجال الدين. وإسلامه هذا هو الذي شجع بيبرس على التعاقد معه[٢]، وتوثيق أواصر الصداقة بين الاثنين أمام عدوهما المشترك. ولم يكن إسلامه شخصياً وحسب، بل كان كل شعبه وجيشه ونسائه مسلمين. حتى كان لكل سيدة ولكل أمير مؤذن وإمام[٣]. والرسائل التي تبادلها بيبرس مع بركا تدل على عمق الروابط، وعلى إيمان بركا[٤]. ومما كتبه له: «فليعلم السلطان أنني حاربت (هولاكو) الذي هو من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا، تعصباً لدين الإسلام، لأنه باغ والباغي كافر بالله ورسوله..».

والرسالة الأخرى تدل على الاتفاق المشترك ضد مغول إيران، فقال: «قد علمتَ محبتي للإسلام، وعلمتَ ما فعل هولاكو بالمسلمين. فاركب أنت من ناحية، حتى آتيه أنا من ناحية، حتى نصطلحه أو نُخرجه من البلاد، وأعطيك جميع ما بيده من البلاد». فاستصوب بيبرس رأيه وشكره، وخلع على رسله وأكرمهم[٥].

وزاد الملكان من أواصر الصداقة بينهما بزواج بيبرس من ابنة بركا. لهذا كانت حملات مغول إيران على الشام متصفة بالحملات الخاطفة، خوفاً من عدوهم الشمالي، إضافة إلى خوفهم من عدوهم الجنوبي.

وخلف بركا على العرش ابن أخيه «منكوتمر» (ت ٦٨٠ هـ ـ ١٢٨١م)[٦]. وسار على خطة بركا في العلاقات الودية مع المماليك، وفي العداء مع الإيلخانيين[٧].

---

(١) نهر الذهب: ١٣٩/٣.

(٢) دولة الملك الظاهر: ١٠٢.

(٣) تاريخ الترك: ١٧٨.

(٤) A History of Egypt, 265.

(٥) البداية والنهاية: ٢٣٨/١٣.

(٦) شذرات الذهب: ٣١٧/٥. ويروى سنة ٦٨١ هـ.

(٧) السلوك: ٥٦١/٢/١.

موت هولاكو وإرثه:

تروي كتب التاريخ أن هولاكو مات كمداً وقهراً إثر خسارته الفادحة أمام بركاي. وتذكر الكتب كذلك أنه ربما مرض بالصرع. ثم شفي منه، فشغل بالصيد واللهو، فعاوده المرض، حتى عجز الأطباء عن شفائه. فمات وعمره ثمان وأربعون في شهر ربيع الأول سنة ٦٦٣ هـ - ١٢٦٤م[١]. وأقيم له ضريح على جبل شاهق على ساحل «جغاتو»[٢].

لكن المؤرخين اختلفوا في سنة وفاته ومكان دفنه؛ فرشيد الدين العمري يرى[٣] أنه مات في ١٩ ربيع الآخر، ودفن في قلعة «تَلا» من أعمال مراغة، وعمره خمسون سنة[٤]. ويرى عباس إقبال[٥] أن موقع وفاته جرى في جنوبي بحيرة أرومية. في حين أن عبد الحي الحنبلي[٦] يؤكد أن وفاته حصلت سنة ٦٦٤ هـ. ويوافقه ابن شاكر الكتبي[٧]، إلا أنه جعل عمره حين وفاته ستين سنة (!). وقد حل ابن كثير [٨] المشكلة بقوله: «أباده الله سنة ٦٦٤. وقيل: سنة ٦٦٣، ودفن في مدينة تلا».

ونرجح وفاته في ١٩ ربيع الآخر سنة ٦٦٣؛ فقد وقع الخلاف بينه وبين بركا في هذه السنة، وفيها أصيب بالصرع. كما أن أغلب الكتب تؤكد بدءَ حكومة ابنه سنة ٦٦٣ هـ، ولأن أبا الفداء يؤكد هذا التاريخ، لأنه اشترك في

---

(١) Baghdad The City of Peace, 156.

(٢) جامع التواريخ: ٣٤٠.

(٣) الحوادث الجامعة: ٣٥٣، وعنه نقل صاحب تاريخ الدول الإسلامية. ويرى أنها تعادل ٨ شباط ١٢٦٥م.

(٤) لعل الفرق بين السنتين هو الفرق بين الشمسي والقمري.

(٥) تاريخ مغول: ١٩٨.

(٦) شذرات الذهب: ٣١٦/٥.

(٧) فوات الوفيات: ٢٤١/٤. وكذلك تاريخ مختصر الدول: ٤٩٧.

(٨) البداية والنهاية: ٢٤١/١٣.

حروبهم، وعاصرهم، وأرخ لهم[1]. ويزيدنا ثقة ما جاء في تأريخ وفاته شعراً لنصير الدين الطوسي؛ وزيره ومستشاره، فقال:

«عندما حل الشتاء ودخل هولاكو مراغة، جعل تقدير الأزل نوبة من عمره»

«وكانت السنة ٦٦٣ وفي ليلة الأحد التاسعة عشرة من ربيع الآخر»[2].

مات بعد أن حكم عشر سنوات، وخلف أربعة عشر ولداً[3]، وسبع بنات. أهمهم «أباقا خان»، وهو الابن الأكبر، وأمه «سونجين خاتون»، وهي زوجته التي قدمت معه من مغولستان. و«يَشموت» وكانت أمه محظية. و«تكودَر» وهو الابن السابع، وأول أولاده في الإسلام. و«منكوتمر» الابن الحادي عشر، أمه «أولجاي خاتون». و«هولاجو» الابن الثاني عشر، أمه محظية[4].

وكان قبل موته وزع أملاكه على أولاده وأمرائه المطيعين له، فكانت:

١ ـ العراق وخراسان ومازندران، وريث أبيه أباقا.

٢ ـ أران وآذربايجان، لابنه يشموت.

٣ ـ فارس، للأمير «أنكيانو».

٤ ـ الجزيرة لأحد أمرائه.

٥ ـ ممالك الروم لمعين الدين پَروانه، الذي كان وزير سلاجقة آسية الصغرى.

وقد استوزر في حياته ثلاثة من المسلمين، هم: سيف الدين بِيتكچي الخوارزمي وهو أول وزير. وأعقبه شمس الدين محمد الجويني أخو عطا ملك. وكان نصير الدين الطوسي يشارك في مقام الوزارة والاستشارة.

وفيما يلي لمحة عن تسلسل أفراد أسرته على عرشه، مع ذكر أهم الأحداث التي جرت في حياتهم مما له علاقة بالشام ومصر:

---

(١) المختصر: ٢/٤.

(٢) جامع التواريخ: ٣٤٠.

(٣) جامع التواريخ: ٢٢٣.

(٤) المصدر السابق.

إيلخانات إيران والعراق

١ ـ هولاكو بن تولوي بن جنگيزخان	١٥٤ ـ ٦٦٣
٢ ـ أباقا بن هولاكو	٦٣٣ ـ ٦٨٠
٣ ـ أحمد تكودر بن هولاكو	٦٨٠ ـ ٦٨٣
٤ ـ أرغون بن أباقا	٦٨٣ ـ ٦٩٠
٥ ـ كيخاتو بن أباقا	٦٩٠ ـ ٦٩٤
٦ ـ بايدو بن طرغاي بن هولاكو	٦٩٤ ـ شهور
٧ ـ غازان بن أرغون	٦٩٤ ـ ٧٠٣
٨ ـ أولجايتو خُدابندة بن أرغون	٧٠٣ ـ ٧١٦
٩ ـ أبو سعيد بن أولجايتو	٧١٦ ـ ٧٣٦

الحكم الإيلخاني:

لم يعد جنود هولاكو إلى مرابضهم الأصلية شرقاً، بل قرروا الاستقرار في مناطقهم المفتوحة، وأسسوا في وسطها عاصمة خانية تابعة للخاقان الأعظم، لذلك دُعوا بالإيلخانيين أو الإيلكخانيين[١]. وقد تمركزوا بمدينة مراغة، حيث كان هولاكو ينوي تأسيس حكومته.

كانت عاصمتهم في البدء تبريز، ثمن انتقلوا إلى مراغة قربها. وفي عهد «أولجايتو» انتقلوا إلى عاصمة ثالثة هي «كانْفورلان»، ويدعوها الفرس «السلطانية»[٢]، وموقعا قرب قزوين. وقد أحسنوا اختيار عاصمتهم هذه لموقعها الجغرافي؛ فهي قريبة جداً من خصومهم خانات القبيلة الذهبية، ومن أعدائهم التقليديين المماليك. كما أنها تقع وسط البقعة التي يحكمونها، وهي إيران والعراق، فتحميهم جبال زاغروس ونهرا دجلة والفرات غرباً، وجبال القوقاز شمالاً، ويمتدون شرقاً حتى جبال هندوكش.

---

(١) إيلخان معناها خادم الخان الأعظم أو تابعه. ويحسن الانتباه إلى أن هذه الحكومة لا علاقة لها بالدولة الإيلخانية التي عرفت في بخارى في القرنين الرابع والخامس.

(٢) The Mongols and The Near East, 719.

وقد امتد حكمهم من ٦٥٦ ـ ٧٥٤ هـ/١٢٥٦ ـ ١٣٥٣م، أي قرابة مئة سنة. كانوا فيها مشغولين داخلياً بفتنهم، وخارجياً بحروبهم مع المماليك، ومع القبيلة الذهبية. وكان الإيلخانيون من الناحية الدينية نوعين: فهم إما ملاحدة وإما مسلمون. كما أنهم من حيث السيطرة، إما أقوياء وإما دمى يتلاعب بها القواد[١].

وكان **أباقا بن هولاكو** الإيلخان الثاني، حكم من ٦٦٣ ـ ٦٨٠ هـ/١٢٦٤ ـ ١٢٨١م، وتزوج ابنة ملك القسطنطينية[٢]، مما حداه لأن يعطف على المسيحيين. وشغل أباقا بالحربين؛ ضد المماليك، وضد بركا وخلفائه. غير أنه مات مسموماً (أو مغموماً من خسارته) وعمره خمسون عاماً، في همذان بعد أن حكم سبع عشرة سنة. وخلف طفلين هما: أرغون وكيخاتو. وأسوأ ما قام به أنه ساند الصليبيين بعشرة آلاف مغولي، لكن بيبرس انتصر عليهم وعلى «بوهيموند» سنة ٦٦٦ هـ ـ ١٢٦٧م وانتزع إنطاكية.

ولم يخلفه واحد من ولديه، بل خلفه أخوه **تَكودَر**[٣] **بن هولاكو**[٤] بعد قلاقل عديدة. ومع أن اسم تكودر كان نيقولا، فإنه حين تسلم الحكم تسمى أحمد[٥]. وفي أثناء إعلان إسلامه وصداقته مع المماليك تفرغ قلاوون لحرب الصليبيين على سواحل الشام. واغتاظ قواده من إسلامه، فأشعلوا ثورة ضده تزعمها ابن أخيه أرغون، وشاركه فيها جماعة المحافظين، وآزرهم يهود العراق. وتم اعتقال تكودر وإعدامه. وهكذا دفع تكودر حياته ثمناً لإسلامه. ولم يدم حكمه طويلاً.

وتسلم الحكم بعده **أرغون بن أباقا** سنة ٦٨٣ هـ ـ ١٢٨٤م، فكان حكمه نصراً للبوذية والمسيحية، ووبالاً على الإسلام. وهو الذي عيَّن على العراق طبيباً يهودياً، وقدَّم مقترحات إلى الغرب بشن هجوم مشترك. غير أن انتصار المماليك

---

(١) جاء حديثنا مختصراً، لأن قصدنا الوقوف على علاقتهم بحروب المماليك وأوضاعهم الاجتماعية والدينية.

(٢) تاريخ مختصر الدول: ٧٩٤.

(٣) اختلف المؤرخون في اسمه هذا؛ فقد ورد في المختصر «بِيْكدار»، والفرس كتبوه بالنون «نكودار». على أن أغلب المصادر على ما ذكرناه فوق.

(٤) المختصر: ١٦/٤.

(٥) A History of Persia, 107.

الأخير وضع حداً للهيمنة الغربية على بلاد الشام[١]. واعتنى بتنظيم ممالكه؛ فعين «بايدو» حفيد هولاكو على حكومة بغداد. وهولاجو بن هولاكو وكيخاتو على بلاد سلاجقة الروم. وابنه غازان على خراسان والري ومازندران وقومس. وهو أول من ضرب اسمه على السكة الإيلخانية[٢]. واستمر حكمه حتى ٦٩٠ هـ - ١٢٩١م.

وحين توفي أرغون استدعى الأمراء أخاه «**كيخاتو**» ليخلفه. وكان ضعيف النفس مسرفاً[٣]، مبذراً سكيراً فاسقاً، معادياً لقادة الجيش. فقتلوه سنة ٦٩٤ هـ - ١٢٩٤م، وعمره ثلاثون سنة[٤].

وخلفه على الحكم قريب له هو «**بايـدو**»، وقد كان عسكرياً بوذياً[٥]. لكنه لم يكن أفضل منه. فمال القواد إلى قازان. وبناء على أوامره قتلوه. وبموته انتهت مرحلة الخانات الملاحدة[٦].

وتسلم الحكم **قازان**[٧] **بن أرغون** سنة ٦٩٤ هـ بمساعدة وزيره نيروز، فجعله نائباً للمملكة. وعين أخاه «خدابنده» على خراسان مكانه[٨]. وأول عمل قام به هو جعله الدينَ الإسلامي رسمياً في البلاد، من غير أن يلقى الخطر الذي لقيه تكودر. ودخل جيشه في الإسلام، وارتدى العمامة، وسك العملة الإسلامية. كما عين طبيبه الخاص رشيد الدين فضل الله وزيراً بعد نيروز[٩]. وبنى مضافات لآل البيت

---

(١) A History of Persia, 107.

(٢) تاريخ مختصر الدول: ٤٨٢.

(٣) أخرج كيخاتو عملة ورقية على غرار العملة الصينية لقلة المال. وأول يوم صدرت فيه هو ١٢ أيلول ١٢٩٤م. انظر: The Mongol Empire, 374 .

(٤) تاريخ مغول: ٢٤٥.

(٥) ذكر إقبال أنه كان مسيحياً وسعى إلى إحياء هذا الدين. كما أنه لم يكن سيئاً نحو الإسلام.

(٦) A History of Persia, 109.

(٧) ويلفظ: غازان وغازغان،. والحرفان «غ. ق» مختلطان في المغولية. ومعنى الاسم قدر الطعام. سمي بذلك لأنه لما ولد دخلت الجارية ومعها قدر فسمي به (رحلة ابن بطوطة: ١٥٢).

(٨) المختصر: ٣٢/٤.

(٩) وضع نيروز كتاباً بالفارسية عنوانه «تاريخ غازاني»، وقد اشترك غازان معه في تأليفه (تاريخ الشعوب: ٢٩٣).

الفقراء، دعيت دار السادات، كما بنى المساجد والحمامات[١].

وإعلانه الإسلامَ جعله يرفض سلطنة الخاقانات الوثنيين في الصين على دولته، فأعلن انفصاله عن الشرق. ومع كل هذا التمسك الديني، لم يتوانَ عن تجهيز حملتين كبيرتين ضد المماليك في الشام (شرحهما آتٍ). وهذا دليل على أن حروبه معهم سياسية أكثر منها عَقَدية.

وفي سنة ٧٠٣ هـ ـ ١٣٠٣م نكب غازان بحمى حادة داهمته بسبب هزيمة عسكره في معركة «مرج الصُّفَّر»، ومات مكموداً قرب همدان، وعمره ثلاث وثلاثون سنة، ودفن في تبريز بعد أن حكم تسع سنوات[٢].

ومن المؤسف أن يخلف قازانَ رجل ضعيف أشبه بالدمية، هو «**خُدَابَنْده ابن أرغون**»[٣] (٧٠٣ ـ ٧١٦ هـ/١٣٠٣ ـ ١٣١٦م) وعمره ثلاث وعشرون سنة، ولقبه بعضهم «خَرْبَنْده» ثم انتحل لقب «السلطان أولجايتو»[٤].

وهو حين ولد عُمد، لكنه أسلم وتسمى محمداً بتأثير إحدى زوجاته الفارسيات. وراسل ملوك أوروبة. والغريب أنهم ظنوه وثنياً معادياً للإسلام[٥]. وكنا ذكرنا تقلبه بين الردة والإسلام، والسنة والشيعة. وفي الثامن والعشرين من رمضان سنة ٧١٦ توفي بالعلة السائدة بين الإيلخانيين، وهي الإسراف في الفسق والشراب[٦].

وحين مات خلفه ابنه الوحيد **أبو سعيد** (٧١٦ ـ ٧٣٦ هـ/١٣١٦ ـ ١٣٣٥م)، وعمره اثنتا عشرة سنة[٧]. وكان فاضلاً كريماً. وصفه ابن بطوطة فقال[٨]: «رأيته ببغداد، وهو شاب أجمل خلق الله صورة، لا نبات بعارضيه.

---

(١) Baghdad The City of Peace, 162.

(٢) المختصر: ٥٠/٤. ويروى أنه سمَّ بمنديل تمسَّح به بعد الجماع، فتعلل به ومات (فوات الوفيات: ٧٩/٤).

(٣) خدا بنده: كلمة فارسية معناها عبدالله. وخربنده: عبد الحمار، سخرية به.

(٤) Baghdad The City of Peace, 165.

(٥) يبدو هذا من رسالة أرسلها إدوارد الثاني (تشرين الأول ١٣٠٦)، ويذكر فيها أنه يسعى جاهداً لإنهاء أتباع محمد في: A History of Persia, 114 .

(٦) تاريخ مغول: ٣٣٤.

(٧) Baghdad The City of Peace, 167.

(٨) رحلة ابن بطوطة: ١٥٢.

ووزيره إذ ذاك غياث الدين محمد بن خواجه رشيد، وكان أبوه من مهاجرة اليهود(!)، واستوزره أبوه قبله». وقد تميز حكم أبي سعيد بنشوب الخلافات بين رجال العصر، وعلى رأسهم چوبان الوصي الذي تزوج أخت أبي سعيد وزوَّجه ابنته، فسيطر على العرش[١]. وقد توفي أبو سعيد في إحدى هجماته على القبائل الذهبية. ولعله مات مسموماً بتدبير من زوجته «بغداد خاتون» انتقاماً لمقتل والدها چوبان.

مات أبو سعيد ولم يخلف ولداً ذكراً، وبموته انقطعت ذرية هولاكو[٢]، واضطربت البلاد. على أن أحد قواد أبي سعيد قفز إلى الحكم، وتزوج أخته؛ أرملة چوبان. كان اسمه حسن الكبير. غير أنه لم يستطع الصبر على الحكم في تبريز، فرحل إلى بغداد، وأقام فيها. وبه تأسست الدولة الجلائرية (٧٣٨ - ٨١٤ هـ/ ١٣٣٧ - ١٤١١م) فيما بين النهرين، وعاصمتهم بغداد. فاستعادت بغداد بعض مكانتها في عهدهم. واستمرت الأسرة الجلائرية تحكم ضعيفة حتى داهمها الزحف التيموري[٣]. وخلفها حكام «القطعان السوداء»، والتركمان، والقطعان البيضاء.

أما منطقة تبريز فكانت موزعة على بعض الأمراء الصغار. ولم يبق من نسل هولاكو أحد، لأن الأمراء كلما جاء أحدهم إلى الحكم قتل عدداً منهم ليخلص له الحكم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مسيرة حكم الإيلخانيين اتخذت خطاً آخر بعد موت أرغون؛ فقد عزفوا عن الجشع الوحشي والتعطش الدموي[٤]. لأن الإيلخانات صاروا أكثر تحضراً، وأخذت المدنية طريقها إليهم. وقاموا بتشييد المدن، وعملوا على تطوير التجارة وتشجيع العلوم والثقافة. وأولعوا بتقدير العلماء والأدباء والشعراء، وبناء المراصد ودور العلم والمدارس، حتى إنهم نسوا ما جاء في أهم بنود اليساق، وهو أنَّ نصرهم في عدم تحضرهم. وهذا صدق حكيم جنگيزخان (على مغول الصين ومغول إيران) بأن الحضارة ستدمر المغول.

---

(١) A History of Peace, 115.

(٢) انقطعت ذرية هولاكو تماماً من إيران والعراق سنة ٧٤٤ هـ/١٣٤٤م.

(٣) العالم الإسلامي: ٨٢. وقد جرى الزحف التيموري سنة ٧٩٦ هـ = ١٣٩٣م.

(٤) في حروبهم - في المرحلة الثانية - عفّوا عن سفك الدماء، لا عن المال.

إلا أنهم ظلوا ينبتزون الأموال، ويفرضون الضرائب على الشعب. واستمروا على انغماسهم في شهواتهم، حتى مات كثير منهم من الإدمان أو بالسم[١]. ومع أن حكمهم طال في إيران إلا أن أثرهم البشري انعدم، عدا بعض المفردات المغولية التي تسربت إلى الفارسية. في حين أن مغول جنوبي روسية ما زالوا موجودين حتى اليوم، وهم الذين يُدعون بالتتار، ولكنهم يتكلمون التركية الشرقية[٢].

ومما لاحظناه، أن المؤرخين الفرس كانوا يميلون إلى المغول كثيراً، ويثنون عليهم، ولم يكن عطا ملك الجويني أو نصير الدين وحدهما على هذه المحبة. كما أن الفرس يعزون تقدم حكم المغول يرجع إلى حكمة الوزراء الفرس... وهذا حق لا يجوز لنا إغفاله.

---

(١) The Mongol Empire, 373 - 4.

(٢) The Mongol and The Near East, 720.

الشام في ظل المماليك والمغول

بعد عين جالوت

ظلت الشام نصف قرن بعد معركة عين جالوت ترزح تحت نير الرعب، وتحيا حياة القلق المضني، والفقر المدقع، والمجاعات، والأوبئة. فقد استمر الهجوم المغولي على الشام بشكل متقطع حيناً، ومستمراً حيناً. يسعى المغول دأبهم إلى الاستيلاء عليها، أو على إحدى مدنها (ولا سيما حلب)، ليجعلوا منها قاعدة عسكرية يهاجمون منها المماليك. أو قاعدة تجارية يتطلعون منها إلى نافذة بحرية. من غير أن يتمكنوا من الوصول إلى مصر أو إلى حدودها.

ذلك أن المماليك كانوا ينظرون إلى الشام على أنها جزء من مملكتهم الإيلخانية، وبوابة توصلهم إلى حرب عدوهم، أو يأمنون بها شره. وكانوا كلما أغاروا على الشام رُدُّوا على أعقابهم خاسرين. وكان نهر الفرات الحد الفاصل بين الفريقين. ولكنهم في غاراتهم هذه جميعاً لم يفكروا في الإغارة على العراق لأنها ملكهم، ولم يفكروا في إنعاشها بطريقة ما. كما أن المماليك حين كانوا يصدون غارات المغول لم يحاولوا قط استعادة العراق من أيدي هؤلاء الدخلاء الفجرة، مع أن أبوابه كانت ميسورة لهم.

وإذا مُني العراق في تلك الحقبة بالإهمال، فقد حظي الشام بمئات الآلاف من الجنود المغول والمصريين معاً، يجوسون دياره، ويفنون زروعه، ويُقلقون سكانه، حتى لم تعد ترى سنة لا يمرُّ بها جيش مملوكي متجه شمالاً أو شرقاً، أو جيش مغولي يغزوها من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها.

ومع أن أغلب المغول دانوا بالإسلام، فإن فكرة حرب المماليك كانت راسخة في أذهانهم؛ ورثوها عن جدهم هولاكو. وكانوا في كل مرة يأملون بالثأر، فيهجمون فيظفرون أو يندحرون. والشعب العربي المسكين في الشام كان محط كل انتقام.

وقد كان خط سير المغول دائماً الجزيرة شمالاً، مُسايرين نهر الفرات. فمدينة حلب محطتهم الأولى والكبرى. فلقيت هذه المدينة الويلات من المغول طول مدة حكمهم تقريباً. ومع هذا فقد لقوا عنتاً كبيراً من أهلها ومن سكان المدن الشامية الأخرى. فلا نكاد نجد مدينة شامية استسلمت لهم من غير حرب ودك بالمجانيق.

وسنحاول الحديث عن مدن الشام والجزيرة التي أغرقها المغول بويلاتهم، وعاثوا بها ظافرين أو مندحرين. وقد كان الشعراء يتابعون انتصارات القواد المماليك، وبسالة الشعب العربي، ويلاحقون فلول المغول بقصائدهم النصرية التي دلت على انتعاش الشعر في هذه المرحلة.

الهجوم على الموصل:

لم تنج الموصل مدينةُ عميل المغول بدر الدين لؤلؤ من الهجوم والتدمير. فقد توفي لؤلؤ سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٥٩م. فتسلم ابنه الصالح إسماعيل حكم المدينة. غير أنه لم يسر على خطة أبيه في موادعة المغول، ولهذا هاجموه. فأرسل إسماعيل أخاه إلى بيبرس يستنجده على الأعداء. فلبى بيبرس طلبه بفرقة من الفرسان. لكن المغول اكتشفوا أمر النجدة، فأبادوهم جميعاً، وارتدوا ألبسة النجدة المصرية، ودخلوا مدينة الموصل بالخدعة، فقتلوا ملكها بعد أن حاربهم بكل بسالة، وقتلوا سكانها، واستباحوها تسعة أيام[١] سنة ٦٦٠ هـ - ١٢٦١م. وأخضعوها لسيطرتهم.

الهجوم على الجزيرة:

كانت مدينة إلبيرة[٢] أهم المدن الجزرية التي عاثوا فيها فساداً، ولقي أهلها منهم هولاً. فقد استمروا بهجومهم عليها مدة خمس عشرة سنة تقريباً، وهم بين مد وجزر عليها. فهم احتلوها سنة ٦٦٢ هـ - ١٢٦٣م. ولكن لما سمعوا بتوجه بيبرس نحوهم ولّوْا مدبِرين[٣]. ثم عادوا إليها في السنة التالية، وضربوها بالمجانيق لأنها استعصت عليهم. وحين علموا بتقدم بيبرس تركوا حصارها وهربوا[٤].

---

(١) شذرات الذهب: ٥/٣٠٠. تاريخ مغول: ٤٩٦.

(٢) إلبيرة: بلدة قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية (ياقوت).

(٣) البداية والنهاية: ١٣/٢٤٤.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ٥/٨٣١.

وفي سنة ٦٦٩ هـ - ١٢٧٠م هاجموا عينتاب والروج وقَميطرون وقلعة قَطيبا. واستمروا بفسادهم في الجزيرة حتى بلغوا أفاميا (قرب حماة). ثم هربوا من وجه بيبرس. لكنهم عادوا فتوقفوا عند إلبيرة يحاولون احتلالها من جديد. فعبر بيبرس الفرات وهاجم الجيش المغولي، فهرب من وجهه تاركاً وراءه كل عتاده الحربي[١].

وفي سنة ٦٧١ هـ - ١٢٧٢م نظموا حملتهم نحو إلبيرة من جديد، ووضعوا الحاميات على طول نهر الفرات ليعرقلوا تقدم بيبرس[٢]، وحاصروا المدينة. فأرسل أميرها حمام الزاجل نحو حماة وحمص يطلب نجدة، بينما باشر بالدفاع عن قلعته ببسالة عربية نادرة[٣]. ومع أن بيبرس استطاع عبور الفرات لإنقاذهم، إلا أنه رأى أن سكان المدينة انتصروا على المغول بأنفسهم. فسر السلطان، وأنعم على أميرها، وعاد وهو يجرّ المغول الأسرى خلفه[٤]. وقد كان السلاجقة الروم يساعدون المغول في كثير من هجماتهم.

الهجوم على حلب:

ما لقيته مدينة حلب على مدى ستين سنة لم تلقه مدينة أخرى في آسية كلها. وقد صبرت طيلة هذه المدة ولم تستسلم.

توالت على حلب الحملات تباعاً منذ هجوم هولاكو حتى جلوس أبي سعيد. فحين ولى قطز علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ على حلب لم يُثبت جدارة في إدارتها ولا في الدفاع عنها. فلما بلغ المغول مقتل قطز بعد معركة عين جالوت اجتمع كثير من المغول، مع من كانوا في الجزيرة، وهاجموا حلب بقيادة أباقا بن هولاكو[٥]. فلم يحسن علاء الدين إعداد الجيش المناسب، فأباده المغول كله.

---

(١) المختصر: ٤/٧ .

(٢) من عجب أن بعض المؤرخين ذكروا أن سلطان المماليك آنئذ كان قلاوون. انظر مثالاً: السلوك: ١/٢/٦٠٦ وشذرات الذهب: ٥/٣٣٣.

(٣) البداية والنهاية: ١٣/٢٦٩. تاريخ مغول: ٢١٠.

(٤) السلوك: ١/٢/٦٠٦.

(٥) شذرات الذهب: ٥/٢٩٦.

وأخرج سكان المدينة إلى «قرنبيا» (مقر الأنبياء). فاستاء أمراء حلب منه، وقبضوا عليه واستولوا على أمواله، وعينوا مكانه حسام الدين لاچين. لكن الوالي الجديد هرب في الحملة الثانية، وتابع أمير حماة الهرب معه إلى مصر. غير أن جيش حمص استطاع أن يردَّهم على أعقابهم. فعين بيبرس أميراً جديداً على حلب هو فخر الدين الحمصي[1].

وفي سنة ٦٥٩ هـ - ١٢٦٠م دخل المغول حلب، وأخرجوا منها كل غريب وقتلوه! ثم حاصروا المدينة حتى انعدم الطعام منها، فأكل الناس لحم الميتة[2].

وفي سنة ٦٦٨ هـ - ١٢٦٩م اتفق «صمغان» أمير المغول في بلاد الروم مع الإفرنج على الإغارة، فدخلوا حلب وعاثوا فيها. وحين أحسوا بتحرك جيش المماليك هربوا[3]. وفي سنة ٦٧٥ هـ - ١٢٧٦م هجم المغول برفقة جيش سلاجقة الروم ففتحوا أَبْلُستين (البستان)، لكن بيبرس تبعهم وانتصر عليهم. ثم أرسل إلى أمير السلاجقة معين الدين پَراونَه يقرِّعه على اتفاقه مع المغول ضد بلاد الإسلام.

وتألم أباقا لخسارته هذه؛ فهذه ثالث معركة كبيرة يخسر فيها أمام جيش بيبرس[4]. ثم أعادوا الكرة سنة ٦٧٩ هـ - ١٢٨٠م بثلاثة جيوش بعد موت بيبرس. فاجتمعت جيوش الشام مع جيوش مصر في حماة. فاضطرب سكان حلب، وهربوا من مدينتهم، متجهين نحو دمشق ومصر. وتقدم المغول فملكوا عينتاب، ثم دخلوا حلب وقتلوا ونهبوا. وأحرقوا مدارسها وجوامعها بقيادة منكوتمر بن هولاكو. ثم أعادوا الكرة بعد سنة ومعهم عساكر الأرمن. فجفل سكان حلب وهربوا من مدينتهم، متجهين نحو حماة وحمص. ولحقتهم جيوش السلطان قلاوون ومعه الأمير البدوي عيسى بن مَهنا. لكن المغول هربوا. ووصل منكوتمر إلى بغداد، فقرعه أخوه أباقا على هربه وقال له: لِمَ لا متَّ أنت والجيش ولا انهزمت[5]؟

وفي سنة ٦٩٩ هـ - ١٢٩٩م سار غازان بجموع عظيمة من المغل والكرج،

---

(١) المختصر: ٢٠٨/٣.

(٢) نهر الذهب: ١٦٥/٣.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ٨١٠/٥.

(٤) تاريخ مغول: ٢١٣.

(٥) السلوك: ٦٩١/٣/١ - ٦٩٦، مفصلاً.

وعبروا الفرات ونزلوا مَجمع الروج، منتهزاً فرصة اضطراب الأوضاع في مصر والشام. وكان الناس يهربون من مدنهم ويقيمون في الصحراء والبادية. وأقام المغول في حلب ثلاثة أشهر، فأفسدوا فيها وعاثوا. لكنهم عادوا على أعقابهم بلا سبب[١].

ثم عاودوا هجومهم بعد سنة فدخلوا حلب. فبرز لهم «قَرا سُنْقُر»، واجتمع جيشه في حماة. فاحتل المغول: سرمين ومعرة النعمان وتيزين والعمق وغيرها، ونهبوا وقتلوا. ولم تستطع جيوش قلاوون إغاثة حلب لوعورة الطريق شتاء. ثم عاودوا هجومهم سنة ٧٠٢ هـ - ١٣٠٢م، وأغاروا على القريتين وما حولها. فاجتمعت جيوش حماة وحلب، وحاربوا المغول وانتصروا عليهم[٢].

وكان كيخاتو أكثر الإيلخانات اهتماماً باحتلال حلب؛ فقد أرسل رسولاً إلى الأشرف خليل يعلمه أنه عازم على السير إلى حلب، التي كان جده هولاكو قد فتحها، وسيقيم فيها ويجعلها عاصمته. فأجابه الأشرف: «لقد أخذ الخان عني فكرتي؛ فلقد كنت أفكر بالأمر نفسه من أجل بغداد. فإنني قادم لاحتلالها، وأعيد إليها مكانتها السابقة لتكون مركز الخلافة العباسية. وسنرى أيٌّ منا الأسبقُ في تحقيق هدفه». لكن أحداث المغول الداخلية وموت الأشرف منعت الطرفين من تحقيق هدفيهما[٣].

الهجوم على حمص ومعركة الصُّفَّر:

كانت حمص أمنية المغول الثانية بعد حلب لاتساع سهولها وخصبها، مما يسهل على جيوشهم العسكرة فيها، إضافة إلى أنها كانت نصف الطريق للجيوش المغولية نحو مصر. وكانت حلب طريقهم لفتح حمص. فقد اغتنم أباقا فرصة اضطرابات مصر وقدم إليها، لكنه مُني بهزيمة منكرة قبل دخولها[٤].

وفي سنة ٦٧٨ هـ - ١٢٧٩م اتجه منكوتمر بجيش كبير عدته مئة ألف

---

(١) نهر الذهب: ١٧٢/٣.

(٢) المختصر: ٤٨/٤.

(٣) تاريخ مغول: ٢٦٧.

(٤) A History of Persia, 102.

فارس، وكان قلاوون آنئذ في الشام. فاستعد لهم وعسكر في المرج. ودخل المغول حماة، وتابعوا حتى حمص. وهناك التقى الجمعان. قال قطب الدين اليونيني واصفاً المعركة:

«وكانت وقعة عظيمة لم يُشهد مثلُها. وكان الملتقى بين مشهد خالد بن الوليد والرستن والعاصي. وانكسر المسلمون شر كسرة. وحاول التتار دخول حمص، ولكنها أغلقت، فقتلوا من حولها. وصمد قلاوون، فتجمع المسلمون حوله. واستمروا واستماتوا حتى وافاهم النصر، وجُرح منكوتمر. وساعدهم أمير العربان عيسى بن مهنا. وهرب التتار فرقتين: فرقة أخذت طريق سَلمية والبرية، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات. وجهز السلطان فرقاً تتبعهم وتقتلهم». ويروى أن أباقا مات غماً وكمداً، ومات أخوه منكوتمر بعده بمدة[1].

غير أن المغول قدموا الشام سنة ٦٩٩ هـ ـ ١٢٩٩م فدخلوا حلب وحمص ودمشق منتصرين وحكموا فيها. وكان يساعدهم في حملتهم هذه الأرمن والجورجيون والفرنج والقبرصيون[2].

أما المعركة الفاصلة، والتي لا تقل أهمية عن معركة عين جالوت، فهي معركة الصفر قرب دمشق[3]. فقد أعد غازان جموعاً عظيمة يريد بها كسر المسلمين. فعبر الفرات ودخل حلب ثم حماة، ونزل قرب حمص. وسارت الجموع الإسلامية بصحبة السلطان الناصر والخليفة والخطباء، ومعهم لفيف من الأمراء والقواد[4]. فاستعاد الناصر دمشق بعد أن كان غازان استولى عليها، ثم صعد نحو المغول.

وجرت المعركة في ٢ رمضان ٧٠٢ هـ/٢٠ نيسان ١٣٠٣م[5]. وكانت معركة ضارية، قتل فيها خلق كثير من الطرفين، لكن المغول هزموا في النهاية شر هزيمة، وغاص رجالهم بالمياه، ووحلت خيولهم، فتبعهم المسلمون يقتلون فيهم.

---

(١) النجوم الزاهرة: ٣٠٤/٧. وقد ساعدهم ابن مهنا من خارج السور.

(٢) تارخ سورية: ٢٧٠/٢.

(٣) أحسن Sykes وصفه الدقيق للمعركة، صفحة: ١١١.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ٨٩٧/٥.

(٥) المختصر: ٤٨/٤.

وكان السلطان قد طلب من الناس أن يَبْثُقوا الأنهار. ومن لم يمت في المعركة أو في الوحول مات في عبور الفرات. فقد عبروا الفرات خوفاً، وكان هائجاً. فابتلع النهر عدداً كبيراً منهم[1]. ولم يصل منهم إلى بغداد إلا البقية المرهقة. فأصيب غازان بصدمة عنيفة عندما وصلته أنباء اندحار جيشه. فقطع رؤوس عدد من ضباطه[2]. وهاجمه رعاف شديد أدى إلى موته سنة ٧٠٣ هـ - ١٣٠٣م.

وهكذا غطى الناصر انتصاراته في معركة الصفر بما خسره في مجمع المروج. وعاد ومعه عشرة آلاف أسير، وعشرون ألف جواد، وعدد كبير من الأسرى القواد. ودخل دمشق بكل فخار وإجلال. وتعالت حناجر الشعراء بمدحه والثناء على نصره.

وكانت هذه المعركة ثالث المعارك الكبرى في أرض الشام، كما كانت الحاسمة في صد المغول. فقد أيقن المغول أخيراً أن في الشام هلاكهم. وسرعان ما تحولوا إلى سلم، ثم إلى صداقة. وقد لعب المؤرخ الكبير أبو الفداء (أمير حماة) دوراً كبيراً في هذه الحملة؛ إذ كان يرصد تحركات العدو، ويعلم جيش المسلمين عن ذلك[1]. وهكذا أدى التعاون العربي الكامل إلى النصر المؤزر.

وذابت ثلوج الرعب عن مدن الشام بعد مسيرة نصف قرن من الزمان، واندحر أكبر خطر داهم بلاد الشام. وهكذا انتهى حكم الإيلخانيين كذلك، بعد أن تكسرت نصال الطرفين، وأرهقت مدن الشام الكبرى والصغرى. وانتهى كذلك حكم المماليك البحرية من غير أن يحققوا هدف العرب، وهو استعادة العراق. ولكنهم أنقذوا الشام من المغول والصليبيين على السواء.

وشرعت حناجر الشعراء تنشد فرحة، وبرز الأدباء يدونون الانتصارات، والمؤرخون يسجلون أحداث النصر بماء الذهب. فكانت هذه الحروب معين الأدباء أجمعين. ومبعث إلهامهم. ولا يطلق الحناجرَ مثلُ الانتصار..

وما أعظم اتحاد الجيوش العربية أمام العدو الغدار!

---

(١) تاريخ مغول: ٢٧٨.

(٢) Baghdad The City of Peace, 164.

المصادر والمراجع العربية والأجنبية
الوارد ذكرها في الحواشي

١ ـ الكتب العربية

١ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية ـ ابن الجوزي لايبزيك ـ ١٨٧٨.
٢ ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ زكريا القزويني ـ بيروت ـ ١٩٦٩ .
٣ ـ أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية ـ رفائيل بابو إسحاق ـ بغداد ـ ١٩٦٠.
٤ ـ الأدب في العصر السلجوقي ـ المؤلف ـ ليبيا ـ ١٩٧٤.
٥ ـ أدب الدول المتتابعة ـ عمر موسى باشا ـ بيروت ـ ١٩٦٧.
٦ ـ الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ـ قطب الدين اليونيني.
٧ ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ مصر ـ دار السعادة.
٨ ـ تاريخ أباطرة المغول الإسلامية في الهند ـ جمال الدين الشيال ـ مصر ـ ١٩٦٧.
٩ ـ تاريخ ابن خلدون (العبر) ـ المغرب ـ ١٩٣٦.
١٠ ـ تاريخ الأدب في العراق (١) ـ عباس العزاوي ـ بغداد ـ ١٩٦١.
١١ ـ تاريخ الترك في آسية الوسطى ـ و. بارتولد ـ مصر ـ ١٩٥٨.
١٢ ـ تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ـ مصر ـ ١٩٦٩.
١٣ ـ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ـ أحمد السعيد سليمان ـ مصر ـ ؟
١٤ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ـ بروكلمان ـ بيروت ـ ١٩٦٨.
١٥ ـ تاريخ العرب والإسلام ـ سهيل زكار ـ دمشق ـ ١٩٧٥ .

١٦ ـ تاريخ الفكر العربي ـ عمر فروخ ـ بيروت ـ ١٩٦٢.
١٧ ـ تاريخ مختصر الدول ـ ابن العبري ـ بيروت ـ ١٩٨٠.
١٨ ـ التاريخ المنصوري ـ ابن نظيف الحموي ـ دمشق ـ ١٩٨٢.
١٩ ـ تاريخ نصارى العراق ـ حسن الباشا محمود ـ بغداد ـ ١٩٤٨.
٢٠ ـ تتمة المختصر ـ ابن الوردي ـ بيروت ـ ١٩٧٠.
٢١ ـ التيارات الأدبية إبان الغزو المغولي ـ المؤلف ـ دمشق ـ ١٩٨٧.
٢٢ ـ الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ـ ابن الساعي ـ بغداد ـ ١٩٣٤.
٢٣ ـ جنگيزخان قاهر العالم ـ رينيه غروسيه ـ دمشق ـ ١٩٨٢.
٢٤ ـ حدود العالم ـ المؤلف؟ ـ أوكسفورد ـ ١٩٣٧ .
٢٥ ـ حسن المحاضرة ـ السيوطي ـ مصر ـ ١٣٢٧ هـ.
٢٦ ـ الحوادث الجامعة ـ ابن الغوطي ـ بغداد ـ ١٣٥١ هـ.
٢٧ ـ الحياة السياسية في العراق ـ محمد صالح داود القزاز ـ النجف ـ ١٩٧١ .
٢٨ ـ خلاصة الذهب المسبوك ـ عبد الرحمن سبط الأربلي ـ بغداد ـ المثنى.
٢٩ ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ـ ابن الشحنة ـ دمشق ـ ١٩٨٤.
٣٠ ـ دولة الظاهر بيبرس ـ محمد جمال الدين سرور مصر ـ ١٩٦٠.
٣١ ـ ذيل مرآة الزمان ـ قطب الدين اليونيني ـ حيدر آباد ـ ١٣٧٤ هـ.
٣٢ ـ رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار) ـ مصر ـ ١٩٦٦.
٣٣ ـ الروضتين في أخبار الدولتين ـ أبو شامة ـ القاهرة ـ ١٢٨٧ هـ.
٣٤ ـ السلوك لمعرفة الملوك ـ المقريزي ـ مصر ـ ١٩٣٦.
٣٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ عبد الحي الحنبلي ـ مصر ـ ١٣٥١هـ .
٣٦ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ـ أحمد الحنبلي ـ بغداد ـ ١٩٧٨.
٣٧ ـ صورة الأرض ـ أبو جعفر الخوارزمي ـ فيينا ـ ١٩٢٦.
٣٨ ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ تاج الدين السبكي ـ طبعة مصر.
٣٩ ـ العالم الإسلامي في العصر المغولي ـ بارثولد شبولر ـ دمشق ـ ١٩٦٢.
٤٠ ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ـ القزويني ـ مصر ـ كتاب التحرير.

٤١ ـ العرب والتتار ـ بلا مؤلف ولا تاريخ ـ ليبيا.
٤٢ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ ابن أبي أصيبعة ـ بيروت ـ ١٩٦٥.
٤٣ ـ الفخري في الآداب السلطانية ـ ابن الطقطقى.
٤٤ ـ الفرق بين الفرق ـ عبد القاهر البغدادي ـ طبعة مصر.
٤٥ ـ فوات الوفيات ـ ابن شاكر الكتبي ـ بيروت ـ ١٩٧٤ .
٤٦ ـ قرامطة العراق ـ محمد عبد الفتاح عليان ـ مصر ـ ١٩٧٠.
٤٧ ـ الكامل ـ ابن الأثير ـ مصر ـ ١٨٨٥.
٤٨ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي (م ٦) ـ بغداد ـ ١٩٨١ ـ ٨٢.
٤٩ ـ المختصر في أخبار البشر ـ أبو الفداء ـ بيروت ـ دار المعرفة.
٥٠ ـ مرآة الزمان ـ يوسف بن قزاوغلي ـ الهند ـ ؟
٥١ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ بيروت ـ دار صادر.
٥٢ ـ المعجم الذهبي ـ المؤلف ـ بيروت (ط ٢) ـ ١٩٨٠.
٥٣ ـ مغول إيران بين المسيحية والإسلام ـ مصطفى طه بدر ـ مصر ـ ؟
٥٤ ـ الملل والنحل ـ الشهرستاني ـ مصر ـ ١٩٠٢.
٥٥ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ ابن الجوزي ـ حيدر آباد ـ ١٣٥٧ هـ.
٥٦ ـ مؤيد الدين العلقمي ـ محمد الشيخ حسن الساعدي.
٥٧ ـ النجوم الزاهرة ـ ابن تغري بردي ـ مصر ـ ١٩٣٨.
٥٨ ـ نصير الدين الطوسي ـ عبد الأمير الأعسم ـ بيروت ـ ١٩٧٥.
٥٩ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ النويري ـ القاهرة ـ ١٩٥٩.
٦٠ ـ نهر الذهب في تاريخ حلب ـ كامل الغزي ـ حلب ـ ؟

٢ ـ الكتب المترجمة إلى العربية

٦١ ـ تاريخ الترك في آسية الوسطى ـ و. بارثولد ـ مصر ـ ١٩٥٨.
٦٢ ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ فيليب حتي ـ بيروت ـ ١٩٥٩.
٦٣ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ـ كارل بروكلمان ـ بيروت ـ ١٩٦٨.

٦٤ ـ جامع التواريخ (عن الفارسية) ـ فضل الله العمري ـ مصر ـ ١٩٦٠.
٦٥ ـ جنگيزخان قاهر العالم ـ رينيه غروسيه ـ دمشق ـ ١٩٨٢.
٦٦ ـ جنگيزخان وجحافل المغول ـ هارولد لام ـ القاهرة ـ نيويورك ـ ١٩٦٢.
٦٧ ـ راحة الصدور وآية السرور ـ رشيد الدين ـ القاهرة ـ ١٩٦٠.
٦٨ ـ العالم الإسلامي في العصر المغولي ـ بارثولد شبولر ـ دمشق ـ ١٩٨٢.
٦٩ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ـ زامباور ـ مصر ـ ١٩٥١.

٣ ـ الكتب الفارسية

٧٠ ـ تاريخ أدبيات در إيران ـ ادوارد براون ـ طهران ـ ١٣٤٢ هـ. ش.
٧١ ـ تاريخ بَناكتي ـ أبو الفضل البناكتي ـ طهران ـ ١٣٤٨ هـ. ش.
٧٢ ـ تاريخ جهانكشاي ـ عطا ملك الجويني لايبزيك ـ ١٩١٢.
٧٣ ـ تاريخ مغول ـ عباس إقبال ـ تبريز ـ ١٣٤١ هـ. ش.
٧٤ ـ تجارب السلف ـ هندوشاه النخجواني ـ طهران ـ ١٣٤٤ هـ. ش.
٧٥ ـ لغت نامه ـ علي أكبر دهخدا ـ طهران.
٧٦ ـ سياستنامه ـ نظام الملك ـ طهران ـ ١٩٦٥.
٧٧ ـ وزارات در عهد سلجوقي ـ عباس إقبال ـ طهران ـ ١٣٢٨ هـ. ش.

٤ ـ الكتب الإنكليزية

78 - Arnold, Sir Thomas. The Preaching of Islam, London, 1935.
79 - Barthold, W. Turkestan Down to the Mongol Invasion, London, 1968.
80 - Bosworth, C. F. The Ghaznavids and Eastern Iran, London, 1963.
81 - Boyle, J. A. in The Cambridge History of Iran, vol. 1, London, 1968.

82 - Browne, Edward. - A History of Persian Literature Under Tatar Dominion, Cambridge, 1920.

- A Traveller's Narrative, Cambridge, 1891.

83 - Broene, Laurence, The Eclipse of Christianity in Asia, Cambridge, 1933.

84 - Cahen, Claude. «The Mongols and The Near East» in A History of The Crusades, ed. Walff and Hazard, vol. 2, London 1975.

85 - Coke, Richard. Baghdad, The City of Peace, London, 1927.

86 - Dawson, Christopher. The Mongol Mission, London and New York, 1955.

87 - Denis, Sinor. «The Mongols and Western Europe» in A History of The Crusades, ed. Walff and Hazard, vol. 3, London, 1975.

88 - Gibb, Sir Hamilton A. R. «The Aiyubids» in A History of The Crusades, ed. Walff and Hazard, vol. 2, London, 1975.

89 - Haslund, Henning. Tests in Mongolia, London, 1935.

90 - Howorth, Sir Henry. History of The Mongols, London, 1888.

91 - Lane - Poole. A History of Egypt in The Middle Ages, London, 1901.

92 - Lewise, B. - The Assassins, London, 1967.

- The Original of Isma'ilism, Chicago, 1955.

93 - Marco Polo. The Travels (tr. R. Lathan), London, 1980.

94 - Muir, Sir William. The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, London, 1891.

95 - Netton, I. R. Muslim Neoplatonists, London, 1982.

96 - Prawdin, Michael. The Mongol of Empire, trans, Eden and Cedar Paul, London, 1941.

97 - Sykes, Sir Percy. A History of Persia, London, 1963.

98 - Talbet, Tamara. The Seljuks, London, 1961.

99 - Ziada, Mustafa M. «The Mamluk Sultans to 1293» in A History of The Crusades, vol. 2, ed. Walff and Hazard, London, 1975.

٥ ـ الموسوعات

100 - Encyclopaedia Britannica.

101 - Encyclopaedia of Islam (new ed.).

102 - Encyclopaedia Universalis.

103 - Larousse Encyclopaedique.

١٠٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ طبعة مصر.

محتوى الكتاب

المقدمة ٥

الفصل الأول: المغول والزحف الجنكيزي شرقاً

- أصول المغول ١١
- المغول - التتار - الترك ١١
- البيئة والتوزع البشري ١٦
- المجتمع المغولي وثقافته ١٨
- جنكيزخان ونشأة المغول ٢٣
- اليساق المغولي ٢٧

فتوحات جنكيزخان ٣١

- غزو بلاد ما وراء النهر ٣١
- فلول خوارزمشاه ٣٨

نهاية جنكيزخان وحكومة الأبناء ٤٠

١ - شعبة تولوي ٤١

٢ - شعبة أوكتاي ٤١

٣ - شعبة جوجي ٤٣

٤ - شعبة جغتاي ٤٥

الفصل الثاني: عقائد المغول بين الشامانية والإسلام

عقائد المغول ٤٩

- الشامانية ٤٩
- المغول والديانات المجاورة ٥٠

- المسيحية عند المغول ٥٢
- المغول والمراسلات مع الغرب ٥٤
- المسيحية وغزو العراق ٥٥
- المسيحية وغزو الشام ٥٦
الإسلام والمغول ٥٨
- بواكير التسرب الإسلامي ٥٨
- إسلام زعماء المغول ٥٩
الفصل الثالث: فتوح هولاكو
- توجيه هولاكو للفتوح ٦٥
- من هو هولاكو ٦٧
- بدء الحملة ٦٨
- قائمة الأئمة الإمامية والإسماعيلية ٧٠
- خلفاء الدولة الفاطمية ٧١
دك قلاع الإسماعيلية ٧٢
- الفرقة الإسماعيلية - الحشيشية ٧٢
- الحسن الصباح والفرقة الصباحية ٧٤
- الدعوة الحشيشية ٧٨
- قلاع الإسماعيلية ٨٠
- خلفاء الحسن الصباح ٨١
- إسماعيلية الشام ٨٢
- زحف هولاكو نحو القلاع ٨٣
الفصل الرابع: غزو العراق وتدمير بغداد
الوضع العام للعصر العباسي الأخير ٨٩
- وضع الخلافة ٨٩
- وضع الوزراء ورجال الحاشية ٩٢

- الحاكم السجلوقي ٩٤
- المجتمع في العصر العباسي الأخير ٩٤
- الوضع الاقتصادي والنكبات ٩٧
اتجاه المغول نحو العراق ٩٩
- الخليفة المستعصم بالله ١٠٠
- بين الخليفة وهولاكو ١٠٢
- الزحف على بغداد ١٠٤
- قتل الخليفة ونهاية بني العباس ١٠٩
- ابن العلقمي ودوافع الغزو المغولي ١١٣
- حادثة الكرخ وتردي الأوضاع ١١٤
- عود إلى ابن العلقمي ١١٦
- نهاية ابن العلقمي ١٢٣
- بغداد بعد الغزو ١٢٤
الفصل الخامس: الأوضاع السياسية والعامة في الشام ومصر
الأوضاع السياسية إبّان الغزو المغولي ١٢٩
- حكومة الأطراف ١٢٩
- الأيوبيون ١٣٠
- الصالح أيوب ١٣٢
- الناصر يوسف ١٣٥
- السلالة الأيوبية في مصر والشام ١٣٩
- الوضع العام للشام ومصر ١٤٢
- نشأة المماليك ١٤٤
- شجر الدر ١٤٥
- قطـــز ١٤٧
- الظاهر بيبرس ١٤٨

معركة عين جالوت ١٥١
- المغول في طريقهم إلى حلب ١٥١
- أحداث معركة عين جالوت ١٥٦
الخلافة العباسية الثانية ١٦٣
- الخليفة الأول ١٦٤
- الخليفة الثاني ١٦٥
- المماليك والمغول بعد بيبرس ١٦٧
المماليك البحرية ١٧٠
الفصل السادس: الدولة الإيلخانية في إيران والعراق
- بين بركاي وهولاكو ١٧٣
- موت هولاكو وإرثه ١٧٦
- إيلخانات إيران والعراق ١٧٨
- الحكم الإيلخاني ١٧٨
الشام في ظل المماليك والمغول بعد عين جالوت ١٨٤
- الهجوم على الموصل ١٨٥
- الهجوم على الجزيرة ١٨٥
- الهجوم على حلب ١٨٦
- الهجوم على حمص ومعركة الصُّفَّر ١٨٨
المصادر والمراجع العربية والأجنبية
١ - الكتب العربية ١٩١
٢ - الكتب المترجمة إلى العربية ١٩٣
٣ - الكتب الفارسية ١٩٤
٤ - الكتب الانكليزية ١٩٤
٥ - الموسوعات ١٩٦

كتابخانه تخصصی
وزارت امور خارجه
M162452M